الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات
الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية العربية السورية

وزارة الأوقاف

سلسلة وزارة الأوقاف التنويرية

فقه الأزمة

الإسلام

بين المفاهيم والمصطلحات

الجزء الثاني

جميع الحقوق محفوظة لوزارة الأوقاف

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م

سلسلة وزارة الأوقاف التنويرية

فقه الأزمة

الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات

الجزء الثاني

١ـ مصطلحات أفرزتها الأزمة .

٢ـ مفهوم الثورة في الإسلام .

٣ـ مصطلح « جهاد النكاح » وحقوق المرأة في الإسلام .

٤ـ المنهج النبوي في الدعوة وموقع الأحزاب الدينية منه .

٥ـ وحدة الأمة في ظل احترام أبنائها المتبادل وغنى التنوع المذهبي .

٦ـ أهمية المذاهب الفقهية في رعاية الوحدة الإسلامية .

مقدمة الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصَّلاةِ وأتمُّ التَّسليم على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد :

قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : ٣٣] . وقال الله عز وجل أيضاً : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فقد وضع الإسلام لمنهج الدَّعوة وسائل تُعينُ على أداء الواجب تجاه الوطن والدِّين ، وإننا ـ جميعاً ـ مُتَّفقون على أن بلادنا تَمرُّ بمرحلة مَصيريَّة ، وإنَّ هناك رَغبة جَامِحَة من الغرب في تَدمير مُقدَّرات البلاد ، وإذلال أبنائه ، وجعله رهينة للمخطَّطات والأهداف الصُّهيونيَّة والأمريكيَّة في العالم .

والإسلام بِخطَابه المعتدل ومفهومه الشَّامل هو الذي يُقدِّم للأمَّة الإسلاميَّة الفكر السَّويَّ الذي يُمثِّلُ رُوحها ويصوغُ وُجدانها ويستنهضُ هِمم أبنائِها ، وَيُوقِظُ فِيها الطَّاقة المحرِّكة القادرة على الإبداع والعطاء . وَمِن أهمِّ الأسباب التي تُوصِلُنا إلى هذا الفكر وهذا المنهج ، العمل على توجيه أفراد الأمَّة توجيهاً واعياً سليماً ، وذلك مِن خلال فعاليَّات الخطباء على منابرهم ، والمدرِّسين الدِّينيِّين في

مساجدهم ، والأكاديميِّين في جامعاتهم ومعاهدهم . . .

ومما لا شكَّ فِيهِ أن الدَّعوة الإسلاميَّة بمراحلها جميعاً تحتاج إلى رجال مُؤَهَّلين عِلميَّاً وخُلقيَّاً لحملها وتبليغها على وجهها الصَّحيح ،وَتحتاج إلى دُعاة يَفهمون الإسلام فَهماً سَليماً ويَسْعَونَ في إيصاله إلى أبناء هذه الأمَّة بَعيداً عن التَّشويه والتَّحريف والتَّزييف والفهم الخاطىء ، مُنسجماً مع طبيعة العَصر الذي نعيش ، الممتلىء ـ كما نعلم ـ بالفتن الجسام .

كما أن الدُّعاة مُحتاجون إلى فَهمِ وَاقع أُمَّتهم وظروف عصرهم فَهماً لا غُموضَ فِيه ولا تحريف ، وبعدها يَتَلَمَّسونَ الحلول المناسبة للمشكلات الطَّارئة بما يَتلاءم مع منهج القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة والفهم الصَّحيح لنصوصهما .

فالواجب الشَّرعي يَتطلَّبُ مِنَّا اليَوم تَضافر جهود المؤسَّسات والقوى الدِّينيَّة التَّابعة لوزارة الأوقاف وغيرها من الوزارات ، من : ثانويَّات شرعيَّة ، ومعاهد متوسطة وعليا ، ومُجمَّعات دينيَّة ، وكليَّات شريعة في الجامعات السُّوريَّة . بالإضافة إلى جُهود القائمين بالشَّعائر الدِّينيَّة ؛ مِن خطباء مساجد ، ومدرِّسين دينيِّن ومفتين ، ومن فعاليَّات أخرى كالتَّدريس الدِّيني النِّسائي ، والتَّوجيه والإرشاد. . . ، وذلك بهدف إطلاق حَملة إِنقاذٍ لِلفكر الإسلامي من محاولات الفكر الظَّلامي ، والتَّركيز على تصحيح المفاهيم وتوضيح حقيقة الدِّين من خلال هذه المؤسَّسات ؛ لِنَكون نَموذجاً يُحتذى في العالم العربيّ والإسلاميّ باعتبار دمشق عاصمة الحضارة الإسلاميَّة .

وعلى ضوء ما سَبق مِن مَعانٍ وأفكارٍ ، واستمراراً للسَّير قُدُماً على منهج التَّصَدِّي للفكر المنحرف والمتشدِّد ، وللتيَّارات الفكريَّة الضَّالَّة المُضِلَّة ، ومن ضَرورة تَلاحم الجُهود ، ولمِّ الشَّمل ورأبِ الصَّدع في الجسد الواحد ، ودعماً للفكر الدِّيني المعتدل ، وللوحدة الوطنيَّة التي نَعَمَت بها سوريَّة عقوداً طويلة من الزَّمن على رغم كلِّ ما يُحاك ضدَّها من مؤامرات ، وما تَتعرَّض له من فتن مُرَادُ أصحابِهَا ـ ومن يَسعون فِيها ـ تدمير كيان سوريّة ، أرضاً ، وبنية تحتيَّة ، وشعباً .

وانطلاقاً من أن الفكر الدِّيني المعتدل البنَّاء المُخلص هو البلسم الوحيد للجروح العميقة التي أصابت مجتمعنا وكادت تمزِّقه ، وهو القادر على جعل سوريَّة أقوى سياسيَّاً واجتماعيَّاً وثقافيَّاً وأخلاقيَّاً .

وبعد تَنَامِي فِتنة التَّكفير التي تجتاح العالم الإسلامي بِرُمَّته من شرقه إلى غربه ، حاصدة أرواح آلاف الأبرياء ، في تجاوزٍ صَريحٍ لِكل القيم الإنسانيَّة ، وانتهاك فاضح لكل الحرمات ، وتشويه غير مسبوق لصفاء الصُّورة الإسلاميَّة ، **هذه الفتنة التي يَقودها أصحاب الفكر الوهَّابيِّ لم تَطحن في تاريخها القديم والحديث إلا رِقَابَ المسلمين في اليمن والعراق والجزائر ومصر والشَّام وغيرها** ، **إنَّه فِكرٌ يُؤَسِّس** لإباحة ذبح الأبرياء ، ولقتل عشوائي ، ولتفجيراتٍ بسيَّارات مُفخَّخة ، وشبَّان انتحاريِّين يَذهبون إلى الموت وهم يَظنُّون أنهم ذاهبون إلى الفردوس الأعلى مباشرة ، مع مُباركة وفتاوى شرعيَّة من علماء تَزيدُ مِن عَزمهم وتسوِّغُ إرهابهم وتُحَفِّزُ الآخرين على سلوك النَّهج الذي سَلكَهُ

الانتحاريُّون نفسه ، وما الذي حَصل في دول كثيرة كالعراق والجزائر ومصر وأفغانستان ، وكان آخرها بلدنا سوريَّة ، إلا من هذا القبيل .

لهذا ، فإنَّ علماء القطر العربيِّ السُّوريّ والقائمين بالشَّعائر الدِّينيَّة تنادوا إلى العناية بقضايا ومسائل ومحاور غاية في الأهمِّيَّة ، وإلى تهيئة المناخ الملائم لإيصالها إلى أبناء الوطن بصورتها الحقيقيَّة ، وفهمها الذي يَتَّسِقُ مع الفهم السَّليم لأحكام الإسلام ، لِمَا لِهذه القضايا من أثرٍ كَبير في إعادة الاستقرار إلى ربوع بلدنا الحبيب .

وكان مِن نَتَاجِ هذا التَّوجُّه للسَّادة العلماء في سوريَّة أن شُكِّلت اللَّجنةُ العِلميَّة الفقهيَّة في وزارة الأوقاف ، ومِن أبرزِ مَهامِّها وضع الخُطَطِ الكفيلة بالارتقاء بالمستوى الفكري والدِّيني لأبناء الوطن بما في ذلك المحافظة على الفكر الوسطي لفهم الإسلام بَعيداً عن التَّطرُّف والغلو والتَّفريق ، وبما يُعَزِّز الوحدة الوطنيَّة الرَّائدة في سوريَّة .

بالإضافة إلى تأليف بُحوث علميَّة فقهيَّة وفكريَّة إثرائيَّة ، ودراسات مُتخصِّصَةٍ حَول أفكار ومحاور دينيَّة تُؤكدُ وَسطيَّة الإسلام واعتداله ، وتَنبذ التَّشدُّد والتَّطرُّف والتَّكفير ، وستكون تلك البحوث والدِّراسات مَنهجاً عِلميَّاً مَعرفيَّاً ومَرجِعاً فِقهيَّاً وفِكريَّاً يَتزوَّدُ مِنه الخطيب والمدرِّس الدِّيني في خُطَبِه ودروسه .

وكان باكورة أعمال هذه اللَّجنة إصدار سلسلة فقه الأزمة التي أطلقنا عليها اسم (السلسلة التَّنويريَّة ـ الإسلام بين المصطلحات والمفاهيم) .

وممَّا ركَّزت عليه هذه السلسلة :

* بيان حقيقة الفكر التَّكفيري وأصحابه الَّذين يَعملون في الصُّفوف الخلفيَّة ، ويظهر عملهم هذا في عمليَّات التَّفجير والقتل الجماعيِّ ، واضعين العصابات في الواجهة ، داعمين لها من الخلف .

* اتِّخاذُ الوسطيَّة والاعتدال في الطَّرح مِنهاجاً للدَّاعية إلى الله عزَّ وجل ، وذلك من خلال خطبه ودروسه ، وابتعاده عن التَّعصُّب للرَّأي .

* الدَّعوة إلى التَّسامح والتَّواصل ، واحترام الرأي الآخر ، والاعتراف بالخطأ والرجوع عنه بشجاعة وصراحة ، والتَّرحيب بنصح النَّاصحين ، وإحسان الظَّنِّ بالآخرين .

* الانطلاق من أنَّ باب الحوار في الإسلام مَفتوح للجميع ـ ومع الجميع ـ من أجل مصلحة الوطنِ واستقلاله والشَّعبِ وأمانه ، ومرادُ الجميع الوصول إلى الحقِّ وإشاعة وجوه الخير ، بَعيداً عن المصالح والأهواء التي تُؤدِّي إلى النِّزاع والفرقة ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

* تضافر الجُّهود للتَّمسُّك بالدِّين السَّمح بعيداً عن الغلوِّ والتَّشدُّد والفكر التَّكفيريّ الذي لا جدوى منه ، ولا يَكون معه إلا المزيد والمزيد من القتل والتَّدمير بين أبناء الدِّين الواحد والوطن الواحد .

* بيان حقيقة فريضة الجهاد في الإسلام ، وكشف المفاهيم المنحرفة والمصطلحات المزيَّفة التي أطلقها المُغرضون تحت مسمَّى

الجهاد ، وهي أبعد ما تكون عن الجهاد وعن الإسلام في شيء .

* وجوه الشبه بين أفكار التَّكفير القديمة وأفكار التَّكفير الحديثة وقرب بعضها من بعضها الآخر قائمة ومتكررة وثابتة ، وإن تَباينت في الإخراج والعبارة ، والسبب في ذلك أنَّ التَّكفير واحد في النوع ، وإن اختلف في التَّفاصيل .

* التَّحذير من الفساد والإفساد في الأرض ، وأثر منع حدوثهما في المحافظة على مُقدَّرات البلاد الاقتصاديَّة والتَّنمويَّة والبيئيَّة والثَّقافيَّة والتَّعليميَّة ، فهذه المقدَّرات ملك للجميع ، وإن تدميرها أو تعطيلها إرباك لحياتنا ، وتَضييق حقيقيّ علينا ، ومسؤوليَّة ذلك تقع على عاتقنا ، وهذا من التَّعاون على البرِّ والتَّقوى الذي أمرنا الله تعالى به .

* تأكيد مبدأ المصالحة والمناصحة والمصارحة بين المختلفين ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ ﴾ [النساء : ١٢٨] وقال الله عز وجل أيضاً : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١] . وقال رسول الله ﷺ : (الخلق كلُّهم عيالُ الله فأحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)(١) .

* منهجيَّة الاحتكام في القضايا المختلف فيها إلى أهل العلم الموثوق بإيمانهم وعدالتهم ووسطيَّتهم ورسوخهم في العلم لبيان حكم الشَّرع فيها في ضوء نصوص القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة ومقاصد الشَّريعة

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير برقم (١٠٠٣٣) .

ومبادئها العامَّة ، **وتوعية النَّاس إلى ضرورة عدم الالتفات إلى الفتاوى الشَّاذَّة والتَّكفيريَّة « فتاوى القتل والإرهاب »** .

* أهميَّة الانطلاق في الخطاب الدِّيني من مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة المتمثِّلة بقواعد كثيرة من أهمِّها قاعدة درء المفاسد وجلب المصالح ، والقواعد الخاصَّة بمراعاة الأولويَّات .

* بيان حقيقة الحرب الرَّعناء التي أعلنتها إسرائيل على سوريَّة ، وجنَّدت لها بالوكالة عبيدها الأقربين وخدَّامها الأباعد القابعين وراء البحار ، وعلى رَأسهم الفكر الوهَّابيّ التَّكفيريّ .

* **أهميَّة بيان حقيقة الدَّعوات المغرضة الهدَّامة التي تدعو إلى تَدخُّل أجنبي سافر** ودائم في شؤون بلادنا الدَّاخليَّة ، والتي تجرُّ الويلات والدَّمار ، وتجعل من سوريَّة مسرحاً لأغراض وأطماع عدوانيَّة استعماريَّة لا نجني من ورائها إلا المزيد من سفك الدِّماء البريئة ، مما ينعكس سلباً على العمل الدَّعويّ والدِّينيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ وسائر جوانب الحياة .

* بيان أن سلسلة التَّآمر على أرض الشَّام عموماً وسوريَّة خصوصاً مستمرَّة ، ولكن بأشكال قبيحة متنوِّعة .

* أهميَّة عدم استغلال الخطاب الدِّينيّ لخدمة اتِّجاهات سياسيَّة شخصيَّة ، أو فئويَّة انتمائيَّة .

* الانتباه إلى أن خطاب الدُّعاة أداة فاعلة في تعميق معنى الأخوَّة والوحدة بين أبناء الوطن الواحد .

* تعزيز روح الانتماء إلى الوطن ، والدِّفاع عن ثوابته وهويَّته العربيَّة .

راجين المولى عزَّ وجل أن يهيىء لهذه الأمَّة أمر رشدٍ وعزَّةٍ ومنعة ، وأن يكشف عنها الغُمَّة ، ويُفَرِّج الكَرب ، ويعيد نعمة الأمن والأمان إلى ربوع بلادنا الحبيبة عاجلاً غير آجل ، وأن يوفِّقنا إلى ما يُحبُّ ويرضى ، إنَّه على ما يشاء قدير .

والحمد لله رب العالمين

دمشق في يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول ١٤٣٥هـ

الموافق ١٣ كانون الثاني ٢٠١٤م

اللَّجنة العلميَّة الفقهيَّة في وزارة الأوقاف

مصطلحات أفرزتها الأزمة

المحتوى

مقدمة البحث ١٧

الحوار هو سدى ولُحمة الوفاق ٢٣

الحقوق المدنية والسياسية في الإسلام ٣٢

الإسلام السياسي والسياسة الإسلامية ٥٧

الخاتمة ٧١

مقدمة البحث[١]

منذ ثلاثة عقود من الزمن بدأت تروج في أوساطنا كلمة « الثورة » على ألسنة الكثيرين ، بل أصبحت هذه الكلمة تُزاحم الكلمة القرآنية « الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى » ، ولكأن المراد أن تَحل هذه الكلمة الحديثة محل الكلمة القرآنية ، أو أن تكون تفسيراً للكلمة القرآنية . ومن المعلوم فيما تقرره أعراف السياسة الحديثة أن كلمة « الثورة » تعني جَرَّ أي مجتمع ما إلى نظام معين قسراً وعنوة ، وقفزاً فوق الوسائل والأسباب المتدرجة المعروفة والفطرية ، التي أقام الله عز وجل عالمنا الإسلامي عليها . تلك هي حقيقة « الثورة » فيما يَعرفه علماء السياسة الحديثة ، بل فيما يعرفه الناس جميعاً .

ومما لا شك فيه أن هذا النهج في جَرِّ المجتمعات إلى النظم أو في جر النظم إلى المجتمعات قَسراً وعُنوةً وقفزاً فوق الأسباب والوسائل التدريجية من شأنها أن تَجر إلى المواجهة ، ثم العراك ثم العنف ، ثم إلى الاحتكاكات الدموية . ومِن هُنا كانت الثورات ذَاتَ ذُيول من القتال الدائر بين الفئات المختلفة ، بل كانت الثورات أسباباً لانفجار أنهر من الدماء ما تكاد تجف ، هذه هي الحقيقة . ولعل نموذجين من الثورات الدموية المرعبة تُجسد هذه الحقيقة التي يَعرفها المثقفون جميعاً :

---

(١) مستخلص من خطبة للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى ، بتاريخ (٨/ ٢/ ٢٠١٣م) أي قبل استشهاده بأسبوعين تقريباً .

أولاهما : الثورة البريطانية التي قامت في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي .

ثانيهما : الثورة الفرنسية التي قامت في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي .

ونظراً إلى أن هناك من يُحاول أن يجعل هذه الكلمة ـ كلمة الثورة ـ تحل محل الكلمة القرآنية ـ الجهاد في سبيل الله ـ إذاً يَنبغي أن نَتساءل ما موقف الإسلام من هذه الكلمة ومن مضمونها الذي ذكرته لكم ؟

إن الإسلام تنزل على ألسنة الرسل والأنبياء جميعاً خطاباً للعقول ، وعوداً إلى تحكيم موازين العلم ، ثم خِطاباً للقلوب واستثارة للعواطف والوجدان ، أن تَخضع للقرار الذي اتخذه العقل والذي أقره العلم ، فالإسلام إنما يُخاطب العقول محاكماً محاوراً . والإسلام لم يَأت لِيَجر مجتمعاً قسراً وعَنوة إلى نظام ، أو لِيلصق نِظاماً ما قَسراً وعنوة بمجتمع ، تلك هي الحقيقة التي يَنبغي أن نعلمها جميعاً ، هذه الحقيقة تتمثل في كتاب الله ، وتستبين في حياة رسول الله ﷺ ونهجه :

أما كِتاب الله فآيات كَثيرة لا مَجال لاستيعابها واستعراضها جميعاً ، لكن حَسبكم من ذلك قول الله عز وجل : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وحسبكم من ذلك هذه الآية الوجيزة في لفظها العظيمة في

معانيها : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . وشتان بين من يَرفع لواء الرحمة ، ومن يرفع لواء الثورة .

وأما سيرة رسول الله ﷺ فلعلكم تعلمون جميعاً أنه بَقي ثلاثة عشر عاماً لا يَلتفت إلا إلى العقول ، ولا يخاطب إلا النفوس ؛ يُحاكمها إلى الحق ، يُحاكمها إلى موازين العلم ، لا يلتفت من وراء ذلك إلى قتال ، ولا يُهرع إلى حمل سلاح ، وأنتم تعلمون ذلك . أما المشركون فهم الذين كانوا يَهرعون إلى الثورة ، هُم الذين كانوا يمتشقون أسلحة الثورة على هذا النهج الإنساني الوديع الذي بُعِثَ به رسول الله ﷺ . ولما هاجر واستقر به المقام في المدينة المنورة ، وشاء الله عز وجل أن يملِّكَ المسلمين أرضاً ـ أي وطناً ـ وشاء الله عز وجل أن تَقوم الدولة بأركانها الثلاثة ، وأن تُولد الأمة الإسلامية في ظل الدولة الإسلامية ؛ هُرِعَ الشرك مُتمثلاً في المشركين ، وهُرِعَ كثيرٌ من الأمم الذين كانوا يَقودون الحضارات الجانحة حول الجزيرة العربية خائفين من هذا الأمر الجديد ، مِن هذا الميلاد الجديد للدِّين الذي أرساه الله عز وجل في الجزيرة العربية وانتشر شُعاعه إلى أطراف الدنيا ، فاتجهوا إلى رسول الله ﷺ وإلى الأمة الإسلامية بل إلى الدولة الإسلامية بالقتال ـ بل بالثورة ـ ، راحوا يَتجهون إلى هذه الدولة الفتية بالثورة من كل الجهات ، ورسول الله ﷺ يَدفعهم دفعاً بالجهاد الذي شرعه الله عز وجل . فمَن هم الثائرون ، ومن هم الذين رفعوا لواء الإنسانية والرحمة والشفقة بعباد الله عز وجل ؟

قيل لرسول الله ﷺ : إن في القبائل الكثيرة المنتشرة ما بين مكة

والمدينة أُناساً تَائهين جَدير بِهم أن يَنقادُوا إلى الحق ، لو أرسلت إليهم بعضاً من أصحابك يدعونهم إلى الله ، فأرسل إليهم ستة من عيون أصحابه ، ليس معهم من السلاح إلا اللسان الداعي إلى الله ، واتجهوا إلى حيث قيل لرسول الله ﷺ عن أولئك التائهين ، تَصَيَّد المشركون هؤلاء الستة واحداً إثر آخر ، قُتِلوا عن بكرة أبيهم ، ولم يَكن مع هؤلاء الصحابة أي سلاح يَمتشقونه في وجوههم . فمن هو الطرف الثائر ، ومن هو الطرف الإنساني المحاور ؟! كلكم يعلم الجواب .

في العام الذي يليه ـ في العام الرابع من الهجرة ـ قيل لرسول الله ﷺ : إن في نجد قبائل سمعت بالإسلام ، وإنها لخليقة بأن تنقاد له ، لو أنك أرسلت مَن يُعرفهم بالإسلام ، فأرسل إليهم بدلاً من الستة سبعين واحداً من عيون أصحابه ، ليس معهم من السلاح إلا الحوار الذي ابتعثهم الله عز وجل به ، ليس لهم سِلاح يمتشقونه إلا اللسان الذي يُحاورونهم به ، واتجهوا إلى نجد ، وأطبق عليهم الإيذاء من كل جانب ، بل أطبقت عليهم الثورة التي حدثتكم عنها ، قُتِلُوا عن بكرة أبيهم إلا واحداً شاء الله أن يبقى ، لعله لكي يعود إلى رسول الله ﷺ فيخبره بما حدث . إذاً من هو الطرف الثائر ، ومن هو الطرف المحاور ؟ كلكم يعلم الجواب .

يوم الفتح اتجه رسول الله ﷺ إلى مكة ، ودخلها من أعلى قمم النصر ، ولو كان للثورة سبيل لكان هو أولى الناس بأن يُعلن الثورة وأن يمتشق سلاحها ؛ ولكن الأمر كان على النقيض من ذلك . قيل له إن سعد بن عبادة يقول : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستَحلُّ الحرمة »

غضِب المصطفى ﷺ ، وأرسل إليه من يُصحِّح له القول وقال : (اليوم يوم المرحمة)(١) .

هذا هو موقف الإسلام من الثورة التي حدَّثتكم عن معناها ، والتي يَرفع كثير من الناس لواءها في هذا العصر اتباعاً لثورتين يتحدَّث التاريخ عنهما ، ذكرت لكم بل أشرت لكم إليهما . إذاً فأي تيه وقع فيه هؤلاء الإسلاميون عندما حاولوا أو يُحاولون أن يستبدلوا بالكلمة القرآنية ـ الجهاد في سبيل الله ضمن ضوابطها ، ضمن أحكامها ـ أن يستبدلوا بها كلمة الثورة الإسلامية .

ينبغي أن نعلم جميعاً أنه ما من ثورة تُجبِر مجتمعاً من المجتمعات على اتباع نظام معين قسراً وعُنوة دون حوارٍ ودون محاكمة فكرية وحرية نظر ؛ إلا وتستولد هذه الثورة ثورةً مضادةً أخرى تطيح بذلك النظام ولو كان ذلك بعد حين ، النظام الذي ينهض على ثورة يستبطن في باطنه ثورة مضادة ، والجدلية بين الثورات جدلية معروفة متبينة ، وإذا أردت أن ألفت نظري وأنظاركم إلى مصداق هذا الكلام فتعالوا فانظروا :

يُرَادُ في مِصر أن يُفْرَض الإسلام فَرضاً مِن عُلو عن طريق الثورة ، فانظروا إلى ما آل هذا السبيل إليه ، سرعان ما استولدت هذه الثورة من داخلها ثورة مناقضة ، وها هما الثورتان تتعالجان فيما بينهما ، أما المحاكمة العقلية فبعيدة عن الساحة والميدان نهائياً ، أما المخاطبة العقلية التي بُعِثَ بها رسول الله ﷺ بل الأنبياء جميعاً فبعيدة ومطوية .

(١) روى ذلك الأُمَوي فِي (المغازي) كما في فتح الباري لابن حجر : ١٢ / ص ٩٥ .

تلك هي حال تونس ـ أجل ـ رُفِعَ فيها لواء الإسلام ، هل رُفِعَ عن طريق الدعوة ؟ هل رُفِعَ لواء الإسلام عن طريق الدعوة إلى الله ، كما فعل حبيبنا رسول الله ﷺ ؟ لا ، وإنما عن طريق الثورة ، تلك هي الثورة التي فُرِضَتْ فرضاً هناك ، إنها تستولد من رحمها اليوم ثورة مناقضة ، تلك هي سنة الله ، هكذا يُقرر العلم ، وهكذا نطق التاريخ .

كلٌّ منا يُخطىء ، ولكن العاقل يَتبصَّر مَوطىء قدميه ، ويَستبين الخطأ الذي وَقع فيه فيعود عنه ، فلنرجع إلى هدي رسول الله ﷺ ، ولنرجع إلى سيرة رسول الله ﷺ .

❊ ❊ ❊

الحِوار هو سُدى ولُحمة الوفاق[(١)]

الشورى ، الجدال ، الدعوة ، الحوار

كلماتٌ بينها تقارب ، وبينها اختلاف أيضاً

الشورى :

مُصطلحٌ شرعي ، وهو في بعض الدّوَل مصطلح قانوني ، يُقصد منه المناقشة بين الدولة وعامة الناس ، حول أمر سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي ، وهو مصطلَحٌ قرآني مَأخوذ من قوله تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ٣٨] .

ويُطلَق على الهيئة التي حُدِّدت لهذا النقاش اسم « مجلس الشورى أو مجلس الشعب » .

الجدال :

يَستعمل البيان الإلهي كلمة الجدال للتعبير عن المناقشة في أمور الدين ، ولا سيّما أمور العقيدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] .

الدعوة :

هي قِيامُ فِئةٍ من الناس بمهمة التعريف بالدين ، وإدخال محبَّة الله

(١) مستخلص من الحلقة الثالثة عشر من برنامج « مع البوطي في قضايا الساعة » .

والإسلام إلى القلوب ، فعندما يكون هذا الحوار من طرف واحد يُسمّى دعوة .

الحوار :

تَبادل الرأي على مستوىً واحد ، حول مائدة مستديرة ، ليس فيها تابع ومتبوع ، أو رئيس ومرؤوس .

وقد يَكون حول أمور عَامّة تُعنى بها الأسرة الإنسانية جمعاء ، كالبحث في القِيَم والمبادىء الإنسانية العامة ، وأهمية الدّين ، وميزان العدالة ، وضرورة احتكام الدّوَل إليه .

فهذه المواضيع وأمثالُها لا يَستقلّ بالبحث فيها شخصٌ دون آخر ، أو دولةٌ دون أخرى ، وإنما يدخل فيها المجتمع الإنساني كلّه .

وقد يكون خاصاً حول مشكلة متعلِّقة بمصالح دولة أو إقليم ، فالمعنيُّ به هم أفراد هذا الإقليم ، فيتَلاقَون لبحث سبُل إعادة الفئات المختلفة إلى النّهج السليم .

ودخولُ فئاتٍ أُخرى إليه قد يُفسده بَدلاً من أن يُقَرِّب أفراده بعضَهم إلى بعض ، لكن لا مانع من الاستعانة بأصحاب الخبرة ليُبَصِّروا المتحاوِرين بالطريق الذي يَنبغي أن يسلكوه ، على أن يقتصر دورهم على المشورة فقط ، كما في حال المشكلة التي نَمرُّ بها في سورية ؛ فالحوارُ بشأنها ينبغي أن يَنحصِرَ بين أبنائها ، ولكن لنا أن نَستعين بخبرة الآخرين دون اشتراكهم فيه ، كدولة روسيا مثلاً .

هل هُناك ثوابت لا يجوز الحوار حولها :

لكل مجتمع أو دولة ثوابت تُحدِّدها ثلاثة موازين :

١ـ الإجماع : فهو قانون شرعي واجتماعي ، والمسائل التي يَتمّ الإجماع عليها يَنتهي النقاش فيها ، وتصبح كالعملة العالمية الرائجة .

٢ـ العقل والمنطق .

٣ـ التجارب .

هذه الموازين الثلاثة تحدّد ثوابتَ لا يمكن المَساسُ بها ، كسيادة الدولة ، وحماية حقوق البلاد بإغلاق الأبواب دون العدوّ المتربّص بها ليقتل أبناءها وينهب ثرواتها .

غيرَ أن هذه الثوابت يُمكن أن تخضع للنقاش مع مَن لم يَصل بعدُ إلى درجة إدراكِها لِقلّةِ علمه ، على أن ينضبط الحوارُ بميزان المنطق والعلم .

هناك مثلاً من لم يُدرِك بعدُ أن سيادة الدّولة أمرٌ لا يُمَسّ ، فهو بحاجة إلى أن يتعلّم ، فعندئذٍ نحاوِره ضمن ميزان العقل والمنطق ، أما مَن يَضع شروطاً مُسبَقَةً تَمسّ الثوابت التي اتُّفق عليها ، كأن يشترط استبدالَ نظامٍ أو رئيسِ دولةٍ تبوّأَ منصبَه بطريقةٍ شرعية تُقرُّها الدّوَل ، ويَأبى أن يُخضِع هذا الأمر للنقاش العقلاني ، لأنه باع ضميرَه ووجدانه لجهةٍ أبرم معها عقداً ليخدم مصالحها ، فليس له أن يَجعل من رأيه هذا سلطاناً على أمّة .

ما هي العوامل التي تحمل البعض على رفض الحوار جملةً وتفصيلاً :

فجَّرَت لنا الأزمة التي نحن فيها نوعاً من الأناسيّ ؛ يرفض الحوار رغم كلّ ما قُدِّم له من الضمانات التي يخضع لها العقل والتي يؤمن بها المنطق ، الضمانات كلّها موجودة ؛ ومع ذلك هنالك من يَقول : لا نُريد أن نُحاور ! فما هي الخلفيّة التي تجعلهم يصرون هذا الإصرار ؟

بعض الناس يَمرّون بحياةٍ شَظَفٍ وعُدْمٍ ، تَزُجّ بهم في مُعتَرك تِلْوَ معترك تلو معترك ، ونتيجةُ هذا العُدمِ أنهم يَخلعون أردِيَتَهم الإنسانية من الداخل والخارج في سبيل الحصول على المال الذي يُخرجهم من هذا العُدْمِ الذي ابتُلوا به .

كثيرٌ مِنهم سُجِنَ بِسبب جرائم خطيرة ، ثم أُخرِجوا وأُفلتوا ووُجِّهوا إلى سورية ، وقُدِّمَت لهم الأموال الطّائلة ، فوجدوا أنفسهم أمام ما لم يَكنِ الخيالُ الذي في رؤوسهم يتصوّرُه ، مُقابلَ أن يُحَقِّقوا الفسادَ بكلّ أشكاله ، ويُديروا رحى الموت على المجتمع بكلّ مظاهره .

فهؤلاء طبيعيٌ أن يرفضوا الحوار ؛ لأنه يَحرمهم من المُقابل الذي تعاقدوا عليه .

ولكن ، ما الذي حمَل من يَتربّع على عرشه ، ويعيش حياةً ما عاشَها الفراعنةُ القدامى ، أن يُجَنّد هؤلاء ليفعلوا ما يفعلونه ، وهو يَعلم أن هذا الذي دَفعهم إليه يُودِي بالإنسانية ، وهي في أعلى شأوٍ لها وفي أعلى قِيَمِها إلى الهلاك ؟! **الجواب هو الحِقد ، الحقدُ الذي إذا**

تَحكَّم في نفسِ صاحبِه فَعَل ما لا تَفعله الطُّغاة في تاريخ الطغيان الذي خلا من قبل .

ما الضوابط والأدبيات التي تتعلق بالحوار :

❊ أن يكون الإنسان شديدَ الرغبة في أن يُصغيَ إلى ما عند الآخر ، وأن لا يكون شديد الاعتداد برأيه ، فهو عندما يَتبنّى خططاً وآراءَ ومناهج للحياة ، ويُعجَب بها بشدَّة ، يُحجب عما لدى الآخرين ، وهذا أمرٌ خطير . فعلى العكس كلما كان الإنسان واسعَ الثقافة سوِيَّ الخُلُق ، كان أكثرَ اتّهاماً لنفسه ، وأشدَّ رغبةً في الإصغاء إلى الآخرين ، ليضعَ كلامهم في الميزان ، لعلَّه كلام سليم .

❊ أن تكون دوافع هذا المُحاوِر دوافع موضوعية ترمي إلى مصلحة الدولة ومصلحة الوطن ، فلا يتأبَّط رغبةً ذاتيّة ، ثم يخدع الناس ويتظاهر بأنه يُحاور محاورةً عامة واسعة يبتغي بها تحقيق مصلحة البلد ، وهو إنما يَعزف على مصالحَ خاصةٍ له . نحن نتداعى إلى حوار حول مسألة تتعلَّق بالبلد أو تتعلَّق بنا جميعاً ، فإذا كانت المصلحة مشتركة إذاً فينبغي أن يكون الحوار موضوعياً ، وما ينبغي لواحدٍ فقط أن يجنيَ ثمراتِ هذا الحوار لمصلحته ويضحّي بالباقي في سبيل الواحد .

❊ هنالك أدب ثالث ـ وهو أيضاً من الأهمية بمكان ـ لكنه يحتاج لأن يكون الإنسانُ ذا ثقافة ، وهو أن نعلم سلفاً أن الحقيقة التي نَبحث عنها ذاتُ زوايا متعددة ، ولا يستطيع الإنسان أن يستبين كلَّ زواياها ، فَلِكَي أخدمَ هذه الحقيقة وأستَظهرَها بوسعي أن أستبين الزاوية التي

تخصُّني ، ولكنني لا أملك الاختصاصات كلَّها ، فغَيري يكشف الزاوية الأخرى ، والثالثة والرابعة ، . . . وهكذا ، وبِتَلاقِي الحوارات تستبينُ زوايا الحقيقة كلُّها فنعثر عليها . ولن يستطيع واحدٌ أن يَعثرَ على حقيقةٍ كاملة ، وإنما يَتمّ ذلك عن طريق التعاون ، وهذا من معاني قوله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة : ٢] لماذا ؟

لأن أحداً لا يستطيع أن يكتشفَ الحقيقة ثم يقودَ غيرَه إليها ، وإنما يتم ذلك بالتعاون بينهما . وإنّنا لا نَقرأ كلاماً لمفكِّرٍ مسلمٍ أو غيرِ مسلم إلا ويتَّهم نفسه ويشكّ في رأيه .

« **داروين** » مثلاً في كتابه « أصل الأنواع » ، في كل مناسبة يَشكو رَيبه وشَكَّه في الحقيقة ، ويطلب من القارىء أن يُساعده في اكتشافها ، ويذكر مرّتين اعتراضاً وُجِّهَ إليه ، فيقول : « أنا أعجز عن الإجابة على سؤال أقلَّ من هذا تعقيداً ، ولعلّ الناسَ الذين يتابعون سيُظهرون الحقيقة » .

أيُّ مُفكِّر يجب أن يكون موضوعيّاً وغيرَ خدّاع ؟ وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد تواضعاً ، لأنه يزداد حاجةً إلى ما لدى الآخرين .

فإذا أردنا أن نُسقِط هذه الضوابط على الحوار الذي نتداعى إليه اليوم في سوريا ، نقولُ لهؤلاء الإخوة الذين يُسمّون أنفسَهم مُعارضين ـ الذين لم يحملوا السلاح ولم يطلبوا التدخل الأجنبي ـ : نحن نَجنَح إلى حُسنِ الظَّن ، وأنتم جُزءٌ من هذا الوطن ، ونحن على ثقة بأنّ ما دَفعَكم إلى المعارضة هو بَحثُكم عن مصلحة الدولة ، وعن مصلحة

الوطن والمواطنين ، لكنّكم سَلَكْتُم طريقاً قد يكون فيه الحقّ وقد لا يكون .

أيها الأخوة : لقد جَرَّبتُم ورأيتم أن هذا الطريق الذي سَلكتموه زَجّكم في ظلامٍ إثرَ ظلامٍ إثرَ ظلام ، لن تَصلوا من وراءه إلى نور ، بل ها أنتم كِدتم تصلون إلى الجدار المغلق ، والعودة إلى الوراء طريقها مفتوح ، وأشقاؤكم يُنادُونكم أنْ تعالَوا نَضعْ كُلٌّ مِنّا يَدَه بِيَدِ الآخر ؛ مِن أجل هدف مشترك ، هو أن نَعلم الحق ، فأنتم سَلَكْتُم هَذا المسلك باجتهاد منكم أنه الحق ، لكن ها أنتم رأيتم أن هذا المسلك لم يُوصلكم إلى الحق الذي تبتغون ، بل فَتحتم أبواب المخاطر على الوطن ، إذاً يَنبغي أن يَزداد الرَّيب لديكم ، وتعودوا فتُصْغُوا السَّمْع إلى من يُنادونكم ، يَهتفون بكم ، ولا يُريدون أن يَستَجرّوكم إلى شقاء ، أو أن يُنزلوا بكم عقاباً ، أو ينتقموا لأنفسهم منكم أبداً ، وإنما يريدون أن يقولوا : تعالوا ، إن كنتم على حقٍّ فلسوف نَتَّبعكُم ، وإن كُنّا على حقٍّ فينبغي أن تَتَّبِعونا .

فإذا وجدنا إصغاءً ـ وهذا هو المأمول ـ فهذا دليل على أنهم فعلاً مجتهدون ، لكن إذا لم يُلقوا بالاً لهذا الكلام المنطقي ، فمعنى ذلك أنهم أصبحوا من الفئة المُستأجرة لحساب الأعداء ، ونسأل الله ألا يكونوا كذلك .

ما الثمار المرجوّة من الحوار :

❊ إرضاءُ الله عزَّ وجلّ أول ثمار التداعي إلى الحوار ، وهي ثمرةٌ مهمة جداً ، وأتمنى أن يضع قادة البلد نُصْبَ أعينهم هذا الهدف ،

فالباري عز وجل عندما يكرر الأمر بالتعاون : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة : ٢] ، ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ١١٤] ، وهذا هو الإصلاح . ففي هذه الدعوة خيرٌ كبير ، عندما نقول : تعالوا أيها الأخوة أنتم إخواننا ، أنتم جزءٌ لا يتجَّزَّأ من هذا الوطن ، نحن نعتزُّ بكم كجزء من هذا الوطن ، مهما شَرَدَتْ بكم العوامل فأنتم تظلون إخواننا ، وها هي أيدينا تمتد إليكم ، فهذا مما يرضي الله . وهذه من العبادات التي تقرّب الإنسان إلى الله عز وجل ، لكن ينبغي أن تكون نيَّتُنا خالصةً وصافية .

ففي الإخوة الذين غادروا البلد ، وكانوا يتصورون شيئاً خدعهم به الخادعون ، بعضهم الآن نادمون ، ويتمنَّون أن يجدوا طريقاً يعودون فيه ولكن على استحياء ، والمسألة بحاجة إلى من يشجِّعهم ويقول لهم : البلد مفتوحة ، وتظلون مواطنين صالحين ، المخطىء يملك أن يرجع ، والعَود أحمد . لكن من الخطأ أن نرجوَهم ، فيعودون وكأنهم خيّالة ، فربما يعودون بنية سيئة في هذه الحالة .

* النتيجة الثانية هي التمييز بين مَن دَفَعَه الاجتهادُ إلى النَّهج الذي سَلَكَه ، وبين أولئك الذين لا يبتغون خيراً لبلدهم ، ولا يحلمون بخير لوطنهم ، ويريدون أن يملؤوا جيوبهم ويُحقِّقوا أحلامهم التي تطوف بهم في لياليهم وأيامهم ، الحوار يميّز هؤلاء عن أولئك ، وسيكون في هذه الفئة التي ستعود عن خطئها وتمدُّ يدها لنا ونمد أيدينا إليها عزاءٌ

لنا أمام هذه الفئة الأخرى ، ولسوف نجد أن هؤلاء أصبحوا سُدى ولُحمة للوطن ، ولسوف يكون في هذا الخير الذي يعود إلينا من خلالهم عزاءٌ من أولئك الآخرين الذين ضلُّوا الطريق وركبوا رؤوسهم في هذا الضلال .

* النتيجة الثالثة دُوَلية ، فعندما تنجح الدعوة إلى الحوار ، وتستبين نتائجها ، يستبين منها ـ لمن لم يكن قد استبان له ـ جرائمُ بعض الدول الكبرى التي كانت ولا تزال تتلاعب بالدول العربية والإسلامية كما يتلاعب جماعة الرياضة بالكرة التي يتقاذفونها فيما بينهم ، هذه الدُّوَل وضعت نُصب أعينها القضاءَ على سوريا من أجل هدف معروف ، وهو أن يكون الطريق معبداً أمام إسرائيل لحلمها الذي نعلم ، وللوصول لما تبتغي من النهر إلى البحر ، فهذه الفائدة الثالثة .

فهذه الدّوَل تخشى من عواقب هذا الحوار ونتائجه ، التي ستكشف تورط كثيرين ممن خدعَتْهم فرنسا ، وخدعتهم دول أخرى ، ثَمَّ وقعوا في الكمين ، الحوار سينقذهم من هذا الكمين .

وهؤلاء الذي يرقصون ما بين النقيض والنقيض ، مرة يتبنون الإرهاب والإرهابيين ، ومرة أخرى يتظاهرون بمحاربتهم ، هذا الرقص البذيء سيستبين .

* * *

الحقوق المدنية والسياسية في الإسلام[(١)]

١ـ حق الحرية :

وإنما آثرنا التعبير بالحقوق بدلاً من الحق ، لأن الحرية جذع تتفرع عنه حقوق شتى ، كحق اختيار الملة والمذهب ، وكحق التعبير عن الرأي ، وكحق اختيار النهج السياسي ، وإيجاد الأنظمة الكفيلة بدعمه وتفوقه .

فما موقف الشريعة الإسلامية مما يُسمى بحق الحرية الذي تندرج فيه هذه الفروع وأمثالها ؟

يجب لكي تَصفَى الإجابة عن شوائب اللبس ، أن نبدأ فنفرق بين أمرين اثنين :

أولهما : علاقة الإنسان بالله عز وجل ، من حيث إنه ـ أي الإنسان ـ عبد مملوك لله عز وجل مكلَّف بالنهوض بأحكام وواجبات محددة ، لا مناص له من التحرر منها .

ثانيهما : علاقة الإنسان بالإنسان في هذه الحياة الدنيا ، من حيث النهج الذي رسمه الشارع جل جلاله لهذه العلاقة ، وحدود السلطة التي متع الله بها الجماعة الإنسانية الحاكمة في رعاية الأمور وتنفيذ أحكام الله .

---

(١) المصدر : كتاب « من هنا وهناك » للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى ، الطبعة الأولى (٢٠١١م) .

أما واقع الإنسان من خلال الأمر الأول فهو أبعد ما يكون عن الحرية بكل معانيها وفروعها ، وكيف يكون الإنسان حراً في علاقته مع الله وهو عبده الخاضع لحكمه المملوك لذاته ؟

إنه مكلَّف أولاً بأن يَعرف حقيقة هذه العلاقة بربه .

وهو مكلَّف ثانياً بأن يَلتزم النهج الذي شرعه الله له ولا يحيد عنه جهد استطاعته ، وقد وعده الله بالمثوبة إن أطاعه ، وتوعده بالعقوبة إن عصاه .

إذاً فالإنسان في علاقته مع ربه لا يتمتع بأي حرية ، اللهم إلا في الأمور والتصرفات التي خيَّره الله فيها .

أما واقع الإنسان من خلال الأمر الثاني ـ أي من خلال علاقة الإنسان بالإنسان ـ فهو يتصف بالحرية التامة ، لا يملك أن يُضيِّق عليه منها أحد ، اللهم إلا في حدود ما تقتضيه المحافظة على حرية الآخرين ، فهو حرٌّ في اختيار الدين والمذهب ، وفي التعبير عن رأيه وقناعته ، وفي إيجاد الهيئات والجماعات ذات الأنشطة الاجتماعية والسياسية ، ولكن لا تنس أنه من حيث الأمر الأول ـ أي علاقته مع الله ـ مُكلَّف باعتناق الدين الحق ، ممنوع من الخوض في الباطل أياً كان ، تحت طائلة التهديد الرباني بمعاقبته يوم القيامة إن هو أعرض عما قد كُلِّفَ به ، وخاض فيما قد نُهِيَ عنه .

وقد يُخيل إلى بعضهم أن من المستحيل اجتماع التكليف المتوعد عليه بالعقاب مع حرية الفعل والترك ، وتمكين المكلف من اختيار ما يريد .

غير أن هذا خيال لا حقيقة له ، وبيان ذلك أن التكاليف التي تُقَرِّبُ

الإنسان إلى الله عز وجل هي تلك التي يمارسها بملء اختياره وبرغبة ذاتية منه .

وهذا هو معنى قَول رَسُول اللهِ ﷺ : (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)[1] ، وهو ما يعبر عنه صراحة قول الله عز وجل : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف : ٢٩] وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١-٢٢] .

أما تلك التكاليف التي يُجَرُّ الإنسان إليها جراً ، وهو متأفِّف منها غير مقتنع بها ، فلا يقرّبه انقياده لها إلى الله شروى نقير ، ولعلك تعلم أن وظيفة الإنسان تجاه ربه في هذه الحياة الدنيا هي أن يمارس العبودية لله بالطوع والاختيار، كما قد خُلق عبداً له بالقهر والاضطرار، وهذه الوظيفة لا تتحقق على الوجه المطلوب إلا في مناخ الحرية التامة ، أي بأن يمارس الناس حرياتهم في اختيار الدين والمذهب ، وفي أن يتقيدوا أَوْ لا يتقيَّدوا بالشرائع التي كُلِّفوا بها ، وفي أن يُعبِّروا عن معتقداتهم وآرائهم ، بل أن يدافعوا عنها بما يملكون من الحجة والبرهان ، وليس لولي أمر المسلمين ولا للعلماء والدعاة إلى الله إلا التذكرة بالحق والدعوة إليه ، وعرض الحُجَج والدلائل الدّالة عليه ، مع تحذير التائهين عنه من عقاب الله عز وجل .

مزيد من الأدلة على ذلك : من أبرز ما يَدلُّ على هذا أيضاً قول الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ، برقم (٢٥٦٤) ، عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

كما يَدلُّ عليه تعايش المسلمين مع اليهود في المدينة المنورة في ظل أول دولة إسلامية يَرأسها رسول الله ﷺ ، وقد نَصَّ أحد بنود الدستور الذي أملاه رسول الله ﷺ واعتمده بعد استقراره في المدينة على وضع هذا التعايش موضع التنفيذ ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : (يَهودُ بَني عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُسْلِمينَ ، لِلْيَهودِ دِينُهم ولِلْمُسلِمينَ دِينُهم)(١) .

ويدل عليه أيضاً دخول بني خزاعة ـ وهم مشركون ـ في حلف مع المسلمين يوم صلح الحديبية ، ودفاع رسول الله ﷺ عنهم ـ على الرغم من شركهم ـ ثم انتصر لهم يوم اعتدى عليهم بعض زعماء قريش بغارة وكان ذلك سبب فتح مكة .

وتدلّ عليه وصية أبي بكر رضي الله عنه لسرايا المسلمين إلى المهام التي كُلفوا بها : (ألا لا يُفْتَنَنَّ نصراني عن نصرانيته ، ولا يُفْتَنَنَّ يهودي عن يهوديته)(٢) .

كما يدل عليه أن البلاد الكثيرة التي فتحت في عصر الخلافة الراشدة ودانت للإسلام وحكمه ، تُرِك أصحاب الديانات الأخرى فيها

---

(١) هذه الوثيقة « الدستور » تتألف من قرابة تسعين بنداً ، وقد ذكرها ابن إسحاق بدون إسناد ، ورواها أحمد في مسنده من حديث عمر بن شعيب عن أبيه عن جده . وينظر « الأموال » للقاسم بن سلام ، كتاب افتتاح الأرضين صلحًا وأحكامها (٤٤٣) .

(٢) ينظر : « معرفة الصحابة » لأبي نعيم الأصبهاني (٢٧٢٢) . والسنن الكبرى للبيهقي في كتاب الجزية ، باب كم الجزية (١٧٣٦٤) . والأموال للقاسم بن سلام في سنن الفيء ، باب الجزية (٤٥ ، ٥٧) .

على حالهم ، ولم يُكرههم أحد على التخلي عن معتقده ودينه ، اللهم إلا ما كانوا يقومون به من واجب الدعوة إلى الحق والتعريف به ، وإزالة الشبهات عن طريقه .

ولما اتَّجه الصليبيون بالغزو إلى بلاد الشام ، كان عدد النصارى فيها يُساوي عدد المسلمين تقريباً ، فأرسل قادة الحملة الصليبية إليهم ـ أي إلى النصارى ـ يسألونهم عن القرار الذي اتخذوه ، أهو الوقوف مع بني دينهم أم الوقوف مع بني قومهم ؟ فأعلن معظمهم الوقوف مع بني قومهم المسلمين(١) .

وقد يرتاب في هذا الذي نقول من يظن بأن الله شرع الجهاد للوقوف في وجه الكفر ، ولحمل الناس على اعتناق الدين الحق وهو الإسلام ، غير أن الذي ذهب إليه جمهور المسلمين من الحنفية والمالكية والحنابلة ـ وهو أحد قولين للإمام الشافعي ـ هو أن الجهاد إنما شرع لدرء الحرابة ، أي لرد عادية الظلم الواقع أو المتوقع على المسلمين ، ولتيسير السبيل إلى تعريف الناس بالإسلام ودعوتهم الطوعية إليه(٢) .

وإن الواقع التاريخي الذي أشرنا إلى جزء منه أعظم شاهد على أن الحق هو ما ذهب إليه الجمهور .

---

(١) انظر : « من يحمي المسيحيين العرب » ، لفكتور سحاب ، ص١٣و١٤ .

(٢) انظر تفصيل الخلاف في هذه المسألة : بداية المجتهد لابن رشد : (١/ ٣٦٩ و٣٧٠و٣٧١) والمغني لابن قدامة : (٩/ ٣٠١) وفتح القدير لابن الهمام : (٥/ ٤٥٣) والشرح الصغير على أقرب المسالك : (٢/ ٢٧٥) ومغني المحتاج للشربيني : (٤/ ٢٣٤) والتحفة لابن حجر : (٩/) .

رسالتنا . . والحرية[١]

من الكلمات التي تأخذ مكاناً متألِّقاً من صفحة مجتمعنا اليوم ، وتتجلى فيه بأحرف لماعة وضيئة ، كلمة : « **الحرية** ». . . الحرية بمعناها العام ، أي الحرية في القول ، والحرية في الرأي ، والحرية في العمل والسلوك ، . . . وإلخ ، ولعلك تستطيع أن تقول : إنها كلمة الموسم في هذا العصر ، أي إنها كلمة القرن العشرين[٢] ، . . . أي الكلمة الدولية التي تجري على كل لسان ، وتمرُّ بكل حلم .

ومن شأن مثل هذه الكلمات التي تستأثر باهتمام الأفراد وحماسهم ، وتتخذ قرارها المكين في أحلامهم وأفكارهم ، أن تكون قد أذيبت دراسة وتحليلاً ، وفهماً للمصدر الذي أتت منه والنتيجة التي تنتهي إليها ، ولكن في اعتقادي أن كلمة « **الحرية** » مع أنها تحتل مكان الصدارة من الأحلام والألسن ، ومع اكتناف التعليقات والشروح بها ، لا يزال معناها خفياً عنا ، ولا نزال بعيدين عن تحليل مصدرها وموردها وطبيعتها .

إن علينا قبل كل شيء أن ندرك أن ميلاد هذه الكلمة في الأذهان

---

(١) المصدر : كتاب « البدايات » للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى ـ بتصرف ، وقد ألفه في أواسط القرن الماضي ، وأعاد طبعه في (٢٠٠٩م) .

(٢) لا بد من إعادة التنبيه أن هذه الكلمة كتبها العلامة الشهيد في أواسط القرن العشرين الميلادي .

يرجع إلى أواسط عهد الاستعمار في بلادنا ، ولعل من الغريب في الأسماع أن نقول بأنها كلمة ولدتها سياسة الاستعمار نفسه ، فكيف ذلك ؟ ولماذا ؟

إن روح التحقق في الواقع من الأمور الطبيعية التي تركن إليها النفوس ، ويلذّ لها الانطلاق في ميدانها ، ولا ريب أن جثوم المستعمر فوق صدور الأمم يعني انغلاق أوسع باب لهذا الميدان في وجهها ، والنتيجة الطبيعية لذلك أن تتجمع في النفوس عوامل الثورة للانقضاض على ذلك الباب وتحطيمه .

ولكي يتفادى المستعمر هذه النتيجة فقد كان من خبثه ومكره أن يشغل النفوس عن الانتباه إلى القفل الكبير الذي أوصد به بابها الطبيعي الشرعي إلى ميدان التحرر ، وذلك بصرفها إلى المنافذ والثقوب التي أوصدتها ـ لحكمة ـ الشرائع والمبادىء والتقاليد ، وغايته من وراء ذلك أن يحيل ـ بالتدريج ـ مظهر الباب المقفل أمام تلك الشعوب ظلماً وعدواناً إلى مظهر جدار طبيعي قائم لا يعقل أن يهدم أو يثقب ، أما مجال الانطلاق والتحرر الإنساني فهو تلك النوافذ الأخرى التي أغلقها من الشرائع والأخلاق ، مما يسمونه همجية ورجعية وظلماً .

وإن كلاً منا يذكر فرنسا ـ يوم كانت جاثمة في بلادنا ـ كيف كانت تسلك بنا هذا السبيل الماكر إلى تلك الغاية ، لقد كانت تُغرينا باسم رسالتها الحضارية والتحريرية ، بتحطيم كل ما ورثناه عن تاريخنا ، وما عرفناه من مقوّماتنا وأخلاقنا ، لأن كل ذلك في نظرها أغلال ، أغلالٌ تقيّدنا وتحرمنا من متعة المدنية الحديثة ، وحضارة القرن

العشرين التي قامت على تحقيق كل رغائب الإنسان .

ولقد عرفت فرنسا وعرف كل عاقل وأحمق على وجه الأرض أن فرنسة لم تكن لتقلق إلى هذا الحد من أجل راحتنا ، ومن أجل أننا لا نتمتع بكل رغائب الإنسان ، وما كان كبدها ليحترق كل هذا علينا من أجل أننا مقيدون في الأغلال ، ولكنها كانت تحرص على أن يكون سبيلنا الطبيعي في التحرر والاستقلال بعيداً عن مجال منفعتها منا ، نائياً عن الطريق الذي تمتص منه حقنا وكرامتنا ، وليكن ذلك السبيل منحرفاً بعد ذلك نحو أي جهة أخرى ، ليكن جارياً على حساب ديننا ومبدئنا وتاريخنا ، فإن لها في ذلك تجارة بربحين ، ربح استغلالها لبلادنا وحقّنا ، وربح تحطيم مبادئنا والثأر من ديننا وشريعتنا .

والشيء الثاني مما يجب أن ندركه بدقة ، هو أن من المستحيل أن يتمتع إنسان ما بحرية تامة نزيهة كما نتخيل أو نظن ، وكلمة الحرية لا يمكن أن تتحمل كما يحمّلها بعض الناس من أمان وغايات ، إذ إن دوافع الإنسان نحو سلوكٍ ما محصورة في ثلاث قوى :

ـ فإما أن تكون العقل والمنطق السديد .

ـ أو دافع التشبه والتقليد « وهو دافع نفسي برأسه لا يستمد قوته لا من العقل ولا من التشهي » .

ـ أو دافع الشهوة والأهواء .

فالإنسان على كل حال مُستعبد استعباداً كاملاً لأحد هذه الدوافع الثلاثة ، ولئن استطاع أن يتحرر عن توجيه الموجهين وتقليد الآخرين

فإنه لن يستطيع أن يتحرر من كلا السلطانين الآخرين ، ولئن استطاع أن يُفلت من سطوة أحدهما فما من شك في أنه سيظل مستعبداً لسطوة الثاني .

ولكن تحت أي هذه القوى يَضع الإنسان تصرفه ؟ ولأي مملكة من هذه الممالك ينضوي ويخضع ؟

إن الإنسان هنا فقط يملك حرية تامة صحيحة ، وفي هذه اللحظة فقط يستطيع أن يشعر بامتلاكه لزمام أمره ، فهو يملك خياراً تاماً في أن يسلم زمام أمره إلى أيّ هذه السلطات يشاء. . وعليه في تلك اللحظة أن يُفكر في البحث عن أنبل تقيد وأشرف استعباد وأعدل سلطة من هذه السلطات .

ومن منا لا يَدري أن أعدل مملكة من هذه الممالك الثلاث هي : المنطق والعقل المتدبر الحكيم ؟ ومن منا يجهل أن أشنع استعباد وأرذل تقيد هو ما جاء عن سيطرة النفس الثائرة والنزوات العابرة والتقليد الأعمى ؟

إن كثيراً من الناس ينادون دائماً بالحرية ، يدعون إليها في كل مجال ، ويحببونها إلى كل عقل ، ويدخلون هواها في أذهان الناشئة من هذه الأمة ، ولكن ألا يجدر بنا أن نمعن في واقعنا الذي نعيش فيه لنتبين مدى اقترابنا من هذه الحرية وتلمسنا لها ؟ لقد أرادوا أن يَكونوا أحراراً في كل اتجاهاتهم ، فماذا فعلوا حين أرادوا ذلك ؟ لقد استجمعوا جرأتهم ثم قفزوا قفزة جعلتهم من هذه الحرية أبعد ما يكونون !

ولقد كانت النقطة التي قفزوا منها هي تراث هذا الشرق العربي الإسلامي .

صحيح أنه تراث لا تتراءى فيه روح التفلت ، ولكنه على كل حال يأبى أن ينحني وينقاد يوماً ما إلا لسلطان العقل وحده ، وشعاره في سلوكه دائماً هو : خذ « **الحكمة** » ولا تبال من أي وعاء خرجت .

أما النهاية التي قفزوا إليها ، فهي شهوات أوروبا ومدنية أوروبا .

صحيح أنها نهاية متحررة عن تقاليد الشرق وشعاره ، ولكن مَن الذي يجهل أنهم تحرَّروا من هناك ليتصاغروا مستذلين تحت سلطان النزوات البدائية وسلطان التقليد الأصم الأبكم ؟ أما شعار هذين السلطانين فهو : مَتِّع حيوانيتك ، ولا تُبَال أكانت حكمة أم جنوناً .

أما الطاقة التي دَفعتهم إلى تلك القفزة فليست هي الروح التحررية كما توهموا ، ولكنها استجابة لتلك الحيل الاستعمارية التي كانت تسير نحو غاية مَرسومة طِبقَ مصالحها . ومهما يَكن من أمر الاستعمار معهم بعد ذلك ، فإن تلك الاستجابة لديهم ليست سوى إشارة إلى مكان المملكة الاستعمارية الجاثمة في نفوسهم .

وقد يدافع هؤلاء عن أنفسهم فيقولون : إن ما نريده هو أن تنجلي عن بلادنا يد الاستعمار وجيوشه ، وما دام هذا قد تم فلنا أن ندع ما نشاء ونأخذ غيره .

فانظر ! أليس هذا منطق قوم يعترفون بضعف كينونتهم ، وبأنهم فقراء الشخصية والإبداع ، لا مندوحة لهم عن الاتكاء على عصا الغرب أو الشرق ، ولا غنى لهم عن استجداء مناهج الحياة ومقوماتها

من الآخرين ، فضلاً عن أنهم لا يملكون عقلاً يستطيع أن يدرك أنهم حملة رسالة . . . قادة تاريخ . . . ورثة مبدأ ونظام وشريعة . . . ومن ثم فهم لا يملكون شخصية معتزة تستطيع أن تهضم فلسفة الحياد الإيجابي ، وتتبنى المساهمة في إرسائه وتقريره .

ومثل هؤلاء الناس حينما يُحاولون أن يتحدثوا عن القومية العربية يبتعدون بمفهومها ما أمكن عن ظل المبادىء وتبعة الرسالة ، وحينما يُريدون أن يَكونوا بارعين في تحليل مفهوم القومية العربية لا يَزيدون على جَعلها نَتيجةَ تَفاعلٍ نَفسي في أمة اتحدت في اللغة والمشاعر والبقعة الجغرافية ! ولعلك تُحسُّ كيف أن هذا التعريف يُصور لك القومية العربية أشبه ما تَكون بعائلة متكتلة منعزلة ، كل ما تبتغيه هو أن تُغلق على نفسها باب دارها لتستقر في ركنه بأمان .

ولو أن قادة العرب السابقين ـ ممن صنعوا تاريخنا العربي ـ فهموا القومية العربية على هذا الشكل لما كان للعرب اليوم أرض من عالمنا هذا سوى شبه جزيرتهم المنعزلة القديمة التي تَحُدُّهَا سورية من الشمال ، والفرات من الشرق ، والبحر الأحمر من الغرب ، فذلك المكان هو وحده مهدهم الجغرافي ، وهم وحدهم الذين كانت تَجمعهم اللغة العربية ، وهم وحدهم الذين كان يَشِيع فيهم الشعور والدم العربي كما يقولون .

ولكن التاريخ العربي لا يَتَعرف على هذه الصورة المتقلّصة الرجعية عن مفهوم القومية العربية ، إنه يعرفها بالشعور العربي الذي يتوحد على رسالة ، ويجتمع على محور من المبدأ ، ثم يتحمل في

ثورة موحدة تبعة أدائها ونشرها في كل جهات العالم . ومن ثم فقد استطاعت القومية العربية أن تقتلع جدران حدودها الجغرافية ، ثم تتمطّى وتنتشر في شرق العالم وغربه ، وإذا بمملكة فارس ودولة الرومان ، وإذا بشرق العالم إلى الصين وغربه إلى أواسط أوربة ، إذا بكل تلك الأصقاع فروع للجزيرة العربية ، وإذا بمعظم أهلها ينطقون بلغة الضاد ، وإذا بهم يتخذون أمكنتهم أعضاء عاملين في مجلس القومية العربية !

وسبب ذلك أن القومية العربية ـ في تاريخنا العربي ـ إنما قامت على مبدأ ، مبدأ لا يعترف بأنانية ، ولا يحصر الخير لطائفة أو عنصر أو جماعة ، شأن القوميات الأجنبية الأخرى التي حدثنا عنها التاريخ ، وإنما هو مبدأ يصنع السعادة لكل من على هذه الأرض ، ويمد ظلال الأمن والسلامة في كل شعب وأمة ، ومن ثم فقد كان هذا المبدأ عِمادها الذي عصمها من الانهيار ، وطاقتها التي بعثت فيها النمو والاتساع ، وكان هذا المبدأ هو رسالة الإسلام ، رسالة العرب إلى العالم . . .

غير أن هؤلاء لا يريدون القومية العربية كذلك ، إنهم يُريدونها رجعية تنفصم عن المبدأ ، وتتراجع متصاغرة متضائلة إلى داخل جغرافيتها الصغيرة التي انطلقت منها ، وهم بذلك يناقضون أنفسهم مناقضة صارخة بزعم أنهم تقدميون ! فلماذا ؟! لماذا يريدونها ممسوخة كذلك ؟!

إنهم يشتهونها هكذا لأنهم يتضايقون من تبعة المبدأ ، ولأنهم

مقيدون ، مقيدون بأغلال « **الحرية** » ، ولذلك فهم ليسوا على استعداد لتجديد رسالة وقيادة مبدأ ، وخير ما يجمع لهم بين التحرر من تبعة المبادىء والتقاليد ومظهرهم القومي العربي ، هو أن يفسروا القومية العربية هذا التفسير الذي لا يُحوجهم إلى تعب ولا يقيدهم بشيء . وأفضل تعبير عن هذه المعاني ما قاله الرئيس الراحل حافظ الأسد : « الإسلام روح والعروبة جسد ، ولا حياة للجسد من دون الروح » .

٢ـ حرية التعبير عن العقيدة والمذهب :

وإذا ثبت أن الإنسانَ حرٌّ في نطاق التكاليف التي أنيطت به من قبل الله عز وجل أن يتقيد أو لا يتقيد بها على نحو ما أسلفنا ـ أي تحت طائلة العقاب الذي يتعرض له المخالف والمتأبّي على تنفيذ هذه التكاليف يوم القيامة ـ أقول : إذا ثبت هذا فلا ريب أن الإنسان حر من باب أولى في التعبير عن مواقفه واتجاهاته التي يراها ويختارها ، ذلك لأن مَن مَلك الكثير فلا بُد أن يَملك القليل الذي هو جزء منه .

وأوضح دليل على ذلك قول الله عز وجل : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل : ١٢٥] . ومحل الشاهد قوله تعالى : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم ﴾ إذ المجادلة هي الإصغاء إلى حجة الخصم ، ثم الرد عليها بما يُوضِحُ بُطلانه ويكشف عن زيفها ، ومن الواضح أنه لا يَتأتى الإصغاء إلى حجج المبطلين ، إلا إن مُكِّنوا من النَّطق بها والتعبير عنها .

ثم إن الآية تؤكد أن القضاء على الباطل لا يتم بتكميم أفواه الداعين إليه والمعرفين به ، ولكنه إنما يتم بالمحاورة العلمية التي تكشف عن وجه بطلانه ، وهي لا تتم إلا عندما يتمتع كل من الطرفين ـ المحق والمبطل ـ بحرية التعبير عن رأيه ومعتقده .

ومن الصور التطبيقية لهذا الحكم ، الجدل الذي امتد وتطاول ذيله بين رسول الله ﷺ ونصارى نجران الذين وفدوا إلى رسول الله ﷺ ، واستقبلهم في مسجده بالمدينة ، ومن المعلوم أن كل ذلك سار في جوّ من الحرية التامة ، وقد عاد معظمهم كما جاؤوا غير مسلمين(١) .

ومن هذه الصور ، موقف الدولة الإسلامية من الفرق التي ظهرت وتوالدت بعضها من بعض في أواخر القرن الأول الهجري ، وقد كانت كلها فرقاً شاردة عن الحق المتفق مع كتاب الله وهدي رسوله ﷺ ، تعتنق بدعاً باطلة لم تُعرف في عهد رسول الله ﷺ .

فلقد كان أصحاب تلك الفرق يتمتعون بحق التعبير عن مذاهبهم والتدليل عليها علانية في كل من المسجد الحرام والمسجد النبوي ، وفي مساجد البصرة والكوفة ، إذ كانا أول مركزين لوجودهم ولأنشطتهم ، ولم نعثر فيما كتبه أي من المؤرخين على خبر يتضمن أن الرقابة الإسلامية أسكتت هؤلاء الجانحين عن الحق ، وحرمتهم من حق التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم(٢) .

---

(١) روى البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة . وروى البخاري نبأ هذا الوفد من حديث حذيفة مجملاً .

(٢) انظر لتقف على نموذج من الحوار والجدل اللذين كانا يتناميان في مناخ رائع من حرية =

قد نقول : فما الذي أنهى وجود هذه الفرق من جهمية ومرجئة ومعتزلة وحشوية وقدرية. . . إلخ ؟ ولماذا بادت بعد أن ساد بعض منها ؟

والجواب : أن العامل المباشر في تذويبها وإنهاء وجودها هو الحوار العلمي الذي كان يُلاحق أئمة تلك الفرق علانية في حلقات العلم ، وليس العامل في ذلك ما قد يتصوره المتخيلون ، من أنه سطوة الحكم التي كانت إلى جانب أهل السنة والجماعة ، والتي ربما مارست ألواناً من الضغط والإكراه على الفرق الأخرى ، فإن سطوة الحكم لم تُمارس أي ضغط على أي من تلك الفرق باسم جمهرة المسلمين أهل السنة والجماعة .

وعندما ظهر الإكراه ، إنما ظهر لصالح المعتزلة وبأمر منهم على يد المأمون ، فالمعتصم ، فالواثق ، ودارت رحى المحنة عندئذ على ثلة من كبار أهل السنة والجماعة ، كان على رأسهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله . ولما ارتفعت المحنة في عهد المتوكل عادت الحياة إلى سابق عهدها ، مُستظلة بظل الحرية التامة في التعبير عن الرأي والمعتقد ، مع ملاحظة المبطلين بالمناقشة والمحاجّة ، وكانت عاقبة هذا الأمر أن ذابت أفكار تلك الفرق في ضرام الجدل الذي أمر الله به والتحاكم إلى منهج العلم وقواعده[1] .

= الرأي ، الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٦٠ وما بعدها . على هامش الملل والنحل لابن حزم . والفرق بين الفرق البغدادي : ص ١١٧ وما بعدها .

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٣٣٣ .

بقي أن ننبه إلى أمر هو في غاية الأهمية ، وهو أن الإسلام بمقدار ما يُمَتِّعُ الإنسان بحرية التعبير عن المعتقد والرأي ، يُحذره من أن يَجعل سبيله إلى هذا التعبير الإساءة إلى الآخرين من خلال تسفيه عقائدهم أو السخرية بها ، أو شتم أي من رجالها وأئمتها ، أو انتقاصهم تصريحاً أو تلميحاً .

إن الإسلام لا يَأذن للداعين إلى الله والمعرفين بحقائق الإسلام أن يَذهبوا في عَملهم هذا مذهباً يتجاوزون فيه الجدل العلمي والمنطقي إلى الشتم أو السخرية أو الانتقاص ، فكيف يأذن لذوي الأفكار الباطلة أن يذهبوا في الانتصار لأفكارهم مَذهباً يَستبدلون فيه بالحوار المنطقي طريقة الشتم أو السخرية وازدراء ؟! .

إن الذي يُدافع عن الشتم وأصحابه بحجة أن الشتم ـ وما كان على شاكلته ـ ممارسة لحرية الرأي مُوغلٌ في التخلف عن أدنى درجات الحضارة والمدنية ، وشارد عن فهم أبسط موازين المعاملات الإنسانية .

٣ـ مسألة الأحزاب والمذاهب السياسية والاحتجاجات السلبية :

ينبغي أن نعلم أنّ من نتائج ما قد يَملكه الإنسان في ظل المجتمع الإسلامي من حرية التعبير عن الفكر والرأي والمعتقد ، حرية إنشاء الجماعة التي تُنادي بفكرة ما أو مذهب ما ، إذ إن كل ما هو حَقٌّ للفرد لا بد أن يكون حقاً للجماعة ، وإلا وقع الخُلْفُ والتناقض ، وعليه فلن نجد في الشرع الإسلامي ـ بعد أن أعطى الفرد حق التعبير عن رأيه

ومعتقده ـ ما يمنع من اجتماع عدة أفراد على تكوين حزب أو جماعة ذات نهج فكري أو سياسي .

ولكن على أن لا ننس أن على رجال الدولة الإسلامية وعلماء الشريعة وحراسها أن يقفوا في طريق الباطل من الرأي والفكر العلمي أو السياسي ، والمجادلةُ والمحاجّة اللتان تبرزان وتميزان الحق من الباطل على رؤوس الأشهاد ، على نحو ما كان يفعل السلف الصالح رضوان الله عليهم .

إن حق إنشاء جماعة ما ذات نهج سياسي أو ثقافي ليس شيئاً أكثر من حق تمتع الأفراد بالتعبير عما يجيش في أذهانهم وخواطرهم من رؤى واجتهادات وأفكار . والأصل في الأشياء كلها الإباحة ، مالم ينهض الدليل على الحرمة .

غير أن هذه المسألة تأخذ منحى آخر ، عندما يتبين أن نشأة الحزب أو الجماعة موصول بعامل خارجي يتمثل في أصابع أو خطط أجنبية ، ذلك لأن الأمر يخرج عندئذ عن الموضوع الذي نحن بصدده ، وهو حق الفرد في التعبير عن مذهبه ومعتقده إلى موضوع آخر مختلف كل الاختلاف ، ألا وهو : حق العدو الأجنبي في أن يصطفي من المسلمين جنداً أو عملاء له ، يأمرهم فيأتمرون ، ويخطط لهم فينفذون ، تحت اسم حق التعبير عن الرأي وحق إنشاء حزب أو جماعة ! .

إن من البداهة بمكان أن العدوّ لا يملك هذا الحق ، وأن الذين يصطفيهم من العملاء والمستأجرين لا يملكون أي حق في خدمة العدوّ

تحت اسم وهمي من حرية الرأي والفكر والعقيدة . ولعل خير مثال ودليل بآن واحد ، موقف الشارع جل جلاله من تلك الثلة التي كانت تتحرك في المدينة المنورة مرتبطة بتعاليم تتلقاها من أبي عامر الراهب الذي فَرَّ إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ ، ووعده هرقل خيراً ، فأرسل إلى جماعته في المدينة يَعدهم ويُمنّيهم ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يتخذ نقطة لقاء بينهم وبين كتبه ورسله ، فشرعوا في بناء هذا المعقل ، وجعلوه مسجداً أقيم على ضاحية من ضواحي المدينة ، وجاؤوا يسألون رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم الذي بنوه ، ليحتجُّوا بذلك على الاعتراف به وإثباته ، فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٧ـ ١٠٨] ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَن هدمه ، وتعقب القائمين على شأنه بالنكال[١] .

كان في المدينة ـ كما نعلم ـ منافقون ، وكانوا يمارسون حرياتهم وأنشطتهم علانية ، ولا سيما رئيسهم عبد الله بن أُبي بن سلول ، ولم يكن يبالي بهم رسول الله ﷺ ، ولكن لما تميَّز هذا العمل عما كان يَفعله عامة المنافقين بظاهرة الارتباط بخط أجنبي ودافع عدواني

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : ٢/٢٢١ وتفسير ابن كثير : ٢/٣٨٧ ، وأسباب النزول للسيوطي : ٢٠٣ـ ٢٠٤ .

خارجي[١] ، اختلف الموقف كما قد رأينا ، ولم تعد لحرية الرأي والسلوك في هذا الحال قدسيتها ، فلقد تحولَّت لتصبح أداة في يد العدو الأجنبي .

إذاً فإقامة الجماعات والأحزاب السياسية تخضع لهذا التفصيل ، ولا أظن أن ثمة خلافاً بين مذاهب المسلمين في ذلك .

ولا أظن أن فينا من يَجهل أن القوى العالمية الكبرى التي تَحلم بقيادة النظام العالمي الحديث اليوم تحاول جاهدة أن تتخذ من الجماعات المذهبية والأحزاب السياسية التي تنشط في العالم الإسلامي والعربي النافذة الأولى التي تَطمع أن تخترق من خلالها ذاتية هذه الأمة ، لتخرجها من نهجها القويم الذي كان ولا يزال مَبعث قوتها وسر حيويتها ، وتسيَرها ضمن نظامها المصلحي حيث تشاء .

لذا فإن مراقبة الدول العربية والإسلامية بعين ساهرة ، لنشأة هذه الجماعات والأحزاب وكيفية تحرُّكها ، لا يتعارض مع حقوق رجال

---

(١) يؤيد هذا ما ورد في بعض روايات سبب النزول ، فقد أخرج الطبري (١٥٧٧٧) وابن أبي حاتم في تفسيريهما والبيهقي في دلائل النبوة ، جماع أبواب غزوة تبوك ، باب رجوع النبي ﷺ من تبوك وأمره بهدم (٢٠٠٩) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن ناسًا من الأنصار ابتنوا مسجدًا ، فقال لهم أبو عامر : ابنوا مَسْجِدَكُم ، واستَعدوا بِما استَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وِمِنْ سِلاحٍ ، فإِنِّي ذاهِبٌ إلى قيصَر ملكِ الروم فآتِي بِجُندٍ من الرُّوم فأُخرِجَ مُحمدًا وأَصْحابَه ، فلمَّا فَرَغوا مِنْ مَسْجِدِهم أَتَوا النَّبيَّ ﷺ ، فقالوا : قَدْ فَرَغْنا مِنْ بِناءِ مَسْجِدِنا ، فنُحِبُّ أَنْ تُصليَ فيه وتَدْعُو لنا بالبَرَكَة ، فأنزل الله فيه : ﴿لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ إلى قوله : ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ .

هذه الجماعات في أن يتمتعوا بما يشاؤون من الأنشطة الاجتماعية والسياسية ، وأن يعبروا عن قناعاتهم ووجهات نظرهم كما يشاؤون ، بل إن حماية حقوقهم هذه من الاختراقات المتنوعة المحتملة تتطلب بحقٍّ هذه المراقبة ، كما تتطلب ضبط هذه الاختراقات كلَّما وُجِدت ، ومعالجتها بالسبل الحكيمة الْمُمْكنة .

ولعل من الأهمية بمكان أن نعلم أن هذا الواجب يدخل في الأحكام الكثيرة التي لا نعلم فيها خلافاً ، بل ما ينبغي أن يكون فيها أي خلاف ، إذ إن حماية الدولة والأمة من الدسائس والتجسسات الأجنبية من أخطر الواجبات الكبرى التي يتحمل مسؤوليتها أولياء أمر المسلمين .

بقي أن نتساءل عن موقف الشريعة الإسلامية من الاحتجاجات السلبية ، كالإضراب عن القيام بالوظائف والواجبات الموكلة إلى أفراد الناس أو فئاتهم ، وهي من الأساليب الحديثة التي أفرزتها الديمقراطية الغربية .

إن علينا قبل كل شيء أن نعلم أن هذه الاحتجاجات لا تدخل فيما نحن بصدد الحديث عنه وبيان حكمه ـ وهو حرية التعبير عن الرأي ـ بل هو أبعد ما يكون عن ذلك .

إنه ـ كما تدل عليه الكلمة المصطلح عليها « احتجاج » ـ لون من التَّمرُّد على القيام بالواجبات ، ومن ثم فهو لون من الانتقام ، إذ إن عمليات الإضراب تنطوي على الانصراف عن الوظائف التي عهد بها إلى أصحابها بموجب عقود والتزامات محددة ، والتي تدور على محور

ما من مصالح الأمة ، وفي ذلك من التفويت لتلك المصالح والأضرار بها ما لا يخفى على أحد .

ثم إن عمليات الإضراب لا تتجه بالضرر على أشخاص المسؤولين الذين يفترض أن يكون الحوار معهم ، والتعبير عن المطالب متوجهاً إليهم ، وإنما يسري الضرر منها إلى الأمة وأفرادها ، فهي بالإضافة إلى كونها عمليات انتقامية ، لا تنتقم من الطرف المسيء أو المفوت لحقوق المضربين ـ وهو رئيس الدولة مثلاً ـ وإنما تنتقم ـ من حيث يدري المضربون أو لا يدرون ـ ممن لا علاقة لهم بالأمر ولا يتحملون منه أي جريرة .

إن عمليات الإضراب التي سرت إلينا من واقع المجتمعات الغربية ليست في حقيقتها إلا تمرداً من بعض قطاع الشعب في مقابل تمرد من بعض رجال الحكم وأجهزته ، وكلا التمردين لا محل ولا مبرر لهما في موازين الشريعة الإسلامية .

فالحاكم ينبغي أن يذهب في تحقيق مصالح الناس ورعاية حقوقهم إلى أقصى الحدود الممكنة ، والناس ينبغي أن يلتزموا واجباتهم وأن ينهضوا بوظائفهم الموكلة إليهم ، وليس بين هذا وذاك أي ارتباط ، ومن ثم فإن التقصير في أي منهما لا ينسخ الآخر ، إذ إن المتضرر هو طرف ثالث ، والقاعدة الشرعية التي لا خلاف فيها تقول : (لا ضَرَرَ ولا ضِرار)[1] .

---

(١) أصل هذه القاعدة ما أخرجه مالك في الموطأ عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ » . وأخرجه سنن ابن ماجه في الأحكام ، =

ومهما قصر المسؤولون في رعاية حقوق الناس ؛ فليس لهؤلاء الناس على طريق السعي إلى استحصال حقوقهم إلا التعبير عن مطالبهم بالبيان والمناقشة والحوار .

غير أن هنالك إضراباً مبرراً في ميزان الشريعة الإسلامية ، وهو ذاك الذي يكون نتيجة لعدم وفاء الدولة بالتزاماتها العقدية تجاه الطرف الآخر ، عند قيام هذا الطرف بوظيفة ما ، على أن يكون الإضراب محصوراً في القعود عن الوظيفة التي جرى تقصير الدولة في التزاماتها العقدية تجاه الأشخاص القائمين بها ، كأن تلتزم الدولة بأجور معينة تجاه عمال أو موظفين تم التعاقد معهم على القيام بعمل ما ، فلم تُوَفِّ بالتزاماتها تجاههم كلياً أو جزئياً ، فإن حكم هذه المسألة يدخل فيما هو مقرر في باب الإجارة ، من عدم وجوب مضيّ الشخص المستأجر في عمله الذي تعاقد عليه ؛ إن ظهر له أن المستأجر قد نكص عن التزامه ، وتراجع عن الالتزام بإعطاء حقه .

ولكن هذا العمل المبرر شرعاً لا علاقة له بالتعبير عن المذهب والرأي ، كما لا علاقة له بالاحتجاج وأساليبه ، وإنما هو من آثار الالتزام ومتعلقاته ، في كل من الرؤيتين : الشرعية والقانونية .

وبعد ، فأحسب أننا لم نمرّ في شيء مما قد ذكرناه وأوضحنا

= بَابُ مَنْ بَنَى فِي حَقِّهِ مَا يَضُرُّ بِجَارِهِ (٢٣٤٠) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَضَى أَنْ لا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ » . وأخرجه أحمد في « مسنده » (٢٠٩٨) وأخرجه غيرهم .

حكمه على أي مسألة خلافية بين المذاهب أو الفرق .

إن الأحكام المتعلقة بحقوق الإنسان لا تكاد تعثر فيها على مسألة خلافية ، ذلك لأن المصدر الذي تنبثق عنه هذه الأحكام يتمثل في المبادىء الكلية ـ كما لاحظنا في صدر هذا البحث ـ ، والمبادىء الكلية في دين الله عز وجل هي الجامع المشترك بين المذاهب الإسلامية كلها ، وهذا مما نحمد الله عز وجل عليه في البدء والختام .

ولمزيد من الإيضاح نقول : إن مهمتنا في هذا البحث هو أن نتبين حكم الشريعة في مسألة الاحتجاجات السلبية ، ومن المعلوم أن المرجع لمعرفة هذا الحكم هو « باب الإجارة » .

ولدى الرجوع إلى هذا الباب في المصادر الفقهية نلاحظ جامعاً مشتركاً فيه بين المذاهب الفقهية المتعددة ، وهو وجوب وفاء الأجير بكل ما التزم به تجاه المستأجِر ، ما دام هذا الثاني ملتزماً بالوفاء بالبنود التي يطالب بها ، والتي جرى العقد على أساسها .

وانطلاقاً من هذا الجامع المشترك الذي لا أعلم خلافاً فيه ، فليس للمستأجَر أن يُضرِبَ عن العمل الذي التزم به بمقتضى عقد صحيح لا جهالة ولا غرر فيه ، ليضغط على المستأجِر ويحمله على تغيير بعض البنود التي تم الاتفاق عليها ، كأن يُطالب برفع الأجر ، أو أن يشركه في نسبة من الأرباح .

وينطبق هذا على سائر أنواع عقود الاستئجار والتوظيف والاستخدام ، إذ كلها داخلة تحت سلطان عقد الإجارة ،

ومن ثم لا بُدّ أن ينطبق عليها حكمه[١] .

وقد يكون هذا الذي أقرره ـ انطلاقاً مما هو معروف في باب الإجارة ـ مثيراً للجدل اليوم ، نظراً إلى ما تقوم به النقابات اليوم من دور كبير تقره الحكومات ودوائر التوظيف كلها لحماية حقوق الموظفين والمستأجرين والمستخدمين ، ونظراً إلى أن قوانينها غدت محل اعتراف وربما تأييد من الطرف الآخر ، ومن ثم فقد نرى من يطرح الدعوة إلى تغيير بعض ما هو مثبت أو مجمع عليه في باب الإجارة ، مجاراة للنهج الذي تنطلق منه النقابات كلها ، وإلى دراسة إمكانية الاتفاق على بند جديد في أحكام الإجارة ، استناداً إلى المصالح المستجدة ، يعطي لهذه النقابات حق القيام بالاحتجاج السلبي ، وفي مقدمته الإضراب عن العمل ، حتى في حال عدم إخلال المستخدم أو المستأجِر بشيء من التزاماته ، طلباً لمزيد من المكاسب ، أو سعياً إلى الارتفاع إلى مستوى من هم أوفر منهم أجراً أو أقل عملاً في بلاد أخرى .

إنني لا أُنكر أن هذه المسألة مثيرة للجدل ، ولكن اختراق ما هو محل اتفاق من الفقهاء في أحكام الإجارة ما ينبغي أن يستقلّ بالاجتراء

---

(١) انظر روضة الطالبين : باب الطوارىء الموجبة لفسخ عقد الإجارة : ٢٣٩/٥ وما بعدها . وانظر رد المحتار على الدر المختار مع حاشية ابن عابدين : مبحث الأجير الخاص ٤٥/٥ وباب فسخ الإجارة : ٤٩/٥ . وانظر : المغني لابن قدامة : ٣٨/٦ـ ٤٨ مسألة : أحكام استئجار الآدمي لعمل معين و١١٧/٦ وما بعد : مسألة تقسيم الأجير إلى عام وخاص ، واستحقاق الأجير الأجرة .

عليه باحث واحد ؛ مهما كانت ملكته الفقهية واسعة ودقيقة ، وإنما تكون كلمة الفصل فيها لمجموعة العلماء الباحثين ، يتحاورون ويتناقشون ، ثم يصدرون بعد ذلك عن قرار واحد ، إن وفقهم الله لذلك .

❊ ❊ ❊

الإسلام السياسي والسياسة الإسلامية[١]

السياسة لغةً : إدارة الأمور بحكمة .

السياسة اصطلاحاً : تجنيد العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها ابتغاء الوصول إلى الحكم ، أو ابتغاء مصلحة من مصالح الإدارة والحكم .

ومن أبرز خصائص السياسة القائمة في مجتمعاتنا اليوم شرعنةُ كلِّ الوسائل التي تحقق أهداف السياسيين ، فهي تتبع ما يُسمى مبدأَ « الذّرائِعيَّة » الذي وضعه « وليم جيمس » ، ويبرّر للإنسان أن يَسلُكَ إلى غايته السبيلَ الذي يشاء ، بِغَضِّ النَّظر عن شرعيَّته ، وهذه خاصّة سلبية تَتَّسم بها ـ للأسف ـ السياسة المعاصرة .

ما هو مفهوم السياسة في الإسلام ؟

لمّا هاجر رسول الله ﷺ تَكاملت للمسلمين أركانُ الدولة الثلاثة وهي : الأرض التي أورثهم الله إياها ، والجماعة المسلمة التي تعيش فوق هذه الأرض ، والدستور الذي تمثّله الوثيقة التي كتبها النبي ﷺ تنظيماً لعلاقة المسلمين فيما بينهم وعلاقتهم مع اليهود في المدينة .

وكانت لرسول الله ﷺ شخصيته إماماً للمسلمين ، إلى جانب

(١) مستخلص من الحلقة الرابعة عشر من برنامج « مع البوطي في قضايا الساعة » .

شخصيّته رسولاً من عند الله ، فهذه أول دولة دينية قادها رسول الله ﷺ ، والأحكام التي تضبط شؤون الدولة الإسلامية وتتكفَّل بإقامة أنظمتها وقوانينها تُسمى الأحكام السياسية في الشريعة الإسلامية .

وهذا هو الفرق بين الإسلام وبين الدين الذي يتم التعامل معه في الغرب الذي تقتصر تعاليمه على شؤون الاعتقاد ووصايا الأخلاق ، ولا يُوجد في أحكامه ما يتعلق بشؤون الدولة أو سياستها أو قوانينها أو دساتيرها .

ومن هنا فَتَقليدُ الغرب في فصلهم للدِّين عن إدارة شؤون الدولة هو تَعطيلٌ لجزءٍ من الإسلام ، وإبطالٌ لكثيرٍ من مضمونه ، والتَّظاهرُ ـ بعد ذلك ـ بالخضوع له كذبٌ عليه ومخادَعَةٌ له ولمُشرِّعِه .

فالسياسة الإسلامية : هي إدارةُ شؤون الدولة طبقاً لِما تَحكم به الشريعة الإسلامية .

وقد كان هذا التعريف مُحَقَّقاً في واقع المسلمين في عهد رسول الله ﷺ ، وفي القرون الثلاثة الأولى التي شهد لها رسول الله ﷺ بالخَيْرِيَّة .

نماذج من السياسة الإسلامية للدولة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين :

جاء وفدٌ من ثقيف إلى المدينة المنوّرة يرأسهم « كنانة بن عبد يا ليل » ، فأنزلهم رسول الله ﷺ في المسجد ، ليسمعوا القرآن ،

ويرَوُا الناسَ إذا صلّوا ، حتى دخل الإسلام أفئدتهم ، ولكنّ كنانة قال لرسول الله ﷺ : أَفرأَيْتَ الزِّنَى ، فإنّا قومٌ نَغترِبُ ولا بدَّ لنا منه ؟ فقال ﷺ : هو عليكم حرامٌ ، فإنَّ الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، قال : أَفرأَيْتَ الرِّبا ، فإنَّه أَموالُنا كلُّها ؟ قال : لَكُم رُؤوسُ أَمْوالِكُم ، إنَّ الله تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨] ، قالوا : أَفرأَيْتَ الخَمْرَ ، فإنَّه عَصيرُ أَرْضِنا لا بدَّ لنا منه ؟ قال : إنّ اللهَ تعالى حَرَّمَها ، وتلا آية تحريم الخمر ، وسأَلُوهُ أَيْضاً أَنْ يَضَعَ عنهم الصَّلاة ، فَقالَ لَهُم رَسولُ اللهِ ﷺ : (لا خَيْرَ في دِيْنٍ لا صَلاةَ فيه) ، فخَلا بعضُهم إلى بعضٍ يتشاورون في الأَمْر ، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ ، وقد خضعوا لذلك كلِّه ، ولكنَّهم سأَلوهُ أَنْ يَدَعَ لهم وَثنَهُم الذي يَعْبدونَه « اللاَّت » ثلاثَ سنين لا يَهدمها ، فأَبى رسولُ اللهِ ﷺ ذلك ، فما بَرِحوا يَسأَلونَه سنةً سنةً ويَأْبى عليهم ، حتى سأَلوهُ شَهْراً واحداً بَعد مَقدَمهم ، فأَبى عليهم أَنْ يَدَعَها إلى أَيِّ أَجل ، وإِنَّما أَرادوا بذلكَ أَنْ يَتَخَلَّصوا مِنْ أَذى سُفهائهم ونِسائهم وذَراريهم ، وكَراهيةً منهم أَنْ يَرْدعوا قَوْمَهم بهدْمِها حتى يَدخلَ الإِسلامُ قلوبَهم ، فقالوا لرسول الله ﷺ : فتولَّ أَنْتَ إِذن هدْمَها ، فأَمَّا نَحنُ فإِنَّا لا نَهْدِمُها أبداً ، فقال لهم : (فَسَأَبْعَثُ لَكُم مَنْ يَكْفِيكُم هَدْمَها)(١) .

---

(١) ينظر القصة بتمامها في دلائل النبوة للبيهقي ، جماع أبواب غزوة تبوك ، باب قدوم وفد ثقيف وهم أهل الطائف على رسول الله ﷺ (٢٠٤٤) . وتاريخ المدينة لابن شبة ، الوفود (٨٠٧) .

ما إنْ بُويعَ سيدنا أبو بكر رضي الله عنه للخلافة حتى أنفذ بَعْثَ جَيشِ أسامة رضي الله عنه الذي كان رَسول الله ﷺ قَد جهزه قبل وفاته ، ولم يُبالِ رضي الله عنه بالآراء التي كانت تُفَضِّلُ تَجميد الجيش ؛ نَظراً لانتشار الرِّدَّة في بعض الصفوف ، ولا بالآراء التي ارتأت أن يُستبدَل بأسامةَ غيرُه .

في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه أَقبل وَفدٌ من المصريين على عمرو بن العاص رضي الله عنه والي مصر ، وقالوا له : إن النيل سيتوقف عن الجريان في هذا الشهر ، ولن يعود إلى جريانه إلا بعد أن ننتقي فتاةً نُجَمِّلها بكلِّ ما يُمكن من الحُليِّ ونُلقيَها فيه ، فأجابهم سيدنا عمرو بأَنَّ الإسلام لا يُقِرُّ هذا الأمر ، فهو قتْلٌ لنفسٍ بريئة ، وتوقفَ النّيلُ فعلاً عن الجريان ، ومرَّ الشهر والشهران على هذا الحال ، حتى عزم بعض السكان على الرحيل بسبب قلة الماء ، فأرسل عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَستشيره في هذا الأمر الغريب ، فبعث إليه سيدنا عمر رضي الله عنه رِسالةً أَمره أن يُلقيها في النيل ، قال فيها : « من عبدِ الله أميرِ المؤمنين عمرَ بن الخطّاب إلى نيلِ مصر ، أمّا بعدُ : فإن كنتَ تَجري مِن قِبَلِك فلا تجْرِ ، وإن كان اللهُ الواحدُ القهارُ هو الذي يُجريْكَ فأسأل اللهَ الواحدَ القهارَ أن يُجْريَك » ، وأُلقِيت هذه الرسالة في النيل فعاد في ذلك المساء يَجري أكثر مما سبق[1] .

(١) أخرج القصة أبو الشيخ في كتاب العظمة ، باب الأمر بالتفكر في آيات الله عز وجل وقدرته وملكه وسلطانه ، صفة النيل ومنتهاه (٩٠٧) . واللالكائي في كتاب كرامات=

في النماذج الثلاثة أمثلةٌ على مَواقف تَقتضي فيها السياسة بمفهومها العصريّ التّصرفَ بما يُخالف الحكمَ الشرعي ، فقد كانت السياسة تقتضي أن يُمهِلَ رسول الله ﷺ ثقيفاً في أمر تحطيم الصنم حتى تَتَقبل نُفوسهم ذلك ، وأن يَستبدل أبو بكرٍ رضي الله عنه أسامةَ بمن هو أكبر منه سناً ليواجه جيوش الروم مخالفاً بذلك أمر رسول الله ﷺ ، وأن يُقِرَّ عَمرُو رضي الله عنه أهلَ مصر في أمر إلقاء الفتاة في النيل ، فهذا أمر اعتادوه منذ مئات السنين ويصعب تغييره ، إلا أن الحُكمَ الشرعيَّ كان يَقضي بعكس ذلك تماماً ، فكان حُكم الشَّرع سُلطاناً على السياسة وحاكماً لها .

وقد يقول قائلٌ : **إذا كان كُلٌّ من الإسلام والسياسةِ مُتجهاً بطبيعة الحال إلى ما فيه مَصلحةُ الأمة ، فكيف نَتصور وقوعَ تَناقضٍ بينهما ؟**

والجوابُ : أنّ الإسلام هو شِرعةُ الله تعالى ، وأحكامُه وَحْيٌ من خالقِ المصلحةِ والمَفسدة ، وهو سبحانه أدرى بما يُحقق المصلحة ويَدرأ المفسدة ، فالشريعةُ الإسلامية لا يَتأتّى منها الخَطأ في تعيين وجهِ المصلحة .

أما البشر عندما يجتهدون ليتبيَّنوا الطريقَ الذي يُحقّق المصلحة ، يتعرّضون للخطأ في اجتهادهم مع أنهم يَرفعون أيضاً لواءَ المصلحة .

فإذا تعارضت الرؤيةُ السياسيّةُ مع حُكم الإسلام نُقرر فوراً أن الخطأ

= الأولياء ، سياق ما رُوي من كرامات أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٣٩١) .

في الفِكر الإنسانيّ ، وليس في الحُكمِ الهابط من عند الله سبحانه وتعالى ، ومن هنا تَأتي المفارقة .

فالسياسةُ والإسلام يَتعاونان طالما التقيا على منهجٍ واحد ، فإذا اختلفا فالأولويَّة للإسلام ؛ لأنه لا يُخطىء ، بل هو مِصباحٌ يُضيء لِيُصَوِّب للسياسيين رُؤيتَهم .

ما هو مفهوم الإسلام السياسي ؟ وما هو الفرق بينه وبين السياسة الإسلامية ؟

الإسلام السياسي : كلُّ رُؤيَةٍ سِياسيَّةٍ تَنبعث من فِكرِ فِئةٍ من الناس ، ثمّ تُصْبَغ بِصِبغةِ الإسلام ، ولو عن طريق تَرقِيعِ الأَدلّة .

فصاحبُ هذه الرؤية يَقوم باستغلال العَاطِفَةِ الإسلامية للناس ، فإذا بِهم يَتَّجهون إليه بالتقدير ، وينهضون به إلى الحُكم بِأقصر طريق ، وهذا العَملُ لا شَأنَ لصاحبه بالإسلام ، وإنما هو عِبارةٌ عن إنسان يَمتطي صَهوةَ الإسلام لِيُوصِلَهُ إلى مَا يَشاء . والدّليل على ذلك أنه لا يَتَوَرَّع عن مخالفة أحكام الشريعة الإسلامية وصولاً إلى غايته المنشودة ، ويُغطي ذلك بما يَشاء من الأحابيل والاجتهادات التي لا وجه لها ، لِيَتحوَّل الدِّين بذلك إلى خادمٍ وإلى سُلَّمٍ يُسْتَخْدَمُ لِلبلوغِ إلى الأماني السياسية المتنوعة المختلفة ، بينما الإسلام في حقيقته يَأمُرُ وَيَنهى ، الإسلامُ يَأمر بالسياسة السليمة الإنسانية التي بَيَّنَهَا لنا اللهُ فِي مُحكم تِبيانه ، وَشرحها لنا رسول الله ﷺ في الصحيح من حديثه ، لكن ما يَنبغي أبداً أن نُنَزِّلَ الإسلامَ مِن عَليائه ؛ لنجعله خادماً لأهدافنا وأحلامنا السياسية .

قلت مرّة لواحدٍ من هؤلاء القياديين هذا الكلام ، فاعتذر بأن تطبيق الشريعة الإسلامية لا يُمكن أن يَتمَّ إلا بعد بلوغ الحكم ، وبعد الإمساك بنواصيه ، وعندما نَصل إلى الحُكم وَنُمسك بزمامه فإنا بوسعنا عندئذٍ بكل سهولة أن نطبق الإسلام .

أرأيتم إلى هذا الفَخّ ! يَتصور هؤلاء الإخوة أن شأن الإسلام وتنفيذه كشأن المذاهب السياسية عندما يسعى السياسيون إلى تنفيذها ، أناس يتبنون الاشتراكية ؛ يُنفذونها عندما يَصلون إلى الحكم ، ليبراليون يُنفذون ليبراليتهم عندما يَصِلون إلى الحكم ، دون البحث عمن اقتنع وعمن لم يقتنع ، هل الإسلام هكذا ؟ الإسلام مُعتَقَدٌ يَسري إلى العقل عن طريق العلم ، ثم هُوَ حُبٌّ يَسري إلى الفؤاد ؛ تَعظيماً لحرماتِ الله وَحُباً له ومخافة ومهابة منه ، عندئذٍ يُطَبَّقُ الإسلام شئت أم أَبَيت ، وإنما سَبيل ذلك أن تَخُوضَ مَخَاضَةَ الدعوة إلى الله عز وجل بين الناس على الأرض لا أن تبتغي محادثتهم على كرسي الحكم ، الإسلام يَأمرك أن تُطمِعَ بِعَقلِ الحكام والملوك لا أن تَطمع بكراسيهم .

السياسيون اليوم نوعان :

النوع الأول : سِياسيون مُحترِفُون لا يَربطُونَ رُؤيتهم السياسية بالدِّين ، وإن كانوا مسلمين ، ولكنهم يُصَرِّحُونَ بِأَنَّ هذه الرُّؤَى اجتهادٌ شَخصي منهم ، ولا يُلَبِّسُونَهَا لَبُوسَ الدِّين ، فهم بذلك صادقون مع أنفسهم ومع غيرهم .

أما النوع الثاني : فيأبى إلا أن يَدعم رَأيه الذي ارتآه بِجَرِّ الإسلام إلى رأيه ، لِيجعل منه شاهداً يدعَم صِحَّةَ نَظرته السياسية ، فهذا يَخدَعُ الْمُسلمينَ وَيَجعلهم يَظنون أن ما يَتَبَنَّاهُ هُوَ الحُكم الإسلامي . وهؤلاء باتوا اليوم يُعرَفون بـ « **الإسلاميين** » ، فقد صار لهذه الكلمة اليوم مَدلولٌ سياسيٌّ مفتوح ، فـ « **الإسلامي** » : سياسيّ ، قد يكون مُلحِداً أو بُوذيّاً أو بوهيمياً ، إلا أنه يُجَمِّل فِكرَه السياسي بالمصطلحات الإسلامية فيُسمّى إسلامياً ، فهو يتَّخذ من الإسلام شِعاراً بَرّاقاً ، ولكنه لا يَختلف عن الساسة المحترفين إلا بالمُؤيِّد الذي لا يَمتلكه المحترفون المساكين ، فهو يستعمل الإسلام مُحامياً عن سياسته ، ويقول للناس بلسان حالِه : سياستي يتبنّاها الإسلام ، فتعالَوا يا أيها المسلمون الذين تَبحثون عن الحُكم الإسلامي فأيِّدوني .

وهذا أمرٌ من السوء بمكان ، لأنه يَقسم السياسيين في الوطن الواحد إلى فُرقاءَ مُتخاصمين ، فالسياسي المحترف يَسوؤُه ما يفعله الإسلاميون ، وهو لا يُريد أن يَخدَعَ النَّاسَ بِاستخدام سلاح الدِّين الذي يَستخدمونه .

لماذا يَرعى الغرب اليوم الإسلام السياسي والإسلام المُتطرّف ؟

في البداية لا بُدَّ مِن التَّوضيحِ أَنَّهُ لا يُوجَدُ فِي الحَقيقة إِسلامٌ مُعتدل وإسلام مُتطرِّف ، فالإسلام واحدٌ ، وهو الإسلام الفِطريّ السليم الذي يَرعى مَصالحَ الأمة فرداً وجماعة .

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ازداد تَخوّف الغَربِ مِنَ الْمَدِّ

الإسلاميّ ، ولعلّ أوّل تَصريح يَكشف عن الحجم الحقيقي لهذه المخاوف تلك الكلمات التي نقلتها إذاعة لندن في بَثِّهَا العَربيّ عن لسان « **مارغريت تاتشر** » ، مساءَ اليوم الثالث من شهر شباط عام ١٩٩٠ ، في برنامج الشؤون العربية في الصحف البريطانيّة ، تقول فيه : « كان أمام الغرب عَدُوَّان اثنان : الشيوعية والإسلام ، وقد تمَّ القضاء على العدوّ الأول دُون أن يُقدِّم الغَرب في سبيل ذلك خسائرَ تُذكر » .

وقد رأى الغربُ أنّه لا مَصلحة له في معاداة الإسلام المتطرّف ، لأنّه انتهى إلى قرارٍ يَقضي بأن الشيءَ الذي يُفقِد الناسَ الثقةَ بالإسلام هو أن يَجِدُوا أمامهم على مسرح الأحداث الإسلاميّة إسلاماً يُثِيرُ الرُعبَ وَيُعَبِّر عن وحشيّةٍ بربريّة .

فالإسلام الفطريّ الذي سرعان ما يَتَقَبَّلُهُ أصحاب الفكر الموضوعي هو الذي يُحارَب ، والسبيل إلى هذه الحرب هو فَتحُ الباب واسعاً للإسلام السياسيّ ، وللجماعاتِ المُتَطرِّفة التي تَستبيحُ لِنفسها القتلَ والذّبح والتخريبَ تحت راية « لا إله إلا الله » ، وتحت اسم « الجهاد في سبيل الله » ، وتسليطُ هذه الجماعات على المجتمعات الإسلامية الوسطية .

كان الإسلام يُقاتَل من خلال عدو خارجي لا شأن له بالإسلام ، أما اليوم فالإسلام يُخنَق بحباله ، ويُحارَب بسلاحه وبشعاراته .

وهذا ما يُفسِّرُ لَنا ، لماذا صار الغربُ اليومَ يَتبنّى الحركة الإخوانيّة ، بعد أن كان يُعاديها بالأمس ؟ فقد تحوّلت أنشطتُها من

السَّير تحت لواء السّياسة الإسلامية إلى الإسلام السياسي ، وتحوَّل الغرب من الهجوم عليها إلى التَّبَنِّي لها ، وصارت أمريكا اليوم هي التي تُعَبِّدُ الطريقَ أمام الحركة الإخوانية في مصر ، وأمام الأنشطة الإخوانية في أماكنَ أخرى ، بل بكلمةٍ أدقّ إسرائيل هي التي تفعل ذلك ، لكي تُجهِضَ التَّوَجُّهَ الذي هَيمن على أذهان كثيرٍ من الناس في أن الإسلام هو الذي يَرعى مصالحَ الأمة ، ويضمن سعادة الفرد والمجتمع .

أيام الرئيس « جمال عبد الناصر » قامت مُشكلةٌ بينه وبين الإخوان ، وتم ضَرب الحركة في مصر ، فتوجَّهَت ثُلَّةٌ منهم إلى الملك « سعود » الذي كان آنذاك ملك السعودية ، وقالوا له : أنت تَعلم أن الحركة الإسلامية العَالمية الوحيدة في العالم هي حرَكة الإخوان المسلمين ، وكانت مِصر هي التي تحتضنها ، ولكن بعد هذا الذي أصابها في مِصر فإننا نجد أن الدولة الوحيدة التي ترعى الإسلام وتحتضنه هي السعودية ، فَنَرجو أن تَحتضنوا هذه الحركة . فوَافق الْمَلك « سعود » إلا أَنَّهُ اشترط أن يُوجد تناغمٌ وتعاونٌ بينهم وبين الحركة الوهابية ، فَقَبِل الإخوان .

ومنذ ذلك اليوم قام حِلفٌ بين الوهابية والحركة الإخوانية ، وبدأت السياسة تُهيمن على حركة الإخوان . لذلك نرى أنه بعد استلام الإخوان للسلطة في مصر صارت الساحة واسعةً للمُكَفِّرين الذين يَهدمون المساجد وأضرِحة الأولياء والصالحين ، فلماذا لا تَقف الحركة الإخوانية في وجوههم ، السبب هُوَ التَّحَالُفُ القَائِمُ بَينهم .

ولو سألنا واحداً من تلك الثُّلَّة التي قابلَت الملك « سعود » ، هل هذا الحِلف مما يُقِرُّه الإسلام ؟ لقال : لا ، ولكنّ السياسة هي التي فَرضَتْه علينا .

والأمثلة التي تَدلُّ على أن هذه الحركة أَصبحت تتبنى الإسلام السياسي ـ أي الخاضعَ للسياسة ـ كثيرة :

بالأمس كانت تصريحاتهم مَظهراً للحماسة ضد العدو المغتصب للأرض والحقوق ، الطاردِ للناس من بيوتهم وأوطانهم « إسرائيل » ، سمعناهم يتداعون لقتال العدو المغتصب ، ورأيناهم يُلِحُّون على الأمة الإسلامية بضرورة التلاقي صفاً واحداً على قتاله ، وَنَظَرنا اليَوم وإذا بهم يُعلنون حِلفاً خَفِيّاً أو مُعلَناً معه ، وأصغينا السمع وانتظرنا أن نَسمع مِنهم ما يُذكِّرُنَا بموقفهم قبل سنوات ، ولكننا لم نَسمع مِنهم إلا النَّقيض . بل صاروا هُمُ اليَوم يَجلسون مع الحاخامات وَيَتبَادلون معهم الرأي .

كم وكم سَمعنا مِنهم تَذكِيراً بأحاديث رسول الله ﷺ التي تَأمُرُ بعَدَم الخُرُوج على الحاكم : (قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنه : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ ، فَجَاءَ اللهُ بِخَيْرٍ ، فَنَحْنُ فِيه ، فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الخَيْرِ شَرّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْر ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الخَيْرِ شَرّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : كَيْفَ ؟ قَالَ : « يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ ، وَلا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي ، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْس » ، قَالَ : قُلْتُ : كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ أَدْرَكْتُ

ذَلك ؟ قَالَ : « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ للأَمِير ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ ، وَأُخِذَ مَالُكَ ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ »[1] . ويذكِّرون بأنه لا يَجوز الخروج عليه ما دام لم يُعلن الكُفرَ البَواح . ونظرنا إليهم وإذا هُم اليَوم يَحكمون على الحُكّام بالكفر ، وَيَحكمونَ عَليهم بالشرود الكلي عن صراط الله سبحانه وتعالى ، وَيُحَرِّضون الناس على الخروج عليهم ، ثم يَجعلون هذا الحُكم خَاصاً بِبِلاَدٍ دُون أخرى ! فَهَل يُمكن أَن نَجِدَ إِسلاماً سِيَاسِيَّاً يُمَزَّق فيه الإسلام أكثر من هذا ؟ .

بالأمس كانوا يُحَذِّرُون مِن بِدعَةِ التَّكفيرِ وَيُعلنون خِلاَفَهم مع التكفيريين ، اليوم هم أنفسُهم يُكفِّرون الناس .

الرِّبَا كانوا إلى الأمس القريب يقولون أنه حرام أياً كانت النسبة ومهما كان ، اليوم نجد أنهم يقولون : إذا كانت النسبة ٤٪ فهو ليس حراماً ، وَيُبررون ذلك بأن هذه النسبة مقابل التضخم .

هذا التلاعب بالإسلام من أشدّ الأخطار التي تُحدِق به ، فالمجتمع العَالميّ الذي كان بِالأمس يَنظر إلى الإسلام بِعَينِ البَحث وَالدِّرَاسة ، ولم يَصل بعدُ إلى موقفٍ منه ، صَار يَرَى في هَذه الأحكامِ المتناقضة والمواقف المتعارضة مصداقاً للمقولات التي شَاعت في المجتمع الغربي ، ومنها قولُ « شاخْت » اليهودي الألماني الذي يَرى أن الإِسلام هُوَ مَجموعةُ أَفكار تَنَاسَقَت وَتَكَاثرت ، وجاء مَن أَراد أن يُخَلِّدَهَا فأحاطها بصفة الدّين .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، بَابُ الأَمْرِ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وتحذير الدعاة إلى الكفر ، برقم (١٨٤٧) .

كان هؤلاء الدّارسون للإسلام لا يَلتَفِتون إلى تلك المَقولات ، لكنّ الإسلامَ السياسيّ الذي نَراه اليوم جَعلهم يَقتَنِعُون بها ، فصاروا يُعرِضُون عن الإسلام وَيَمقُتُونَه .

فما هو السبيل الأمثل لإخضاع السياسة للإسلام ، وإعادة العلاقة بينهما إلى ما كانت عليه في عهد السَّلف الصالح ؟

سبيل ذلك أن تَحيا مشاعر العبوديّة لله بين جوانحنا ، فيهيمن على كيان الإنسان أنه عبدٌ مملوكٌ لله سبحانه وتعالى ، وأن نُزَكي قلوبنا ، وَنَبذُلَ كل ما نَملك مِن جُهدٍ لِغَرسِ مَحَبَّةِ اللهِ بَينَ جَوَانِحِنَا ، محبةُ الله عز وجل إذا غُرِسَت في أَفئدتنا طَرَدَت حُظُوظَ النَّفس ، طَرَدَت الشهوات والأهواء ، طَردت الأنانية الشخصية والأنانية الحزبية ، طَرَدَت ذَلك كله وتحول القلب إلى وعاء نَقي صافٍ من الأدران ، يَنبض بحب واحد لا ثاني له ألا وهو الله .

عندما تنظر فتجد أن الله قد أحبك فَرَزَقَكَ نِعمة الإسلام ، إذا نَظرت فَوَجَدت أن الله قد أحبك فرزقك نعمة الإيمان به ، إذا نظرت فوجدت أن الله قد أحبك فساقك إلى أن تركع وتسجد له ، إذا نَظَرتَ فَوَجَدت أن الله قد أحبك وأقدرك على أن تَقِفَ بَين يديه وتقول له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] ، إذا نظرتَ فوجدتَ أن الله قَد أحبك فأكرمك بنعيم الدنيا أشكالاً وألواناً ، اعتصَرَ مِن سَمَائِهِ وَأَرضِهِ رِزقاً لك ، إذا نظرت فوجدت نعمة العافية تتضرج في كيانك ، ماذا تعلم ؟ تتبين من ذلك أن الله يُحبك ، فإذا عَرفت أن الله

يُحبك ألا تبادله حباً بحب ؟! لا بُدَّ أَن يتفجرَ حُبُّ الله بين جوانحك ، فإذا هيمنت محبة الله عز وجل على قلبك طَرَدت هذه المحبة ظُلُماتِ الأغيار ، وهذا هو علاجنا من هذه المشكلة .

* * *

الخاتمة[١]

يا مسلمي العالم :

ـ أنتم أغنى الناس بالثروات التي أودعها الله ذخراً في أوطانكم .

ـ وأنتم أقوى الناس فيما تملكون من حوافز الوحدة والتضامن فيما بينكم .

ـ وأنتم أعزّ الناس بما أوتيتم من القيم الإنسانية الراشدة ، ودعائم الحضارة المثلى ، والعقائد الإيمانيّة التي يسجد لها العلم .

ولا ريب أن هذه المزايا الثلاث تُرشحكم لتبوء مركز القيادة على مستوى الأسرة الإنسانيّة في العالم ، لو صدقتم معها وحفلتم بها .

غير أنّكم حكمتم على أنفسكم بالتّخلّي عن هذه المزايا الثلاث عندما اتّخذتم قراركم النّافذ بأن تركنوا إلى الشقاق بدلاً عن الوفاق ، وبأن تؤثروا الخصام فيما بينكم على الوداد ، وبأن تتلمّسوا مبررات النِّزاع بدلاً من التعامل مع ما هو متوافرٌ وكثير أمامكم من موجبات الاتّفاق والوئام .

لقد نسي العالم أمام النقع الذي يتعالى مُتزايداً من آثار خصوماتكم

(١) كلمة شهر نيسان عام ٢٠٠٠ ، كتبها العلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى ، لموقعه الالكتروني السابق .

المهتاجة أثَرَ الإسلام العجيب في توحيد القبائل المتعادية ، وضفر المشاعر المتنافرة بالأمس ، فلم يَعد يَعرف إلا ما يفرزه واقعكم الإسلامي اليوم من التناحر المتزايد فيما بينكم ، ومن تَسلُّط كل عضو منكم بالإتلاف على العضو الآخر ، وأنتم الذين كنتم يوماً ما كالجسد الواحد ! .

أمَا إنَّه لَثَمَنٌ رخيص جِداً هذا الذي أخذتموه لِبَيع ثَرواتكم الظاهرة والباطنة ، وللتخلّي عن مركزكم الحضاري وعن مصدر قوّتكم التي شهدت لكم بها القرون المنصرمة .

ولست أدري أَتَئِنُّون اليوم من الثمن البخس الذي تقاضيتموه . . بل تحمّلتموه ، أم إنّكم تَئِنُّون من التبعات الثقيلة التي تأخذ اليوم منكم بالخناق . . بأي منطق تتعاملون أيّها المسلمون ؟ .

إن كنتم لا تَزالون تَتعاملون بمنطق إسلامكم الذي عاهدتم الله عليه ، فإنّ إسلامكم هذا ما زال يناديكم قائلاً : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

ويلاحقكم بتحذيره : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

وإن كنتم تتعاملون بمنطق المصالح فليس في النّاس كلّهم غبيٌّ لا يعلم أن مصالحكم كلّها رهن باتّحادكم وتضامنكم .

وإن كنتم تتعاملون بمنطق القوميّات فاهنؤوا بمزيدٍ من الشّقاق والتّشرذم ، ولتعلموا أنّ منطق القوميّات كان ولا يزال السلاح الذي قَوَّضَت به بريطانيا وحدتكم وحطّمت به طوق خلافتكم .

يا مسلمي العالم :

ليس أمامكم من علاج لما ترزحون تحته من مصائب وما تَئِنُّون منه من تخلّف ، وما تشكون ـ على الرّغم من غناكم ـ من الحاجة والفقر ، إلا أن تعودوا إلى سابق وحدتكم وتضامنكم .

ولن تعودوا إليها إلا إن جذبكم إليها محور جامع ، وليس المحور الجامع بالنسبة إليكم إلا الإخلاص والصدق في انتمائكم إلى الإسلام .

فإن عَزَّ عليكم وضع هذا المحور الجامع ، واكتفيتم بالهتافات والشعارات عن الصدق في التعامل مع الله ، فلسوف تنحطّون إلى مزيدٍ من الشّقاق والتشرذم ، ولسوف تبتلعكم عولمة الغرب ، ولسوف تشلّكم ثمّ تسحقكم « نظم التجارة العالميّة » ، ولسوف تتحوّلون إلى قطعة من جهاز تدور في فلك المصالح الغربيّة .

وبوسعكم عندئذٍ أن تُصغوا جَيِّداً إلى حَديثِ الدَّهر وهو يُتَرجم كلمة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : « إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنا اللهُ بِالإِسلام ، فَمَهْما نَطْلُبُ العِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعزَّنا اللهُ بِه أَذَلَّنا اللهُ » .

* * *

مفهوم الثورة
في الإسلام

المحتوى

مقدمة البحث ٧٧
مشكلة الانشغال بأحلام المجتمع الإسلامي عن الدعوة ٨٢
هل يمكن إقامة المجتمع الإسلامي على منهج ثوري ١١٣
الخاتمة وفيها نصيحة أزجيها لإخواني الدعاة ١٢٥

مقدمة البحث[١]

إن من الواجبات الكفائية التي خاطب الله عز وجل بها عباده في محكم تبيانه وجود فئات من الصالحين ، الذين طَهُرَت قلوبهم من السخائم ، وهيمنت الرحمة عليها بعبادة الله سبحانه وتعالى ، يُمارسون وظيفة التعريف بالخير والدعوة إليه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ألم تقرؤوا قوله سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

ولكن الآفة التي ابتُلِيَتْ بها أمتنا الإسلامية في هذا العصر أن في هذه الفئات التي تنهض اليوم بواجب التعريف بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فئاتٍ لا تعلم الحق إلا ذاك الذي هدته إليه عصبيتها ، أو طالعه عليه مزاجها ، أو اقتضاه تحزُّبها ، أو دَعَتْه إليه مصالحها ، ذلكم هو الحق فيما يُعَرِّفون الناس به ، وفيما يَدْعون إليه ، فإن تنكَّبَ مُتنكِّبٌ عن هذا الذي يَدْعونَ هُم إليه اتُّهِم ذلك المتنكب بالفسوق أو الابتداع ، وربما اتُّهِم بالكفر ، وربما أُهْدِر دمه .

(١) مستخلص من خطبة للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى بتاريخ : (٢٣/٣/٢٠١٢م) .

وميزان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو الثوابت المستقرة في كتاب الله سبحانه وتعالى ، وهدي رسوله الكريم محمد ﷺ .

وأقول لهؤلاء الإخوة : إن علماء الشريعة الإسلامية عندما وصفوا الناس الذين ينبغي أن ينهضوا بهذا الواجب ، وصفوهم بصفات في مقدمتها :

ـ الرحمة بعباد الله ، وأن يكونوا ربانيين .

ـ أن تكون قلوبهم أوعية لمحبة الله ، ولتعظيم حرمات الله .

ـ أن تكون لهم ساعاتُ عهدٍ ولقاءٍ مع الله في الأسحار .

تلك هي أهم صفات الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى ، فلماذا نظر فنجد أنَّ في الدعاة من يتَّصِف بنقائض هذه الصفات ؟

ننظر إلى كتاب الله فنجده يبشِّر عباد الله سبحانه وتعالى بالمغفرة ، وننظر إلى أحاديث رسول الله ﷺ ، وإذا هي الأخرى تبشر بالمغفرة ، يقول الله عز وجل : ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ويروي الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار »(١) .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم ، برقم : (١٢٧) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنة ، برقم : (٧٢) .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وفي رواية : « وجبت له الجنة »(١) .

وعن أبي عمرة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أني رسول الله ، لا يلقى اللهَ عبدٌ يؤمن بهما إلا حجبت عنه النار يوم القيامة »(٢) .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل »(٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إذا قال الرجلُ: (هلكَ الناسُ) فهو أهلكهم»(٤).

إذن يا هذا ، أموقن أنت أن هؤلاء الذين تتَّهمهم بما شِئْت من

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ، باب فرض الإيمان ، ذكر البيان بأن الجنة إنما تجب لمن شهد لله جل وعلا ، برقم : (٢٠٠) ، وأخرجه الحاكم في كتاب الجنائز ، برقم : (١٢٣٣) وقال : (هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ، كتاب عمل اليوم والليلة ، برقم (١٠٥٣٨) . وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب فرض الإيمان (٢٢١) . وأخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين ، برقم : (٤١٧٧) وقال : (هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ، برقم : (٥٢٣٤) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب النهي عن قول (هلك الناس) ، برقم : (٤٨٦٢) ، (أهلكهم) روي بالنصب والرفع .

الفسوق والابتداع بل الكفر ، أموقن أن الواحد منهم لن يصبح في الغد القريب خيراً مني ومنك ؟ .

أموقن أنك ـ وأنت تعتَدُّ بنفسك ـ أنني وإياك عندما نمتد على فراش الموت ، ونعالج بُرَحاءَه لن تنسينا برحاء الموت شهادة « أن لا إله إلا الله » ؟ .

أموقن أنت بهذا حتى تُصنِّف نفسك ، وحتى أُصنِّف نفسي معك في الناجين من عباد الله وحتى نُصنِّف التائهين مع الكفرة ، أو مع الفاسقين ، أو مع الفجرة ؟

من كان فُضيل بن عياض يا أخي ؟ ألم يكن قاطع طريق ؟ ألم يكن مرتكباً للفواحش ؟ إلام آل أمره بعد ذلك ؟ ألم يكن واحداً من كبار الربانيين ، من كبار عباد الله الصالحين ؟

من كان بشر الحافي ؟ ألم يكن مسرفاً على نفسه ؟ ألم تكن الدنيا قد أسكرته بأهوائها وشهواتها ؟ ثم إنه آل إلى الإنسان الذي ضُرِبَ به المثل في التقوى ، وفي البعد لا أقول عن المحرمات ، بل عن الشبهات وبالورع العجيب ؟

من كان عبد الله بن المبارك وإلام آل أمره ؟

أموقن أنت يا أخي ، أنني وإياك إذا حانت سكرة الموت سنبقى على هذه الحالة ، على هذه الاستقامة ؟ إذاً فأنت تأمن مكر الله ، والله يقول : ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف : ٩٩] .

ربنا سبحانه وتعالى فتح باب رحمته لعباده جميعاً ، وجلبهم إليه

بهذه الرحمة ، ورسولنا الحبيب ﷺ يقول : « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا »[١] .

ـ أننفر بدلاً من أن نبشر ؟

ـ أنعسر ولا نيسر ؟!

والعلاج الذي يجعل الإنسان قائماً بواجب التعريف بالخير والأمر به ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، دون أن يقع في هذا الحضيض : أن نزكي قلوبنا ، ونبذل كل ما نملك من جهد لغرس محبة الله بين جوانحنا ، محبة الله عز وجل إذا غُرست في أفئدتنا طَرَدَت حُظوظ النفس ، طردت الشهوات والأهواء ، طردت الأنانية الشخصية والأنانية الحزبية ، طردت ذلك كله وتحول القلب إلى وعاء نقي صافٍ من الأدران ، ينبض بحبٍ واحدٍ لا ثاني له ؛ ألا وهو الله .

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب في الأمر بالتيسير ، برقم : (٣٣٤٩) ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

مشكلة الانشغال بأحلام المجتمع الإسلامي عن الدعوة(١)

شاء الله عزَّ وجلَّ ـ بواسع رحمته ودقيق حكمته ـ أن يَختار مِن عِباده ثلَّة يجعل منهم المثل الذي يُحتذى ، والنموذج الذي يُقتدى به في الانقياد لأوامر الله وتطبيق تعاليمه وأحكامه ، وكأنه عز وجل قضى ـ بباهر حكمته ـ أن يجعل من حياتهم وواقع سلوكهم في الجملة وسيلةَ إيضاح لمن بعدهم ، يهتدون بهديهم كلما غُمَّ عليهم الأمر والتبست عليهم الحقائق بأشباهها ، وقد تمثَّلت هذه الثُّلَّةُ المختارة في صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم .

وليس في اختيار الله لهم ما يثير دهشةً أو يبعثُ على تساؤل ، فهم الرعيل الأول الذين تبلغوا عن الله وعن رسول الله ﷺ بعد فترة من الرسل ، وهم الذين رأوا رسول الله ﷺ وأخذوا منه وتعلموا على يديه ، وهم الذين سرى نور النبوة إلى أبصارهم ، التي اكتحلت بمرأى رسول الله ﷺ ، ثم سرى منها إلى قلوبهم التي فاضت بمحبة رسول الله ﷺ ، فحُقَّ أن يكونوا على خُطى رسول الله ﷺ ، ثم أن يكونوا من بعده الهُداةَ الذين يُقتدى بهم ، والنموذج الأسمى لكيفية السير على صراط الله عزَّ وجلَّ .

---

(١) المصدر : كتاب « هذه مشكلاتنا » للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى .

وقد نظرنا ثم تأملنا طويلاً في موقف هؤلاء الصحابة ، الذين جعلهم الله ـ بعد رسوله ﷺ ـ قدوة لنا في كلٍّ من الواجبات التي كلَّفهم الله بها وأنهضهم إليها ، والحقوق التي بشَّرهم بها وتكفَّل لهم بإنجازها ، فرأينا أنهم توجهوا بكل مشاعرهم وقدراتهم إلى الواجبات التي حمَّلهم الله إياها ، وسَعَوا في ثباتٍ واستمرار إلى النهوض بها ، دون أن تطوف بأذهانهم أحلام تلك الحقوق التي وعدهم بها ، ودون أن يدَّخروا شيئاً من جهودهم للبحث عن تلك الحقوق ، بل دون أن يربطوا بين تلك الواجبات وهذه الحقوق بشيء من رابطة العلة والمعلول ، أو الثمن والسلعة ، بل تأملنا فلم نجد إلا دافعاً خفياً واحداً يُنهضهم إلى القيام بالوظائف التي ألزمهم الله بها ، ألا وهو دافع العبودية والمملوكية لإلههم المالك .

ما إن يبايع الواحد منهم رسول الله ﷺ مؤمناً بالله رباً وبمحمد رسولاً حتى يعود إلى نفسه فيُلْزِمها بإتباع أوامر الله والانتهاء عن نواهيه ، مجاهداً نفسه ضد أهوائها ، مطهِّراً ذاته من بقايا الجاهلية ، ثم يُقْبِل إلى من يُعيل ، ثم إلى سائر من حوله من عباد الله عزَّ وجلّ ، يُعرِّفهم على الله ، ويُبلِّغهم أوامره وأحكامه ، مُختَرقاً إلى ذلك المخاطر كلَّها ، مضحياً بحقوق نفسه إنْ أُهينَت ، مُتجمِّلاً بمشاعر الحب لعباد الله والشفقة عليهم جميعاً ، وقدوتهم في ذلك كله سيدهم وحبيبهم رسول الله ﷺ .

ولم يكن من شأن أيٍّ منهم أن يعود في المساء إلى داره ليسأل نفسه : متى وكيف تكون الحاكمية في الأرض عن الله لنا ؟ . كما لم

يكن من شأن أيٍّ منهم أن يتقلَّب ذات ليلة في أحلام هذا النعيم الذي وعدهم الله به : كيف يكون مذاقُه ، أو إلى أي مدى يَمتدُّ ظلُّه ؟ بل كانوا يقطعون الليل بعد أخذ حظِّهم من الراحة والرقاد ، بنجوى الخائف من تقصيره ، الطامع في تجاوز الله وعفوه . وربما اتَّهم أحدُهم نفسَه لتقصيرٍ تخيَّل أنَّه قد أَلَمَّ به ، بلون من النفاق قد ابتُلي به ، فيتقلَّب من ذلك في همٍّ يكاد يُذيبه ، ثم لا يسكن روعه حتى يشكو أمره إلى رسول الله ﷺ ، فيذكِّرُه بعظيم رحمة الله وكرمه ، ويبشِّرُه بأن إحسان الله لعباده يأتي على قدر ضعفهم وعجزهم ، إن هم عظَّموا حرمات الله ، واستشعرت قلوبُهم مهابته .

تحت سلطان هذه الدوافع والمشاعر ، أَدوا واجباتهم هذه ، وصمدوا لكل ألوان الأذية في مكة . . . ، وتحت سلطان هذه الدوافع والمشاعر ذاتها ، هاجروا في سبيل الله إلى المدينة ، وقد نفضوا أيديهم عن كل زاد إلا زاد التقوى والعمل الصالح ، وهم خلال ذلك كله يُعرِّفون الناس على الله ويبلِّغونَهم كلمات الله ، ويُقدِّمون نفوسهم وحظوظها قرابين رخيصة على طريق تطبيق أوامر الله .

هل كان أي منهم يخلط بين قيامه بواجباته هذه ، والتخطيط لكيفية القضاء على الامبراطورية الساسانية أو الرومانية ؟ .

هل كان فيهم من يُفكِّر بكيفية الانتقام من قريش التي أخرجتهم من ديارهم ، أو يفكِّر بالغد القريب الذي يصبحون فيه الحكام المهيمنين عليهم والمتنفذين فيهم ؟

معاذ الله . . . لم يكن هذا شأن أحدٍ منهم ، بل كانوا قد وضعوا

همهم كله في أن يُوَفَّقُوا إلى أداء حقوق العبودية التي في أعناقهم لله عزَّ وجلَّ ، أو يرحلوا إليه وهو راضٍ عنهم غفَّار لهم . فلمَّا صَدَقوا فيما ألزموا أنفسهم به من حق الله عز وجل ، وفَّاهم الله حقهم الذي تكفَّل لهم به ، فأعادهم إلى الأرض التي أُخرجوا منها ، وأورثهم أرضاً ودياراً أخرى لم يعرفوها ولم يحلموا بها ، وجعل منهم قادة العالم ووُرَّاث الحضارة ، فكانوا بحق سدى ولحمة المجتمع الإسلامي .

هل كان سعيهم وجهادهم قبل ذلك تخطيطاً لبلوغ حكم ، أو إمعاناً في قهر حاكم ، أو مناورة لإنشاء حلف ؟ لم يكن هذا شأنهم قط ، بل لم يخطر لهم شيءٌ من هذا على بال .

بل مما لا شك فيه أنهم لو وَلَّوا وجوههم شطر شيءٍ من هذه المشاغل أو صرفوا أفكارهم إليها ، لما حقَّق الله لهم شيئاً مما قد أكرمهم به ، ولما جعل منهم أئمة الأرض وورّاث الحكم وقادة العالم ، بل لَوَكَلَهُم عندئذٍ إلى أفكارهم الْمُخطِّطة وأحلامهم المهتاجة ، ولما جاءت قدراتهم من ذلك كله بشيء .

فذلك ما نقرؤه واضحاً في كتاب الله : واجبات كَلَّفَنا الله بها وأناطها بأعناقنا ، وحقوق تكفَّل الله بها لنا إن نحن أخلصنا القيام بتلك الواجبات .

وهذا ما فعله أصحاب رسول الله ﷺ ، وفعله الله لهم : عاهدوا أن يُنفذوا أوامره ، وأن يُمارسوا عبوديتهم له بإخلاص وصدق ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . . ، وعندئذٍ وفَّى الله وعده لهم فَوَرَّثهم

الأرض والديار ، وألقى أزمَّة الحكم في أيديهم ، وبثَّ الهيبة منهم في قلوب الناس .

وقد عَلِمنَا أن الله عزَّ وجلَّ جعل من أصحاب رسول الله ﷺ النموذج الذي يُتبع في صحة التوجه والسلوك ، فهم الذين يصدق عليهم قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

وإذا كان الأمر كذلك ، فليس لنا عن الاقتداء بهم أي محيص ، إلا إنْ أردنا أن نسلك سُبُل الغواية بدل الرشاد ، أو أن نغامر في اتباع ما لا يُجدي أو غرس ما لا يُثمر ، ونسأل الله أن يُسلّمنا ويقينا من الوقوع في هذا التيه .

ونحن اليوم نُعْلِن عن صدق إيماننا بالله واستسلامنا لألوهيته وحُكمه ، تماماً كما أعلن أصحاب رسول الله ﷺ .

ويظهر اليوم في الساحة الإسلامية من يُسمَّوْن بالإسلاميين أو الجماعات الإسلامية ، يضعون أنفسهم من عامة الناس موضع الصحابة رضي الله عنهم ممن بعدهم ، فهم النموذج الذي ينبغي أن يُقْتدى به اليوم بعدهم ، إذ هم طليعة رجال الدعوة إلى الله ، والقائمون بأمر الله والمجاهدون في سبيله ، والمنافحون عن حرماته .

والحق أن على عامة المسلمين في هذه الحال ، أن يقتدوا بهم وينهجوا نهجهم ، إذ هم الوارث للخصائص التي تميز بها الصحابة رضي الله عنهم عمن سواهم .

ولكـن . . . أفيسلـك هـؤلاء « الإسـلاميـون » فعـلاً مسلـك رسول الله ﷺ ، ومن ثم مسلك أصحابه رضي الله عنهم ؟ أفيحصرون أنفسهم فعلاً في نطاق الواجبات التي كلَّفهم الله بها في حقِّ أنفسهم والناس الذين من حولهم ، ويفوضون ما التزم لهم به الله إلى الله ؟ .

إننا ننظر فنجد ـ ويا للأسف ـ عكس ذلك تماماً .

لقد نامت في نفوسهم مشاعر الواجبات الذاتية ، التي أذاب أصحاب رسول الله ﷺ أنفسهم في ضرام السعي إليها والنهوض بها ، واستيقظت بدلاً من ذلك لديهم مشاعر التطلع إلى الوعود التي تكفل الله لهم بها .

أمرهم الله عزَّ وجلَّ أن يصطبغوا بذل العبودية لله تعالىٰ ؛ شعوراً وتبتلاً وأخلاقاً وسلوكاً ، فشردوا عن واجبهم هذا بأحلام السعي إلى إقامة الحكم الإسلامي ! .

وأمرهم الله عزَّ وجلَّ أن يُعَرِّفوا الناس على الله تعالىٰ ، وأن يُبَلِّغُوهم كلماته وأحكامه ، وناشدهم ذلك رسول الله ﷺ قائلاً : « بلِّغوا عنِّي ولو آية »[1] . فتشاغلوا عن واجبهم هذا بهموم الوصول إلى الحكم ، ومناوأة من يصدُّهم عن ذلك .

والخلاصة أنهم قصَّروا كلَّ التَّقْصير فيما طلبه الله منهم ، واجتهدوا كل الاجتهاد فيما ضمنه الله لهم ! فصدق عليهم قول ابن عطاء الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، برقم : (٣٢٩٢) ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

السكندري : « اجتهادُك فيما ضُمِن لك ، وتقصيرُك فيما طُلِب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك » .

هما كلمتان ، خاطب الله بهما عباده المسلمين من خلال قرآنه : حققوا في أنفسكم أهلية الحكم في الأرض عبودية وإخلاصاً لله ، وتزكية نفسية ، ومن ثم أخلاقاً زكية مع عباد الله ؛ أصعدْ بكم إلى سُدَّة القيادة في الأرض ، وأضع بين يديكم مقاليد الحكم من حيث لا تحتسبون .

وقد رأينا كيف وعى أصحابُ رسول الله ﷺ هاتين الكلمتين ، فعكفوا على الواجب الذي ألزمهم به الله عبودية وإخلاصاً وتزكية وأخلاقاً ، وما هو إلا أن ورَّثهم الله مقاليد الحكم ، من حيث لا يحتسبون. . . أجل من حيث لا يحتسبون !. . . ثم خلَفَ من بعدهم خلف ، تجمَّلوا من حيث الألفاظ والشعارات ، بما يرقى بهم إلى مصافِّ صحابة رسول الله ﷺ ، وتنكَّبوا من حيث العمل والسلوك عن هذا النهج الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم جعلوا كلَّ همهم بدلاً عن ذلك في طرق أبواب الحكم ، بكل ما تطول إليه أيديهم من الوسائل التكتيكية والأسباب المتنوعة .

أين هي ليالي التبتل بين يدي الله ؟ وأين هي مجالس « تعالوا بنا نؤمن ساعة » ؟ وأين هي معارج التزكية بالنفس إلى حيث الإيثار بدلاً من الأَثَرَةِ ، والحب بدلاً من الحقد ، والتضحية بالحظوظ بدلاً من التضحية بالخصوم ؟ وأين هي حِلَق الذكر التي كانت تزدان بأصحاب رسول الله ﷺ فتورثهم الأفئدة الرقيقة والعيون الدامعة ؟ أين هي

مجالس التبليغ عن الله والتعريف بألوهية الله وعظيم سلطانه ؟ أين هو البحث عن التائهين والشاردين والضالين ـ وما أكثرهم في كل فجٍّ وصوب ـ للحوار معهم والإجابة عن مشكلاتهم ، وتذويب شبهاتهم والصبر في سبيل ذلك على أذاهم ؟ أين هو السلاح الأول في حياة المسلم الرباني القائم على حدود الله وأوامره ؟ وهل هو إلا صدق التوكل على الله والثقة بالله والرضا عن الله ، ثم الاصطباغ ـ في التعامل مع الناس ـ بأخلاق رسول الله ﷺ الذي قال : (إِنَّكُمْ لا تَسَعُونَ النَّاس بِأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ لِيَسَعهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْه وَحُسْنُ الْخُلُق)[١] .

إنني أنظر . . وينظر الناس جميعاً معي ، فلا نرى إلا انصرافاً عن هذا كله .

آلاف التائهين والشاردين تتصيدهم كل يوم شباك الشهوات والأهواء ، أو تتربص بهم جهود الدعاة إلى النار ، وقد تسلَّحوا بما كان أولى بالإسلاميين أن يتسلَّحوا به ، من حُسْن المعشر وخفض الجناح ولين الجانب ، والصبر على مشاق الرحلة ، ومخاوف الصدِّ والردِّ ، ولسان حال هؤلاء التائهين والجاهلين يصرخ قائلاً : ألا من مُنقذٍ يُخلِّصنا من رقِّ أهوائنا التي تحكمت بنا ، أو من هؤلاء الماكرين المبشرين الذين يُحيطون بنا ؟ أين هم ورَّاث شريعة الله ورجال الدعوة إلى الله ، ينتشلوننا من عذاب نفوسنا ومن كيد المتربصين بنا ؟

غير أن لسان حال الإسلاميين والجماعات الإسلامية يردُّ قائلاً :

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مداراة الناس ، باب المداراة بطلاقة الوجه وحسن البشر ، برقم : (٥٥) عن أبي هريرة ، بسند رواته ثقات .

نحن في شغل شاغل عن هذا الذي تدعوننا إليه وتستنجدون بنا من أجله ؛ إننا مشغولون عنكم باتخاذ أسباب الوصول إلى الحكم ، ولسوف ننعطف إليكم من فوق كراسي الحكم ، لنقودكم إلى الحق عندئذٍ كرهاً ، بدلاً من أن نحاوركم وندعوكم إليه عن طواعية ورضا !

أجل هذا ما يقوله اليوم لسان حال هؤلاء الإسلاميين ، بل هذا ما يقوله كثير منهم بألسنتهم عندما يأتي من يُذكِّرهم بتنكُّبِهم عن الطريق ، وهذا ما قاله لي كثير منهم في كثير من المناسبات .

ولكن ألا ترى ـ يا قارئي الكريم ـ أن هذا الاعتذار ـ الذي يأتي بلسان الحال أو بلسان المقال ـ إنما هو في الحقيقة تطاول إلى تصحيح النهج الذي قضى وأَمر به الله ؟ إن المضمون الذي يختفي وراء هذا الاعتذار ، ليس إلا قراراً تصحيحياً لما أمر الله به عباده ولما تعهد لهم به ، ثم للسلوك التطبيقي الذي لبى من خلاله الصحابة رضي الله عنهم أمر الله ، وللعهد الذي أنجزه الله لهم لقاء ذلك ، وإن هذا القرار التصحيحي لينطق قائلاً : خير من سلوك هذا الطريق الطويل إلى نشر دين الله في الأرض ، وبسط سلطانه على النفوس والبلاد ، عن طريق دعوة الناس ومحاورتهم فرداً فرداً ، أن نقفز إلى كراسي الحكم فنتبوأها ، فنفرض سلطان الإسلام على الناس من هناك شرعة ومنهاجاً ، والحكم الذي سيحققه الله لنا ، باتباع هذا المنهج الطويل ، من حيث لا نحتسب ، بوسعنا أن نناله الآن ، بسلوك الأسباب والوسائل التي يسلكها غيرنا ، من حيث ندري ونحتسب ! .

هذه هي مأساة العمل الإسلامي الذي تحول إلى جهد خائب

وسعي ضائع ، وأخفى عن كثير من الأذهان الحقيقة العلوية المشرقة للإسلام ، ثم أبرز له صورة زائفة أُخرى ما هو منها في شيء تبعث على الاستيحاش والنفور منه ، بل ربما بعثت على الارتياب في مصدره وحقيقته .

غير أنا لا بدَّ أن نستثني قلَّة من المسلمين الإسلاميين يسلكون سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه في سكينة وهدوء ، يُبلِّغون عن الله كما كانوا يُبلَّغون ، ويَلْقون بالدعوة إليه فلول التائهين والشاردين والفاسقين في حوار ليِّن مشفق كما كانوا يفعلون ، وقد تركوا النتائج التي تكفَّل لهم بها الله لمشيئته وحكمته .

فإن ضجيج هذه الجماعات الإسلامية التي تنكَّبت عن تعاليم القرآن ، ثم ابتعدت عن النموذج التطبيقي لهذه التعاليم في حياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، لم يُبقِ فرصة في الآذان التي تسمع أو للأبصار التي ترى ، للتنبه إلى وجود خطوط أو خطوات أخرى سليمة عن أي اعوجاج ، تنهج منهج كتاب الله وتتعقب خطوات رسول الله ﷺ ثم صحابته البررة الكرام رضي الله عنهم . . ، ذلك لأن قلة أصحاب هذا الخط ، وابتعادهم عن الأضواء إلى الظل ، وعن الضجيج إلى الهدوء ، من شأنه أن يدع الساحة البارزة الكبرى لا تفور إلا بهذا النهج الثوري الأرعن ، ومن ثم فهو وحده الذي يقع تحت أشعة الأضواء الإعلامية التي يستغلها ويتاجر بها الأعداء العالميون لهذا الدين ، وإنهم ليقطفون اليوم من ثمار ما يجري على هذه الساحة ما لم يكونوا يرجونه ولم يخطر منهم على بال .

أجل ، هذه هي مأساة العمل الإسلامي ، في أبرز ما يتجلى على الساحة الإسلامية ، ولكن ما هو مصدر الأخطاء التي أورثت هذه المأساة ، والتي يقطف اليوم منها ، الأعداء العالميون لهذا الدين ، أشهى النتائج والثمار ؟ إن مصدر الأخطاء كلها ، يتمثل في العدوى التي سرت إلى الجماعات الإسلامية من واقع المذاهب والأنظمة الوضعية ، والاتجاهات السياسية والثورية التي يسلكها قادة هذه المذاهب ودعاتها ، لفرض مذاهبهم وأنظمتهم على المجتمع .

ومن المعلوم أن هناك قاسماً مشتركاً بين الإسلام والمذاهب الوضعية ، ولكن بينهما فارقاً أساسياً كبيراً في الوقت ذاته .

أما القاسم المشترك ، فيتمثَّل في أنَّ كلاً منهما يُقدِّم مشروع نظام ، يفترض أنه الأفضل والأكثر استجابة لحاجات الإنسان ومصالحه .

وأما الفارق الأساسي الكبير ، فيتمثل في أن النظام الإسلامي يأتي ثَمرة دَيْنُونَة الإنسان لله ، وإيمانه الطوعي بوجوده ووحدانيته ، وثقته بعدله ورحمته ، ومن ثم فهو لا يطمئن إلى حكمٍ غير حكمه ولا يثق بنظامٍ يصلح لمعاشه ومعاده غير نظامه ، أما الأنظمة والمذاهب الوضعية فهي ثمرة رؤى وأفكار بشرية ، تبناها أصحابها بدافع مزيج من الاجتهادات التي اقتنعوا بها ، والأغراض التي استهوتهم ، والعصبيات التي أسرتهم ؛ ومن هنا لم يكن لها من سبيل إلى الأفئدة والعقول ، تقديساً لها وإيماناً بها ؛ إذ الناس مهما اختلفوا في الأعراق وتمايزوا في الثقافات والمدارك ، تجمعهم مشاعر النّدّية المتكافئة ، وتُفرِّق بعضَهم عن بعض مصالحُهم المتخالفة ، وأهواؤهم وأمزجتهم

المتعارضة . فهيهات أن تسري آراء ثلة من الناس إلى عقول الآخرين من أمثالهم ، من خلال قناة التقديس والإذعان ؛ وهي مجردُ آراءٍ أُخْرِجت للناس .

ولما كان أصحاب كل مذهب حريصين على أن يكون مذهبهم هو السائد بين الناس ، وهو المعمول به في المجتمعات ، كان لا بدَّ لهم من سلوك السبيل الوحيد الذي لا ثاني له ولا غِنى عنه ، ألا وهو سبيل الفرض والإلزام . وللناس بعد ذلك أن يعتقدوا أو لا يعتقدوا بجدوى نظامهم وفائدته. . . وليس من سبيل إلى الفرض والإلزام إلا الوصول إلى الحكم ، ثم استعمال السلطة التنفيذية من هناك .

ويتلخَّص هذا الفرق في أن بلوغ الحكم في سُلَّم العمل الإسلامي ، نتيجة وثمرة للقناعات الإسلامية الحقيقية ، إذ تنتشر في عقول الناس وأفئدتهم ، على حين أن بلوغ الحكم في سُلَّم الأنشطة التي يُمارسها قادة المذاهب والنظم الوضعية ، هو المفتاح الذي لا بدَّ منه لبسط أنظمتهم ومذاهبهم التي يَدْعون إليها .

نعود إلى المصدر الأول للأخطاء التي وقع فيها جُلُّ الجماعات الإسلامية اليوم ، وقد قلنا إنه سريان عدوى هذه الأنظمة الوضعية إليها .

أجلْ ، فقد نظر قادة هذه الجماعات إلى قادة الأحزاب والمذاهب الوضعية ، ورأوا كيف يتَّجِهون إلى كراسي الحكم عن طريق الدخول في المعتركات السياسية ، أو اقتحام الطُّرق الثورية ، وما هي إلا بضع محاولات على هذه الساحة أو تلك ، وإذا هم متربِّعون فوق عروش

الحكم ، وإذا بأنظمتهم وأفكارهم تنبسط في المجتمع دون أي مُشاغِبٍ أو مُعارِض ! فما هو إلا أن استهوتهم ـ أي استهوت الإسلاميين ـ هذه السرعة الخاطفة في نجاح تلك المنظَّمات أو الأحزاب في فرض سلطانهم ، ومن ثم فرض أفكارهم وأنظمتهم على الناس . وأخذت العدوى تفعل فعلها في أفكارهم ، بل في نفوسهم :

لماذا لا نسلك مسالك هؤلاء الناس ؟ . . . إنهم يحملون إلى الناس أفكاراً وأنظمة بشرية تافهة ، ونحن نحمل إليهم الإسلام ، ألسنا أَوْلى منهم بالتَّوجُّه إلى كراسي الحكم ، والتحكم بمقاليده ، سواء أُتيح لنا ذلك بالاشتراك في المعتركات السياسية أم باقتحام الطرق الثورية ؟! . . ولئن كان قدر الناس في هذا العصر أن تُفْرض المذاهب عليهم بالقوة ، فلنكن السَّبَّاقين إلى ذلك ، وليكن المذهب المفروض عليهم هو الإسلام ! .

وفي غمار هذه المحاكمة أو المراوضة الفكرية التي فرضتها العدوى ، نَسِيَ قادةُ العمل الإسلامي أن الإسلام الذي يدعون إليه وينهضون بخدمته إنما هو دين واعتقاد قبل كلِّ شيءٍ ، والدِّين إنما يسري إلى العقول عن طريق القناعة واليقين ، وإنما سبيله الدعوة والحوار والإقناع ، أما ما فيه من شرعة ونظام ، فنتائج طبيعية لدينونة العقل والقلب لألوهية الله وسلطانه ، ولو أن إحدى دول البغي والكفر في الأرض أُعجبت من الإسلام بشرعته ونظامه ، فاتخذت من شرائعه وأحكامه بديلاً عن نظامها الذي كان سائداً ، لما أدخلها ذلك في حظيرة الإسلام من حيث إنه دين يستجيب به الإنسان لأمر الله ويمارس

من خلاله العبودية لله ، وليس بين شريعة الإسلام والنظام الذي كان سائداً من قبله في هذه الحال أي فرق .

ولكن قادة الجماعات الإسلامية نسوا في غمار هذه المراوضة الفكرية تحت سلطان تلك العدوى ، هذه الحقيقة التي هي من البداهة بمكان ، واستهوتهم مغامرات رؤساء المنظمات والأحزاب ، فأعرضوا عن مهام الدعوة إلى عقائد الإسلام عن طريق التربية والحوار ، ثم تفرغوا هم الآخرون للدخول في المعتركات السياسية ، أو اتجهوا إلى رسم الخطط الانقلابية والثورية .

وهكذا تحوَّل هؤلاء الذين عرَّفوا الناس على أنفسهم دعاةً إلى الله وخداماً لدين الله ، إلى طلابِ حُكْم ينتجعونه في ساحة العمل السياسي ، أو يطرقون أبوابه من خلال المغامرات الثورية .

وبوسعك أن تتبين عندئذٍ سلسلة الأخطاء والانحرافات الفرعية التي لا بدَّ من الوقوع فيها نتيجة هذا الخطأ الكبير القَتَّال .

ولست أدري هل أنا بحاجة إلى عدِّ هذه الأخطاء التي لا أحسب أن فينا من لا يتبينها ، أو لا يعلم ضرر الوقوع فيها ، بعد الاستسلام لهذه العدوى الخطيرة التي تحدثنا عنها .

ومع ذلك فلنزد هذه الحقيقة الواضحة وضوحاً بِعَدِّ بعضٍ من الأخطاء :

أولاً : أفرض أنني أنا المتورط في هذه العدوى المهلكة والعياذ بالله ، إنني عندما أقرر الدخول في المعترك السياسي ابتغاء الوصول

إلى الحكم ، لا بدَّ من أن يكون وجودي الغالب في المناخ الملائم لهذا المعترك ، ولا بدَّ أن يتجه جلُّ نشاطي الفكري والسلوكي إلى رسم الخطط والأساليب المتكفلة بالوصول إلى هذا الهدف ، والشأن في ذلك أن يبدد صفائي الروحي ، وأن يورثني مع الأيام قسوة القلب واضطراباً في النفس ، وأن يمدَّ غاشية من الضباب على مشاعر عبوديتي لله ، ومشاعر ثقتي به وتعظيمي له ومراقبتي إياه .

ولا بدَّ أن يؤثر هذا الحال في تبديد معظم ما أتمتع به من عدَّة على طريق الدعوة إلى الله وخدمة دينه ، يعلم هذا كل من كان معافى ، ثم زجَّ نفسه في هذا المناخ وابتُلي بهذه الحال .

ثانياً : إن دخولي في هذا المعترك ، يضعني وجهاً لوجه أمام محاور سياسية متعددة ، ويفرض عليَّ الانجذاب إلى فلك واحد منها ، ومن ثم التحرك لحسابها . . ، إن من المستحيل أن أزجَّ نفسي في ساحة العمل السياسي ، قائداً لجماعة تتبع سيري وتنقاد لإشارتي ، دون أن أتحالف مع هذا الفريق أو ذاك ، ذلك لأن النشاط السياسي الذي يَطرق أبواب الحكم ، لا يمكن أن يتحرك في فراغ . . ، إذ هو مُحاط بتيارات متخالفة ، بل متصارعة شتى ، ولن يكون لاستقلال صاحب هذا النشاط عنها إلا معنى واحد ، هو اتخاذ موقف المعاداة لها ، ومن ثم فلسوف تلتقي هذه التيارات كلها ، على اختلافها ، على التربص به والكيد له . والنتيجة التي لا مناص منها ، هي أن تضيع وتستهلك قواه وسط تألُّب تلك التيارات وفي ضرام عدوانها .

ذلك هو شأن الدخول في المعتركات السياسية ، لا بدَّ فيه من أحد مصيرين :

ـ إمَّا الانحياز والتحالف مع أحد محاورها .

ـ وإِمَّا الاستقلال عنها جميعاً وهو ما يعني تأَلُّب الأطراف والمحاور كلها على صاحب هذا الاستقلال بالعدوان والقهر .

ثالثاً : في غمار هذا التوجيه ، وتحت تأثير هذه التيارات المتصارعة ، وما يكتنفها من ضجيج وتوقعات ومفاجآت ، لا بدَّ من أن أتجرد عن عملي مُبلِّغاً عن الله ومُعرِّفاً بدينه داعياً إلى صراطه ، وأن أتحول إلى مخاصم في شؤون السياسة ، مجاهد في سبيل بلوغ الحكم ، مفكرٍ في الوسائل التي يجب أن أتخذها للتغلب على الخصوم .

ولا تنسَ أنني أضرب المثل في كل ذلك بنفسي ، مفترضاً أنني أمير جماعة إسلامية أو واحد من أفرادها ، فلا جرم أن هذه هي الحال التي سيكون عليها أتباعي أو سائر زملائي وإخواني .

إذن ، فقد تقاعدت الطائفة التي تسامت ذات يوم إلى مستوى الوصية الربانية القائلة : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة : ١٢٢] . عن شرف التفقُّه في الدين والتوجُّه به إلى عامة الناس معلمين ومبشرين ومنذرين . واستعاضت عن ذلك بهذا الذي أقحمت نفسها فيه .

هذا ، والناس الذين من حولي ـ كلهم أو جلهم ـ جاهلون بالدِّين

ينتظرون من يبصرونهم به ويحببونه إليهم ، تائهون مُتنكِّبون عن صراط الله عزَّ وجلَّ ، ينتظرون من يأخذوا بأيديهم ، قد أحاطت بهم شياطين من الإنس والجن ، باسم التبشير أو التنوير أو التثقيف ، يشوهون لهم حقائق الإسلام ، ويعكرون من صفوه ، ويبعثون في نفوسهم ـ بكلِّ ما يملكون ـ دواعي الاشمئزاز منه .

الدعوة التخريبية قائمة على كلِّ قدمٍ وساق ، والإسلاميون الدعاة إلى الله في شُغل شاغل عن مقاومة التخريب بالبناء ، وعن النهوض بما أقاموا أنفسهم فيه من مهام الدعوة إلى الله وتبليغ كلمات الله وأحكامه .

فكيف يكون عمل هؤلاء الناس ـ وهذه هي الحال ـ جهاداً في سبيل الله ؟

بل كيف لا نكون مؤاخذين عند الله يوم القيامة على هذا التشاغل والإعراض ؟

وكيف لا نتحمل أوزار هؤلاء الشاردين والتائهين الذين شُغلنا عن نصحهم وإرشادهم ودعوتهم إلى الله ، بانصرافنا إلى ساحة المعتركات السياسية ، وتطلعنا إلى بلوغ كراسي القيادة والحُكْم ، ومناصبة الحكام في سبيل ذلك فنون العداء ؟

ولكن ما هي الحجة التي يعود بها هؤلاء الإخوة الذين يأبون إلاَّ الإعراض عن مبدأ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] والإقبال بدلاً عنه إلى شعار : « أَمْسِكْ بناصية الحُكم ولا تُبالِ من أي طريق وصلت » ؟

حجَّتُهم هي القول بأن أقصر طريق إلى تطبيق مبادىء الإسلام وأحكامه ، هو فرضها على الناس بالقوة ، والطريق الوحيد إلى فرضها بالقوة هو بلوغ الحكم .

وأقول في الجواب : أَرَأَيْت إلى ما قد ذكرناه آنفاً من العدوى التي سرت إلى كثير من الحركات والجماعات الإسلامية ، من واقع حال الأحزاب والمذاهب الفكرية والسياسية الأخرى ؟ إن ما قلناه آنذاك يتضمن نصف البيان لخطأ هذا التَّصوُّر وبُعْدِه الكبير عن الإسلام واستعصائه على الواقع والتنفيذ .

أما بيان النصف الثاني فنوجزه فيما يلي :

إن سدى ولحمة المجتمع الإسلامي المنشود ، إنما يتمثلان في أفراده ، وما حُكَّامه إلا فئة من هؤلاء الأفراد ، ومن ثم فإن وجود المجتمع الإسلامي لا يعني أكثر من صلاح أفراده واستقامتهم على صراط الله عن بصيرةٍ ووعي .

فإن لم يصلح هؤلاء الأفراد ، بل ظلوا ـ كما هي الحال الآن ـ بين شارد ومرتاب وضالٍّ وفاسقٍ ومُلْحدٍ ، إلا من رحم ربك ، فهيهات أن يتحقَّق أو يتألَّف المجتمع الإسلامي ، من إطار يجمعهم ، أو من مجرد اجتماعهم تحت مظلة حكومة مسلمة تنادي بالإسلام وتقتنع بتطبيق شرائعه وأحكامه .

أرأيت إلى فئات شتى من اللصوص ، إنَّ تحولهم إلى جيش نظامي من اللصوص تحت قيادة راشدة ، لا يمكن أن يجعل منهم ملائكة

مطهَّرين أو بشراً مُنزَّهين ، بل إن حقيقة السوء التي كانت متناثرة في أفرادهم ، تتحول تحت سلطان هذا التجمع والتلاقي إلى تيار متلاطم من السوء ! .

أوليس هذا الذي أقوله من الوضوح بمكان ؟ بل أَفَيوجد في الناس من يرتاب فيه دون مكابرة أو عناد ؟ وهل الحكم وسلطانه إلا حزام ضبط وتجميع ؟ ومتى كان الضبط والتجميع يغنيان عن تزكية النفس وتطهيرها من الزغل والآفات ؟ وإن في ذاكرتي لصوراً كثيرة لرجال إسلاميين قفزوا إلى كراسي الحكم وأمسكوا بنواصيه ، متجاوزين واجب التربية والدعوة والإقناع بالحجج العلمية والثقافية ، فلم يتأتَّ منهم أن يُصْلِحوا أيَّ فسادٍ أو يُقَوِّموا أي اعوجاج ، ولم يفيدوا الإسلام بتربعهم على كراسي المسؤولية والحكم إلا ما أوهمته أجهزة الإعلام المعادية ، وأدخلته في قناعة كثير من الناس ؛ من أن الإسلام برهن على عجزه عن القيام بأي إصلاح ! . فها هم أولاء رجاله يحكمون ، وها هو ذا الفساد الذي كانوا يتأَفَّفون منه باقٍ كما هو ! .

إنه لأيسر في سبيل الإصلاح وتقويم الاعوجاج وبسط فاعلية الإسلام ، أن تطمع بعقل الحاكم وفؤاده ، فتقول له ـ كما تقول لغيره ـ بمنطق القرآن : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات : ١٨ـ١٩] أجل أيسر من أن تطمع بكرسيه ، فتقول له بمنطق النفس المتوثبة إلى المغانم : هل لك إلى أن تتحوَّل عن هذا الكرسي لآخذ محلك فيه ؟

ما الذي يضرُّ الإسلام ويسوؤه ألا تكون أنت الحاكم في الأمة ، إذا

كانت التزكية النفسية والهداية العقلية قد حلَّ كلٌّ منهما محلَّه من كيان الحاكم وأفئدة الناس ؟

وما الذي يفيد الإسلام وينفعه إذا كنت أنت الحاكم ، وكان الفساد مستشرياً في النفوس ، والضلالة مهيمنة على العقول ؟

وإذا كان الجواب واضحاً ، فما لك لا تتجه إلى الناس كلهم ـ شعوباً وقادة ـ بالتضحية والإرشاد والسعي إلى تزكية النفوس وتصعيدها إلى مستوى الحب لله والانتعاش بدين الله ؟ علماً بأنك تنفذ بهذا أمر إلهك الذي أنهضك إلى هذه الوظيفة وشرفك بها ، وتنال بذلك أجراً لا ينال مثله إلا كبار الربانيين ، وسيضع الله في كلامك سرَّ الهداية والقبول ، فيتحقق لدى الحاكم الإسلام العملي الذي تريد ، وينقاد الناس إلى الحكم الإسلامي الذي تنشده وتنادي به ! .

إن كان الْمُبتغى هو قيام المجتمع الإسلامي فعلاً ، فهذا هو وحده السبيل ، وهو الضمانة التي لا بديل عنها .

أما إن كان الْمُبتغى منافسة الآخرين على الحكم ، ومخاصمتهم في سبيله ، فما لهؤلاء الناس لا يُعلِنون إذاً عن قصدهم هذا ؟ وإنه لقَصْدٌ طبيعي لن يُجرِّمهم من أجله أحد . كل ما في الأمر أننا نستذكر في هذا قول رسول الله ﷺ : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »(١) .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب من هاجر أو عمل خيراً لتزويج غمرأة فله ما نوىٰ ، برقم : (٤٧٨٣) ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال لي أحدهم ـ وكان الحديث عن الجزائر ، وكنت أُذكِّر بالنهج الإسلامي الصحيح في السعي إلى خدمة الإسلام ، وأُحَذِّر من الاستمرار في هذا الخطأ القتّال ، والمتمثِّل في الإعراض عن الإسلام شُغلاً بمخاصمة الحكام ومنافستهم على كراسي الحكم ـ قال لي : إنك تتحدَّثُ دائماً عن خطأ هؤلاء الإسلاميين ، ولا تتحدَّث عن الجريمة التي ارتكبها الحكّام الجزائريون ، إذ اغتصبوا منهم حقَّهم الذي وصلوا إليه بالطرق القانونية والديمقراطية المعتمدة ! .

قلت له : لو علمتُ أن الذين اغتُصب منهم هذا الحق ، هم طُلاب حكم ومحترفو عمل سياسي ، إذن لاختلف الموضوع . وإذن لكان بوسعي أن أعلن عن استعدادي لدفاع قانوني عنهم ، كما يدافع أيُّ محامٍ عن طرفٍ وقَعَت عليه الظُّلامة في تجارةٍ بمالٍ ، أو في مغنمٍ سياسي ، أو في حقٍّ مُكتسب بممارسة حكم ، بقطع النَّظر عن أثر ذلك على الإسلام سلباً أو إيجاباً . وعليهم في هذه الحال ألا يجعلوا من الإسلام متكأً لدعم حقِّهم ، أو سلاحاً للطعن في خصومهم ، وليسعهم أن يتحرَّكوا كغيرهم في الدِّفاع عن حقِّهم الذي لا يُنكر ، داخل ساحة الأنظمة الديمقراطية والحقوق الدستورية ، ولسوف يَجدون من ذلك خير لسان مدافع عنهم وأفضل قوة تناضل عن حقوقهم . ولكن بوصف كونهم ساسة ابتغوا لأنفسهم سبيلاً إلى القيادة والحكم ، شأنهم في ذلك شأن عامة السياسيين الْمُحترفين من ذوي الهواية في المناصب السياسية لا أكثر .

ثم قلت : إلا أن هؤلاء الإخوة إنما يؤكدون للعالم كله أنهم قد

جندوا أنفسهم وسائر إمكاناتهم لخدمة الإسلام وإقامة حكمه ، ويجزمون بأن سعيهم إلى الحكم إنما يأتي على طريق خدمتهم للإسلام ورفع شأنه وإقامة دولته .

إذن لا بدَّ أن يختلف هنا حديثنا لهم ، لا بدَّ أن نقول لهم ، انطلاقاً من هذه الهوية التي يُعَرِّفُون العالم على أنفسهم من خلالها : إن عليكم في هذه الحال أن تُضَحُّوا بحقِّكم الذي كان ينبغي أن تنالوه من الوصول إلى القيادة والحكم ، في سبيل الإسلام الذي تقولون إنكم حماته وجنوده ، لا أن تُضَحُّوا بالإسلام وتجعلوا منه وقوداً في ضرام هذه الفتنة ، في سبيل أن تنالوا حقوقكم التي اغتصبت فعلاً منكم ! .

وعندما ننظر فنجد ـ على الرغم من هذا التركيز المنطقي الواضح ـ أن دوافع الثأر النفسي والانتقام للذات ، هي التي تُحرِّك هؤلاء الإخوة فيما يُقْدِمون عليه من اقتحامات ومغامرات ، أياً كانت ومهما قيل في وصفها ، ونرى بأم أعيننا كيف أن الإسلام هو الذي يُنالُ منه ويُنْتَقَصُ من شأْنِه ، وتَتراجَعُ قواه وفاعليتُه في ذلك الضِّرام ؛ عندئذ لا تغدو المشكلة الحقيقية أن الفرصة في وصول جماعة من المسلمين إلى الحكم قد أهدرت أو اغتصبت ، وإنما المشكلة المصيرية القاتلة أن الإسلام هو الذي يذهب ضحية الطرفين ويتمزَّق تحت السنابك ! .

ومن ثمَّ ، فلا معنى لتوجِّهنا إلى مغتصبي الحقِّ كي يُنْصِفوا خصومهم الذين يدَّعون أنَّهم جنود لخدمة الإسلام ، وتقديم أنفسهم قرابين رخيصة له ، وإنما الواجب الذي يهيب بنا وبكل مسلم ، هو التَّوجُّه إلى حلِّ هذه المشكلة الخطيرة القاتلة ، وذلك بأن نناشد جنود

الإسلام وحماته ، أن يشفقوا على الإسلام الذي ينسحق ويذوب وسط ما يُشْعِلونه من ضِرام .

غير أن المصيبة الكبرى التي لا تنزل هي الأخرى إلا برأس الإسلام ، أن الدوافع المهتاجة في نفوس هؤلاء الإخوة إلى الثأر والانتقام ، تقصيهم عن تفهُّم هذا الكلام والالتفات إليه ، وتستثيرهم في رعونةٍ غاضِبَةٍ للإنكار علينا ولاتِّهامنا بالتحيُّز إلى الغاصبين الذين استلَبوا حقوقهم في بلوغ الحكم وامتلاك أَزِمَّتِه .

إذن لم تَعُد الرغبة في الحكم وسيلة لخدمة الإسلام ، وإنما غدا الإسلام وسيلة لبلوغ الحكم ، ومن ثَمَّ فلا حرج أنْ يُمزَّق الإسلام كلَّ مُمزَّقٍ في هذا الضرام أملاً في قهر الخصوم الذين يصدون عن بلوغ هذه الأمنية الذهبية ؛ وبالمقابل ، فلا يجوز أَبداً إنهاء هذه الفتنة وإخماد هذا الضِّرام ، مهما رأينا بأُمِّ أَعيننا أنَّ الإسلام هو الوقود الأول الذي يلتهب عليه هذا الضِّرام .

ومن المؤسف أن الغرب الذي أعلن في السنوات الأخيرة ، حربه ضد الإسلام ، قد درس هذا الواقع المؤلم ، وأمسك بهذه المشكلة القاتلة ورقةً رابحة يحاول أن يلعب بها في كل صِقْع ، وها هو ذا ينفخ في نيران هذا الضِّرام ما وسع ذلك ؛ وإنه ليشعر بنشوة ما مثلها نشوة ، أنْ رأى المناخ الإسلامي أمامه صالحاً ومهيأً لضرب الإسلام بمن يسمون أنفسهم جنوداً للإسلام ! .

نشرت مجلة « foreign affairs » الصادرة عن وزارة الخارجية الأمريكية ولسان حالها ، في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٩٢م

مقالاً عن خطر الإسلام على العالم الغربي ، والسبل التي يجب أن تتخذ لشل فاعليته والقضاء على خطره ، والسبيل ـ فيما صرح به كاتب المقال ـ هو تقطيع جسور الثِّقة بين الدول العربية خاصة والإسلامية عامة ، للقضاء على بقايا ما قد يشيع بينها من روح التعاون والتضامن ، ثم استثارة أسباب الاضطرابات والقلاقل داخل كل منها على حدة ، والاستفادة مما هو جارٍ الآن من خروج كثير من الجماعات الإسلامية على حكامها ، وتألُّب حُكَّامِهم عليهم ، وبذلك تتمزق فاعلية الإسلام في ما بينهم عن طريق التآكل الذاتي ، وتبتعد فرص الاستقرار التي هي الأساس الذي لا بُدَّ منه للنمو الاقتصادي ولاستغلال ما قد تملكه من قدرات وثروات ! .

ومصيبة المصائب في نظري أن أجد ـ بعد هذا الحق الذي لا يتيه عاقل عن تبينه ورؤيته ـ من يضيق ذرعاً بهذا الذي أقول ، ويتمنى أن أشغل نفسي وقرائي بأي موضوع آخر نتسلى به ! .

ولكن قل لي : كيف يتأَتَّى أن يكون الإنسان مسلماً صادقاً مع الله في إسلامه ، ثم يرى هذا الخطأ القتّال الذي انجرف فيه بعض الإخوة باسم الإسلام ، ثم يرى بعينه أثره السريع في شلِّ فاعلية الإسلام ، وهدْرِ كلِّ مُكتسبات ما سميناه يوماً ما بالصحوة الإسلامية ، ثم يرى ويسمع خطط الأيدي الخفية التي تتَّجِه مسرعة لاستغلال هذا الخطأ واستثماره ، ثم يُعْرِض عن ذلك كلِّه ، ساكتاً غير مبالٍ بشيءٍ من وارد الأمر أو صادره أو نتائجه المخفية المقبلة ؟

بل قل لي : كيف يتأَتَّى منك ـ وأنت مسلمٌ صادقٌ مع الله ـ أن تجد

أصحاب الخطط الخفية يستغلُّون هذا الخطأ ويستثمرونه لحسابهم ، ثم لا يُنهضك إسلامك لسعيٍ ما إلى إصلاح هذا الخطأ ؟

أنا لا أُنْكِر أنَّ لكثيرٍ من الحكَّام دوراً في استثارة الإسلاميين وتهييجهم ـ بقصد أو بدون قصد ـ إلى كثير من التصرُّفات التي يقومون بها اليوم ، بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم يُؤدُّون في ذلك دوراً قد عُهِد به إليهم وطُلِب منهم ، ولكن أفَيكون ذلك عُذراً لتحرُّر هؤلاء الشباب عن الانضباط بالمنهج الإسلامي وقيوده وأَحكامه ، وللارتماء بدلاً عن ذلك وسط تيارات ردود الفعل الجارفة ؟

بعض الإخوة الدُّعاة أو المفكِّرين ، يعطونهم هذا العذر ! ولكن هذا العذر لو جاز إعطاؤه لعامة الناس أو المسلمين ، فلا يجوز أن يُعطى لمن يسمُّون أنفسهم مجاهدين في سبيل الله عزَّ وجلَّ . وهل الجهاد إلا بذلُ الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله ؟ وأي بَذْلٍ للجهد يبقى عند من لا يصبر على الاستثارة التي يُبْتَغى منها إبعادُه عن الانضباط بكوابح الإسلام وأحكامه ، ثم زَجُّه في ردود فعلٍ من شأْنها أن تأْتي بنقيض ما قد جنَّد نفسَه في سبيله ؟

هما أحد أمرين :

ـ إمَّا أَنْ يُعذر هؤلاء ، إذن يجب إبعاد سِمَة الدعوة والجهاد في سبيل الله عنهم .

ـ وإمَّا أَنْ نُصدِّق أنَّهم فعلاً دُعاةٌ إلى الله ومجاهدون في سبيله ، إذن فلا يجوز أن يُعذَروا في الانجرار إلى هذا الخطأ القتّال .

وصفوة القول أنه يجب فك الاشتباك بين الإسلاميين وحكَّام بلادهم ، حيثما وُجِد نوعٌ من هذا الاشتباك ، والسبيل الطبيعي إلى ذلك أن يتعاون الطرفان لتحقيق هذه الغاية التي ستأتي بخير كبير للجميع .

ولكن إن لم يشأ الحكَّام أن يمارسوا إلى ذلك أيَّ دورٍ تعاوني جاد ، فإن السبيل إلى ذلك يصبح من مهمة وواجب الإسلاميين وحدهم ، ومهما كانت حظوظ النفس البشرية تتأَبَّى ذلك وتثور عليه ، فإنَّ شأْنَ المجاهد الصابر والمصابر في سبيل الله هو التَّرَفُّع فوق حظوظ النفس وقهر أهوائها ولواعجها ، في سبيل حماية المدَّ الإسلامي مما قد يراد به ، ومن ثم في سبيل بلوغ رضا الله عزَّ وجلَّ .

فإن سأل منهم سائل : ولكن فما البديل من مجابهة الحكام لإزاحتهم واتخاذ أماكنهم ؟

قلنا في الجواب : وهل كانت هذه المجابهة يوماً ما خطوة جهادية في سبيل الله ، حتى تبحثوا لها عن بديل ؟ لقد أوضحنا بما لا يدع مجالاً للريب أنها مجرد استجابة لحظ نفسي ، واستجابة ساذجة لكيد خفي ، فالتحول عنها تصحيح لخطأ ، والابتعاد عن الخطأ لا يحتاج إلى الاشتغال ببديل .

ولكن نقول لهؤلاء الإخوة : دعوا هذه المجابهة الخاطئة التي أَقْصَتْكُم عن مهمتكم الجهادية فعلاً ، لتعودوا إلى شرف النهوض بها ، بعد أن طال بكم البعد عنها .

دعوا استثارة الحكام التي طالما شغلتكم عن شرف الدعوة إلى الله ، وإدخالِ حُبِّ الإسلام إلى قلوب عباد الله ، وانعطفوا سِراعاً عائدين إلى هذه المحاريب التي لا أجلّ ولا أرضى منها لله عزَّ وجلّ ، وليكُن شعار هذه العودة نداءً صادراً من القلب : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه : ٨٤] .

فإِنْ أبى هؤلاء الإخوة إلا مُضيَّاً في هذا الاشتباك ، وانصياعاً لنداء الثأْر ، واستجابةً لحظوظ النفس ، مهما بقيت ساحات الدعوة إلى الله والتعريف بدينه فارغة مهجورة ، فليعلموا أنَّهم ـ عدا عن كونهم خالفوا أمر الله وهديه ـ لن يصلوا إلاَّ إلى نتيجة واحدة ، هي أن يجعلوا من هذه البلاد مَغْرِباً للإسلام بعد أن كانت مَشْرقاً له .

ولكن ذلك لا يعني أن تختفي شمس الإسلام من هذه البقعة في مغرب لا شروق لها من بعده ، بل ستختفي من جراء هذه الأخطاء هنا ، لتشرق هناك ، في أماكن من الغرب نائية ، بفعل جهاد خفيٍّ هادىء من الدعوة الْمُتحرِّقة إلى دين الله هناك، ينهض بها نساءٌ ورجالٌ كانوا بالأمس القريب ضائعين عن هوياتهم، شاردين عن ربوبية مولاهم وخالقهم، غارقين في يَمٍّ آسِنٍ من الشهوات والأهواء الْمُشْقيَة .

ها هم أولاء ، وقد انتشرت أشعة دعوتهم إلى الله والتعريف بدينه في الفجاج التي يقيمون فيها أو التي يرحلون إليها ، يعيدون فيما ينهضون به من هذا الواجب الجهادي سيرة أصحاب رسول الله ﷺ مَظْهراً ومضموناً . إنَّهم لا يلتفتون إلى واقع حكم غير إسلامي يُظِلُّهم ، ولا يعبؤون بنظام إلحاديٍ غريبٍ عن معتقداتهم وأمانيهم

والتزاماتهم ، وإنما ينصرفون بكل ما يملكون من جهد إلى استنبات البديل الذي سيحلُّ محلَّ هذا الحكم ، وسيُحوّل اتِّجاه هذا النظام ، إن آجلاً أو عاجلاً .

إنهم ينصرفون إلى هداية العقول وتزكية النفوس ، بدءاً بالأقارب والأرحام ، إلى الجيران والأصدقاء ، بصبرٍ منقطع النظير وحلمٍ لا نهاية له .

أجل ، تلك هي المهمة التي ينهض بها اليوم كل فتىً أو فتاة هُدِيت ، في ربوع الغرب ، إلى دين الله عزَّ وجلَّ . والعجيب أنهم لا يحتاجون إلى من يُبصِّرهم بمَنْهَج الدعوة ، أو إلى من يُحذِّرهم من هذا التزييف الذي يُمارسه كثيرٌ من المسلمين باسمه ، وهي المشكلة التي نُصْدِرُ في بيانها المؤلفات ، ونُلْقي فيها المحاضرات ، ويمتد حولها الجدل المتطاول ، بل تراهم اتَّجهوا بحكم الفطرة الإيمانية التي شدَّتهم إلى الله وحرَّرتهم من أنفسهم وحظوظها ، إلى المنهج السديد في الدعوة إلى الله والذي ورثه الصحابة عن رسول الله ﷺ ، إنهم لا يُرْهِقون أفكارهم ساعةً واحدةً في نَسْجِ صورة الحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامي والتخطيط لهما ، وإنما يُرْهِقون أنفسهم ويبذلون كلَّ جُهودهم في أداء المهام والواجبات التي كلَّفهم الله بها ، وفي مقدمتها إبلاغ كلمات الله إلى العقول بعد الآذان ، والتعريف بالإسلام ومبادئه وأحكامه ، وهم يعلمون ـ دون الحاجة إلى أي جدل أو نقاش ـ أن القيام بهذه الواجبات هو ثمن ما سيكرمهم الله به من الحكم والمجتمع الإسلامي .

ودعني أختم هذا البحث بهذه الصورة النموذجية السامية للقيام بواجب الدعوة الإسلامية وخدمة دين الله ، بل للسبيل الحقيقي الذي لا بديل عنه إلى إقامة المجتمع الإسلامي ، ولسوء الحظ أو لحسن الحظ ، فإن بطل هذه الصورة النموذجية التي نبحث في بلادنا الإسلامية عنها ، فتاة بريطانية تعيش في لندن ، دخلت هذه الفتاة الإسلام ، وما إنْ أُشْرِب قلبُها حبَّه ، حتى بدأت تبذل كل ما تملك من جهد لإقناع أَخَويْها الشابين وأُختِها الصغرى باعتناق الحقِّ الذي عانقته ، وصبرت وصابرت في سبيل ذلك ، حتى كتب الله لهم الهداية واعتنقوا الإسلام والتزموا بأحكامه عن درايةٍ وحبٍّ .

واتَّجهتِ الفتاة الداعية عندئذٍ إلى أُمِّها تُعرِّفها بالإسلام وتدعوها إليه ، وصبرت وعانت في سبيل ذلك ما عانت ، ومرَّت سنوات دون أَنْ يُؤْتِيَ جهدها هذا بطائل ، ثم إِنَّ الأم مرضت مرضاً عضالاً ، أُدْخِلت على أثره المشفى ، وجلست الفتاة الداعية تسهر إلى جانب أمها لا لكي تقوم بواجب تمريضها فحسب ، بل لتواصل سعيها وجهادها لهداية أمها إلى الإسلام ، وقُبَيْل أن تصل الأم إلى الرَّمق الأخير أعلنت عن انشراحها للإسلام واستعدادها لاعتناقه ، فما كان من الفتاة إلا أَنِ اتَّصلت بالمركز الإسلامي في لندن ، تبحث عمن يأْتِي من المسلمين فيه فيشهد على إسلامها ، لتُعامَل بعد وفاتها معامَلَة المسلمين في أمور التجهيز ونحوه . وأجابها موظف السنترال الباكستاني بأنه لا يوجد أَحدٌ من المسلمين تلك الساعة في المركز . ولكن الفتاة ناشدته أن يأتي هو إذن ، للضرورة القصوى .

ولما وصل الموظف الباكستاني إلى المشفى ، كانت الأم قد انتهت من وضعها السيىء إلى سبات عميق ، وكانت ابنتها تجلس إلى جانبها ، وقد أَدْنَت فمَها من أُذنها وهي تُردِّد دون انقطاع : « أشهد أن لا إله إلا الله » ولم يكن من الرجل ـ عندما رأى هذا المشهد ـ سوى أن جلس هو الآخر في الجانب الثاني على سمع الأم التي تعاني من غيبوبة تامة : « أشهد أن لا إله إلا الله » ، وكانت الفتاة في كرب خانق من أن تموت أمها دون أن تتشهد شهادة الإسلام .

وفجأةً ، فتحت الأم عينيها ، ومدَّت الأصبع السبابة من يدِها اليُمنى قائلة بصوت مرتفع ـ وهي لا تعرف شيئاً من العربية ـ : « أشهد أن لا إله إلا الله » ، ثم تابعت تقول بالإنكليزية : « مرحباً بملائكة الله » وما هو إلا أن أسلمت الروح ! .

هذه اليقظة التي عاودت الأم قبل موتها بلحظات ، لم تكن إكراماً من الله لها ، بمقدار ما كانت إكراماً منه لابنتها ، التي ما فتئت تدعوها إلى الإسلام وتعرفها به في صحوتها وعافيتها ، ثم ظلَّت ـ دون انقطاع ـ تلقنها الشهادة وتهتف بكلمة الإسلام على أذنها في أثناء غيبوبتها .

لقد كانت تناشد الله بلسان حالها ، ألاَّ يدع أمها ترحل من هذه الحياة إلا وقد اعتنقت دينه وذاقت مثلها لذة معرفته ، فكان أن لبى الله السميع البصير منها هذه المناشدة ، وأيقظ أمها وهي في سياق الموت ، وأَنْطَقَها بما طيَّب خاطِرَ ابنتَها ، وبما بشَّرها أنَّ دعوتها إلى الله لم ولن تذهب سُدىً ، وإذا كان يعزُّ عليها ـ وهي الرحيمة بأُمِّها ـ ألَا يُكرمها اللهُ بمثل ما أكرمها به من سعادة معرفته والإيمان به ،

فإنَّ الله أرحمُ بها منها وأشدُّ إكراماً لها منها .

وزبدة القول في كل ما ذكرناه ، وفي المشهد الأخاذ الذي سقناه ، أنَّ الناس كُلَّما ازدادوا تراحماً ، ازداد الله بهم رحمة ، ولن يتراحم الناس بشيءٍ أجلَّ وأسمى من الدعوة إلى الله والتعريف بدين الله مع الصبر الجميل على ذلك .

* * *

هل يمكن إقامة المجتمع الإسلامي على منهج ثوري[١]

ازدادت الصلة ـ في الآونة الأخيرة ـ بين كلمتي « الثورة » و« الإسلام » . وظهر ـ لأول مرَّة ـ ربما شعار « الثورة الإسلامية » تعبيراً عن آمال إسلامية يتم السير نحوها ، أو تعريفاً بواقع فرض نفسه بشكل ما .

والسؤال الذي لا بدّ أن يتطارحه المسلمون فيما بينهم ، أو المسلم الحصيف مع نفسه هو :

هل يتفق مفهوم كلمة « الثورة » مع جوهر الدعوة الإسلامية ، أو مع حقيقة ما يسمى اليوم بالمجتمع الإسلامي ؟

ومعلوم أن « الثورة » في عرف السياسة الحديثة ، تعني أي تغيير جذري شامل ، يحدث في مسار الأنظمة السياسية أو الاجتماعية ، قفزاً فوق سُنَّة التطور والتدرج ، سواء تم ذلك بطريقة سلمية هادئة أو بعامل عنف وسفك دماء .

غير أن الواقع الذي رصده التاريخ ، بدءاً من الثورة الإنجليزية التي ظهرت عام (١٢١٥م) إلى الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م) فالثورات

---

(١) المصدر : كتاب « الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية » للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالىٰ .

الأخرى التي ظهرت هنا وهناك إلى يومنا هذا ، حُصِرَ معنى الثورة في السعي إلى التغيير الجذري بعامل العنف وإراقة الدماء . ولا شك أن هذه الأداة تفاوتت شدَّة واتِّساعاً ما بين ثورة وأخرى ، غير أنها ظلت سبيلاً أساسياً وقاسماً مشتركاً بينها جميعاً .

وهكذا ، فعلى الرغم من أن التصور النظري لا يمنع من أن تقوم ثورة يسلك بها أصحابها طريق السلم والأناة ، إلا أن الواقع لم يساعد هذا التصور يوماً ما على فرض نفسه في مجال التطبيق .

ولا ريب أن لهذا الواقع أسبابه التي لا يصعب التنبه لها ، غير أن الحديث عنها خارج عما نحن بصدده الآن ، لذا لا بدّ أن نتساءل : هل يتفق جوهر الإسلام بحدّ ذاته مع أي منهج ثوري « يقوم على الشدة والعنف » لإقامة المجتمع الإسلامي وتثبيته ؟

بوسعي أن أبادر فأقول : إن ما يسمى بالمجتمع الإسلامي لا يمكن أن يستقر اعتماداً على سبيل العنف وسفك الدماء ، وما سبق أن قام يوماً ما هذا المجتمع على مثل هذا الأساس .

ذلك لأن إشاعة أحكام الإسلام وآدابه في المجتمع ، إنما يأتي ثمرة لرسوخ جذوره الاعتقادية في الأفئدة والعقول ، وذلك هو مجمل الفارق الكبير بين النظم الإسلامية ، وسائر الأنظمة الاجتماعية أو السياسية الأخرى ، ذلك لأن هذه الأنظمة الأخرى لا تنمو اعتقاداً عن طريق المناهج التربوية المجردة ، وإنما تفرض نفسها بالوسائل المادية المختلفة حسب اختلاف أصحابها ، وربما كان العنف واحدة منها ، وإنما أداة ذلك على الأغلب ، سلوك سبيل العنف ، أما عندما تكون

هذه الأنظمة متساوقة مع رغبات الجميع ، متآلفة مع مصالحهم ، فلا داعي عندئذ للجوء إلى هذا السبيل .

أما نظام الإسلام ، فهو إنما ينهض على دعامة خفية تكمن في أغوار النفس الإنسانية ، ألا وهي استشعار معنى العبودية لله عز وجل ، واليقين بوجوده ورقابته للإنسان ، وبأنَّ مردَّه إليه ، وأنه سيجزيه الجزاء الأوفى ، على كل ما صدر منه أو اقترفه من خير وشر ، ولذلك كانت سائر الأعمال السلوكية التي تصدر من الإنسان مهدرة لا قيمة لها في ميزان المثوبة الإلهية يوم القيامة ، إن لم تنهض على هذه الدعامة الإيمانية ولم تصطبغ بها ، ونصوص القرآن صريحة وقاطعة في ذلك : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] . ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] .

وبمقتضى هذه الحقيقة التي تُبرز الفارق الكبير بين طبيعة النظام الإسلامي وسائر الأنظمة الأخرى ، كان واجب المسلمين في السعي إلى إقامة المجتمع الإسلامي متمثلاً بادىء ذي بدء في العمل بالسبل الممكنة كلها على تنبيه العقول إلى حقائق العقيدة الإسلامية ودلائلها العلمية الثابتة ، وعلى إزالة الشبهات التي قد تعوق دون الجزم بها ، ثم في العمل بالسبل الممكنة أيضاً على إخضاع هوى الأفئدة والنفوس لما استيقنته العقول وصدقت به .

وما من ريب في أن طريقاً يتجه به سالكه إلى الأفئدة والعقول ،

لا يصلح إلا أن يكون طريق مَرْحمة وسِلْم ، وحكمة وأناة ، وما من شك في أن أخطر العقبات التي قد تبرز على متنه إنما يتمثل في الضغينة والعنف .

وما تَرِدُ كلمة « الجهاد » مرَّة في القرآن ، إلا ويكون هذا السعي الحثيث إلى الأفئدة والعقول ، أول ما يُقصد من معاني الكلمة ومدلولاتها ، وهو المعنى الذي تترجمه هذه الآية القرآنية العظيمة : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل : ١٢٥] . فإن أعوزك مظهر تطبيقي تتجسّد فيه هذه الحقيقة ، فدونك فتأمل في سيرة المصطفى ﷺ ، واستعرض مراحل دعوته كلها ، فلن تجد من خلالها إلا ممارسة مستمرة لهذه الحقيقة ، وسعياً دائباً على هذا الدرب .

لقد أمضى النبي ﷺ ثلاثة عشر عاماً من عُمُرِ دعوته إلى الله وجهاده في سبيله ، وهو يخاطب العقول بالإرشاد والتذكير ، ويتَّجه إلى القلوب يستثير فيها العواطف الإنسانية والفطرة الإسلامية ، دون أن يحرف عن ذلك الطريق ما أمعنت فيه قريش من العناد والبغضاء ومقابلته بشتى مظاهر الكيد والعدوان .

وربما توهَّم الباحث أنَّ الضعف الذي كان يعانيه النبي ﷺ والصحابة آنذاك ، منعه من أن يقابل الشر بمثله ، وحمله على الصَّبْر إلى حين ، ولا ريب أن هذا وَهمٌ وباطل من القول ، فلو كان الذي يمسكه على تلك الحال من التجمل والرحمة وسعة الصدر ، عجزه عن المقاومة وعن ردِّ الكيد بمثله ، إذن لفرضت طبيعة الثورة نفسها

على حاله ومظهره ، ولتجلَّى ذلك ـ على أقل تقدير ـ في حقدٍ ينفثه أو توعد يشفي غليله به ، ولدعا عليهم ذات مرة بالسحق والمحق ، ولا سيما وأن دعاء الرسل والأنبياء أمضى من أسلحة الثائرين ، ولكنَّا قد علمنا أنه ﷺ ما كان يستقبل عداواتهم إلا بمزيد من الشفقة والرحمة ، وأبى أن يُحرِّك لسانه بالدعاء عليهم ، حتى في أحلك الساعات وأقسى الظروف التي مرَّت به .

فلما هاجر إلى المدينة واستقرَّ به المقام فيها ، ونظر المشركون فرأوا أن قد غدا للنبي ﷺ أرض يركن إليها ، وأن قد أحاطت به شيعة تستنّ بهديه وتدعو بدعوته ، وأنها بسبيل أن تنتشر في الناس وتستقر في العقول ، هاج بهم هائج الضغينة والحقد ، وهبّت فيهم من ذلك ثورة لاهبة تسعى لحماية الباطل الذي توارثوه من الآباء والأجداد ، وتُلِحُّ على خنق حقائق الدين الذي بعث به محمد ﷺ .

وهكذا فإن الأمر كان على عكس ما يتوهمه المتوهمون ، فالدعوة الإسلامية التي اختط الرسول ﷺ سبيلها الآمن الحكيم ، هي التي واجهت من المشركين ثورة البطش والعنف والعدوان ، وليس المشركون هم الذين فوجئوا من النبي ﷺ وأتباعه بتلك الثورة التي تنسب اليوم إلى الإسلام ، فتسمى « الثورة الإسلامية » .

وما واجه المسلمون أعداءهم يوماً ـ وهم بقيادة المصطفى ﷺ ـ على طول تلك المواجهة وعرضها ، بشيءٍ من تشنجات الثائرين وأحقادهم الهائجة ، وإنما كانوا يتصدّون لثورتهم بالإخماد ، ويواجهون قوَّتهم بالتوهين ، ويلاحقون جموعهم بالتفريق ، وقاية

لحقائق الدين الإسلامي أنْ تغتال في أشخاص المسلمين ، فينكفىء الناس مرَّة أخرى على ظلام الجاهلية ، ويعودون إلى ماضيهم التائه المشؤوم .

لقد قيل للنبي ﷺ : إن أهل نجد بحاجة إلى من يدعوهم إلى الإسلام ويعرفهم به ، فأرسل إليهم سبعة من عيون أصحابه ، دون أن يجهزهم ﷺ إلا بمنطق الحق مضخَّماً بلوعة الشفقة والحب ، فتخطَّفَتْهم جميعاً يدُ الغد ، ودارت عليهم رحا القتل ، ولم يَعُد منهم أحد .

ثم قيل مرَّة أخرى له ﷺ عن شدَّة احتياج أهل نجد إلى من يعرفهم بالإسلام ، فأرسل إليهم بدلاً من أولئك السبعة سبعين من أَخلص أصحابه ، ولم يُجهِّزهم إلا بمثل ما جهز به إخوانهم من قبل ، فما كادوا يبعدون في أرض نجد ، حتى أحيط بهم ، وقُتِلوا عن آخرِهم ، اللهم إلا واحداً فقط ، وهو « عمرو بن أمية الضمري » وكأن الأقدار استَبْقَتْهُ ليعود بالنبأ الأليم إلى رسول الله ﷺ .

فأي الفريقين ثائرٌ هائِجٌ مغتاظٌ ، وأيهما الذي يسعى إلى إنقاذ دعوة الحق مضمَّخة بضياء المنطق ، نابعة بلوعة الحب والإخلاص ؟ .

ولما صَدَّ المشركون رسول الله ﷺ عن البيت ، وقد اتجه إليه مع جمع كبير من أصحابه معتمرين مسالمين ، آثر السلامة وعاد إلى المدينة أدراجه ، ووقَّع مع المشركين على كتاب صُلْحٍ بين الفريقين ، كانت بنوده كلها خدشاً لكرامة المسلمين وإجحافاً بحقِّهم ، لو أنَّهم كانوا يسيرون في معاملة الكافرين مسيرة الثائرين .

ولَمّا أَمكَنَه الله من العودة ظافراً إلى مكة ، وأظفره الله بأهلها ، وسار إليها ممتطياً أعلى ذرى القوة والنصر ، كان يراقب قلبه أن لا يتسلل إليه شيء من روح السخيمة وهوى الانتقام ، وكان يحاذر أن يتسلل إلى رأسه شيء من نشوة القهر والانتصار ، وكان يراقب أصحابه أيضاً ويحذرهم من أن يفتحوا أفئدتهم لشيء من تلك المشاعر .

ولما بلغه أن سعد بن عبادة قال ـ وهو على مشارف مكة ـ كلمة أجرتْها نشوةُ الظفر على لسانه : (اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستَحلُّ الحرمة) غضب عليه الصلاة والسلام وردَّ قائلاً : (اليوم يوم المرحمة)[1] . وأبى عليه الصلاة والسلام ، وهو يدخل مكة من أعلى قمم النصر ، إلا أن يكون خاشع القلب مطأطىء الرأس ، يرتدي كسوة الذل والعبودية لمولاه ، وقدم على مشركي مكة قدوم الغائب على أهله ، وبدّد مخاوفهم من البطش والانتقام بقوله : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

فتلك هي صورة مراحل الدعوة الإسلامية في حياته ﷺ كلها ، هل تجدها مسوقة إلا برحمة القلب وشفقة النفس ؟ وهل تجدها متجهة إلا إلى العقول بالإقناع ، وإلى الأفئدة بإيقاظ معاني الإنسانية ؟ .

غير أن المشكلة التي قد ترد على كلامنا هذا ـ في تصور بعض الناس ـ هي مسألة الجهاد .

أليس الجهاد أقدس شرائع الإسلام ؟ وهل كان النبي ﷺ يدعو

---

(١) روى ذلك الأُمَوي فِي (المغازي) كما في فتح الباري لابن حجر : ١٢ / ص ٩٥ .

أصحابه إلى عبادة أعظم من عبادة الجهاد ؟ حتى لقد قرر بأنه الركن الباقي إلى يوم القيامة ، وأن « من مات ولم يغزو ، مات على شعبة من النفاق »[١] ؟ وهل يكون لمعنى الثورة مظهر أجل من هذا وأبرز ؟

والجواب : أن الجهاد الذي شرَعَه اللهُ واستقرَّ باباً من أخطر أبواب الفقه الإسلامي وأهمها ، ليس أكثر مما تشرعه أي دولة مسالمة ديمقراطية اليوم ، بصدد حماية سِلْمَها ورعاية أَمْنِها . وهو شيءٌ ضروري لا بدَّ منه بإجماع سائر فلاسفة القانون وعلماء الاجتماع ، ما دام أن البغي على وجه الأرض لم ينقطع بعد ، وأن مطامع الظلم والعدوان لا تزال بارزة المخالب والأنياب .

هل تجد دولة على وجه الأرض لا تهتم بإنشاء جيش قوي لها ، ولا تنصرف إلى حماية ثغورها وتحصين حدودها ؟ إن الجهاد الذي شَرَعَه الله وألزم به عباده المسلمين ، ليس أكثر من ذلك مهما رأيت له من مظاهر وأَشكال .

يقول ابن رشد في مقدماته على مدونة الإمام مالك : « فإذا هوجر العدو ، وحميت أطراف المسلمين ، وسدّت ثغورهم ، سقط فرض الجهاد عن سائر المسلمين » .

ويقول الشربيني في مغني المحتاج : « ويحصل فرض الكفاية بأن يَشْحَن الإمام الثغور بمكافئين للكفار ، مع إحكام الحصون والخنادق وتقليد الأمراء » .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب ذم من مات وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ ، برقم : (٣٦٢٤) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وحسبك أن تعلم أن مشروعية الجهاد ليست من قبيل شرعة المقاصد والغايات ، وإنما هي وسيلة لا بد منها ، في ظروف معينة تفرض نفسها ، إلى غايات إنسانية سامية لا غنى عنها .

يقول العز بن عبد السلام : « إن الجهاد لا يُتقرب به إلى الله من جهة كونه إفساداً ، وإنما يتقرب به من جهة كونه وسيلة إلى درء المفاسد وجلب المصالح » . وهذا يعني ـ كما قال جمهور الفقهاء ـ أن الأصل هو السلْم وحقن الدماء ، ولا تشرع الحرب إلا عندما تكون هي الوسيلة الوحيدة إلى حماية السلم ، ودرء الفتن وحفظ الأرواح ، وعندئذ لا مناص من تطبيق القاعدة القائلة : « يُتحمَّلُ الضَّررُ الأَخَفُّ دَرْءاً للضَّررِ الأَعْظَم » .

وبمقتضى ذلك يُقرِّر مُعظم الفقهاء أن الباعث على القتال الذي يدخل في تعريف الجهاد ، إنما هو دَرْءُ الحِرابة ، وحماية السبيل إلى تعريف الناس بالإسلام بحيث يتمكَّن المسلمون من النهوض به على أَتَمِّ وجهٍ وفي كلِّ مكان ، وليس مُجرَّد صفةِ الكفر الذي يتلبَّس بها غير المسلمين .

ومن أبرز الأدلة على ذلك ، أن النبي ﷺ ما زال ينهى في غزواته عن قتل الأُجراءِ والعبيد ، والنساء والشيوخ ، والرُّهبان الذين انقطعوا في كهوفهم أو معابدهم . وقد سار الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم من بعده على هذا النَّهج ، فلولا كان الباعث على القتال كفراً ، لاستوى في موجب القتل هؤلاء وغيرهم .

غير أن هذا لا يعني أن الجهاد في الشريعة الإسلامية ينقسم ـ كما

تراءى لبعض المستشرقين وأتباعهم - إلى حرب هجومية وحرب دفاعية . فهذا التقسيم لا وجود له في باب الجهاد ، ولا تتفق طبيعة الجهاد وأهدافه التي شُرع من أجلها مع هذا التقسيم .

وإنما محور القضية أن الإسلام بمعناه الاعتقادي والسلوكي ، هو المنهج الذي فطر الله عليه عباده ، واختاره لهم وألزمهم به في الدنيا ، ولا رادَّ لما أَلْزم الله به عباده ، لذا فقد كان عليهم جميعاً أن يتقيَّدوا به في حقِّ ألسنتهم ، ثم أن يُبَصِّروا الناس به وبدلائله العلمية الثابتة ، على أتم وجه وأقوم سبيل . ولا شك أن على الناس جميعاً أن يتركوا هذه المهمة تسير في طريق آمن وبسلام ، ما دامت مقيَّدة بحدود التعريف العلمي، وإزالة ما قد يكتنف الإسلام من الشُّبه والْمُشكلات .

إذن فالجهاد ليس مظهراً لثورية الإسلام ، كما قد يتوهَّم بعض الناس ، وإنما هو الحِزام الذي تتَّخذه أية أمة من الأمم ، في أي زمان ومكان ، لحماية سِلْمِها ، والتمكُّن من أداء دورها الإنساني البنَّاء على صعيد الأسرة الإنسانية جمعاء .

وبعد ، فإنَّما أَردْت أن أخلص من هذا كله إلى تأكيد النقاط التالية ، وإني لعلى يقين بأنها تَهُمُّ كل مُتحرِّق على عودةٍ راشدة إلى الإسلام ، مُهتَمٍ بأمر الدعوة الإسلامية ، والعمل لمصلحته بشكل ما :

أولاً : يتميز هذا العصر بكثرة الحركات الإسلامية التي تتخذ من النهج الثوري سبيلاً لها ، وهي مدفوعة بعوامل وأسباب شتى ، ولكنها جميعاً تتلاقى على صعيد مشترك يتمثل في الهياج النفسي والأحقاد

المستعرة ، والسعي إلى التشفي والانتقام . وقد تجد بين أصحاب هذه الحركات من يكون معذوراً في وقوعه تحت سلطان هذه العوامل ، كأولئك الذين استلبت منهم أوطانهم أو وقعوا تحت آصار الظلم والاستعباد ، فإن من الطبيعي أن يستبدَّ بهم الحنق وتهيج بين جوانحهم عوامل الثورة على الظالمين والناهبين ؛ ولكن فليحاذر أولئك الذين لا غرض لهم إلا العمل من أجل الإسلام والدعوة إليه ، من أن يلتبس عليهم هذا بذاك ، أو أن يُصابوا بعدوى تلك الحركات . وليعلموا أن من المستحيل أن ينهض وجود حقيقي للإسلام على دعامة من هذا القبيل إن كل نظام من الأنظمة الاجتماعية الوضعية قد يُفرض لصقاً بواسطة الضغط الثوري ، ولكن الإسلام لا يستقرُّ وجوده إلا بغرس أصوله في تربة الأفئدة والنفوس ، ثم استنباته بالرعاية والتوجيه ، ولا يتم هذا إلا بمُعاناةٍ فرديَّةٍ طويلةٍ صابرةٍ .

ثانياً : إنما يتكون المجتمع الإسلامي بإيجاد أفراده الصالحين أولاً ، ولا تتمثل مهمة المسلمين في أكثر من النهوض الحقيقي بهذا الواجب ؛ فإنْ هم أنجزوا ذلك في صبر وإخلاص وأناة ، تكفلَّ الله لهم ببقية الأمر ، فتوَّجَ لهم جهودهم هذه بنظام إسلامي متماسكٍ وسلطة إسلامية راشدة ، لذا فليحذر المسلمون الذين يهتمون بشأن الدعوة الإسلامية من آفة هي أخطر آفات الحركات الإسلامية التي تظهر هنا وهناك ، وهي أنهم ما يكادون يرون أن الإقبال على الإسلام يتزايد ، وأن يقظة إسلامية واعية بدأت تنتشر في صفوف الشباب ، وأن الأنظار أخذت تحسب للقوة الإسلامية حساباً ، حتى تعاجلهم

النشوة ويستبدّ بهم الزهو ، فيتركون القاعدة التوجيهية التي ما كلفهم الله بغيرها ، ويطمحون إلى حيث القمة ، ليبدلوا النظم ويقيموا « الدولة الإسلامية التي تحكم بما أنزل الله » . ولا بدّ أن تتنبه عندئذ عوامل التربص والحذر لدى الأطراف الأخرى ، وأن تصطرع القوى وتتأزم الأمور . وأخيراً ينكفىء الطامحون على أعقابهم ، وقد خسروا قواعدهم الأولى ، ولم يفوزوا بأحلامهم الأخرى ، وتلك هي مصيبة الحركات الإسلامية في أكثر بقاع الأرض .

ثالثاً : على المسلم الذي ينهض بأعباء الدعوة الإسلامية ، أن يكون شديد الرقابة على نفسه ، فلا ينتصر لها من حيث يتوهم أنه ينتصر لدين الله ، فإن بين هذين الطرفين حاجزاً دقيقاً جداً لا يكاد يبين ، ولكنه مع ذلك حاجز ذو أهمية بالغة ، إن ضاعت معالمه على السالك ، وقع من جراء ذلك في مغبة ضياع خطير ، وذهبت جهوده كلها أدراج الرياح .

لست أدري ـ وأنا أقرر هذه الحقيقة ـ هل كنت رقيباً على نفسي إلى الدرجة القصوى ، متيقظاً للحاجز الدقيق الذي يمنعني من الانجراف نحو الانتصار للذات ! . أرجو أن أكون قد وفقت لذلك ، وأعوذ بالله من فتنة النفس والهوى .

❊ ❊ ❊

الخاتمة(١)
وفيها نصيحة أزجيها لإخواني الدعاة

يقول الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : ٣٣]. ندعو إلى الله لا من مستوى فوقيٍّ أبداً ، لا نباهى بعلمٍ تفضلنا أو زدنا به على من ندعوهم إلى الله عز وجل ، بل ندعو إلى الله ، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وكلنا يقين بأن هذا الذي ندعوه ربما أصبح غداً خيراً مني ومن كثيرٍ من الدعاة إلى الله عز وجل . أنا أدعو إلى الله نعم ، ولكنني أخشى من مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف : ٩٩] .

أقامني الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، لكن ما أدري إلام تنتهي نفسي به إليه ، وأي المنزلقات أجدها أمامي ، هل أستطيع أن أنجو منها أم لا ؟ أدعو إلى الله وأنا أحذر على نفسي من التيه بعد الرشد ، أدعو إلى الله التائهين ، وأنا أتصور أن هذا التائه ربما كان غداً خيراً مني ، وما أكثر ما رأينا أناساً عاشوا صدر شبابهم تائهين عن الرُّشد ، ثم أصبحوا في مقدمة الربانيين من عباد الله ، وهل نسيتم من كان « بشرٌ الحافي » ؟ وهل نسيتم من كان « الفضيل بن عياض » ؟ وما أكثر الناس الذين يعيدون سيرة بلعام بن باعوراء ، دعا وأمر

(١) مستخلص من خطبة للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالىٰ بتاريخ : (٢٥/١١/٢٠١١م) .

بالمعروف ونهى عن المنكر معتزاً معتداً بثقافة إسلامية ورثها في يوم من الأيام، ثم إن الكبر زجه في حالة من التيه والبعد عن الله ، ونظر وإذا هو يطأطىء الرأس لولاية أعداء الله عز وجل له . تلك هي سنة الله ، نسير في غمار هذه الحقيقة حراساً لأرضنا المباركة ، حراساً لديننا ، آمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر بالصراحة وبالحكمة اللتين أمرنا بهما الله عز وجل ، لا نوقف ألسنتنا عن هذه الوظيفة أمام أكبر القادة والحكام ـ وهذا ما نفعله ، وهذا ما يجب على كلِّ مسلمٍ أن يفعله ـ إن سُئِلْنَا عن الجهاد فهذا هو جهادنا ، وإن سُئِلْنَا عن حراسة الأرض والعرض والدين فهذه هي حراستنا ، وإن سُئِلْنَا عن الشرف الذي نتمتع به فإنما هو شرف حراسة هذه الأرض المباركة من أن تدنسها قدم إنسان أعلن عن عداوته لله وعداوته لعباد الله عز وجل .

لا ، لن ندع العدو المشترك يدخل فيما بيننا ليكون هو الحكَمُ علينا ، لا ، لن نفعل ذلك ، على هذا نعيش ، وبهذا المبدأ نموت ، وعلى هذا المنهج نلقى الله سبحانه وتعالى ، وموعدنا وموعد الذين آثروا التيه وآثروا الذل وآثروا الإعراض عن وصايا الله عز وجل ، ومدوا اليد ـ يد الهوان والذل ـ إلى أعدائهم وأعداء مولاهم وخالقهم ، موعدنا معهم يوم يقوم الناس لرب العالمين ، عندئذٍ ، سوف ترى إذا انجلى الغبار هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعلمها .

والحمد لله رب العالمين

مصطلح « جهاد النكاح »
وحقوق المرأة في الإسلام

المحتوى

مقدّمة البحث ١٢٩
أهمّية البحث في قضية المرأة المسلمة ١٣٣
أحوال المرأة قبل الإسلام ١٣٥
مكانة المرأة في الإسلام وحقوقها وواجباتها فيه ١٤٥
أوّلاً : المبادىء التي كرّم بها الإسلام المرأة : ١٤٨
ثانياً : الأهليات التي قرّرها الإسلام للمرأة ١٥٦
ثالثاً : التشريعات التي شرعها الإسلام للمرأة : ١٦٤
رابعاً : الدور الذي حدّده الإسلام للمرأة في المجتمع ٢٠٤

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين ، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ، وعلى جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى آل كلٍّ وصحب كلٍّ أجمعين ، وبعد :

فإنَّ الحرب الكونية التي استهدفت سورية الحبيبة مؤخراً ، لا تستهدف فقط محور المقاومة والنيل من عزتها وكرامتها ، بل المراد ما هو أعمق من ذلك وهو استهداف الإسلام الوسطي المعتدل الذي تتميز به بلاد الشام ، وذلك عبر الأفكار الهدامة التكفيرية الوهابية التي صُدِّرت إلينا من خلال المجموعات المسلحة التي تحمل هذه الأفكار ، والتي تعيث في أرضنا الحبيبة فساداً وعنفاً وقتلاً وتدميراً .

وإنَّ هؤلاء المجرمين يستخدمون في هذا كلّه شعارات تحمل اسم الإسلام ، والإسلامُ منها براء ، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف : ٨] .

ولعلَّ من أخطر هذه المصطلحات التي تمَّ طرحها مصطلح « نكاح الجهاد » ، وذلك لما فيه من الإساءة إلى المرأة التي كرَّمها الإسلام وأعطاها حقوقها كاملة غير منقوصة ، ولما فيه من الترويج للأفكار الهدامة التي يطرحها الغرب بين الحين والآخر ، والتي يُريد من خلالها أن يُبيِّن لأتباعه ـ بل للعالم أجمع ـ بأنَّ الإسلام ظَلَمَ المرأة وأعادها إلى القرون الوسطى وعصور الظلام .

وإنَّ طرح مصطلح غير معروف فقهياً سابقاً ـ وهو جهاد النكاح ـ حَدَا بنا للحديث بشكل مُفصّل عن حقوق المرأة في الإسلام ، بعد بيان موجز لهذا المصطلح الخطير الذي ظهر في الآونة الأخيرة ، ولا سيما في سورية .

وما نريد قوله : أننا لسنا حريصين على الحديث عن مسألة « جهاد النكاح » ، لما في ذلك من الترويج لمفاسد خطيرة ، ومن شأن الإكثار من ذكرها التهوين من خطرها ، ولكن من الضرورة بمكان التنبيه على الخطة القذرة التي تستهدف الإسلام بأساليب ماكرة .

من أخطر الأساليب في محاربة الإسلام إطلاق عناوين إسلامية براقة على مسميات مناقضة للإسلام وتعاليمه ، ومن ذلك : إطلاق اسم الجهاد على ما يرتكب من جرائم وحشية همجية في سورية ، يقتل فيها الأبرياء ومنهم الأطفال والنساء ، ومن ذلك : جعل كثير من الجرائم مصحوباً بالشعار المقدس : « الله أكبر » ليغدو هذا الشعار المقدس مثيراً للفزع والخوف عند إطلاقه . وأسوأ ما يمارس لمحاربة الإسلام الترويج للفاحشة وتلبية الشهوات المحرمة من قبل مجموعات القتلة والمجرمين بما يسمونه « جهاد النكاح » ، فقد استخدموا أطهر أمرين في ديننا لأقذر جريمة يمارسها المجرمون ، جريمة تشمئز منها جميع الطبائع السوية ، بينما يروج لها المجرمون لتشويه هذين الأمرين العظيمين في شريعتنا : الجهاد والنكاح ، بجعل هذا التركيب يدل على أبشع ممارسة لا أخلاقية باسم الإسلام الحنيف وشريعتنا الغراء .

لقد حاول بعض رموز الوهابيين والتكفيريين ، بعد أن ارتفعت

صيحات الاحتجاج والاستنكار لهذه الجريمة ، التبرؤ من هذه الجريمة المثيرة للاشمئزاز ؛ إلا أن مفتي تونس السابق قد فضح جريمة إرسال فتيات قاصرات لممارسة ما يسمونه « جهاد النكاح » على أنه طريق سريعة لدخول الجنة .

وقد نشرت مواقع ووكالات أنباء ما قاله مفتي تونس حول هذه الجريمة القذرة ، وأوضحت أن فضيلته دفع ثمن ذلك منصبه ، فقد غضبت عليه الحكومة الإخوانية وأقالته نتيجة هذا التصريح ، وقد أكد وقوع هذه الجريمة أيضاً وزير الداخلية التونسي فيما نقلته عنه وكالات الأنباء ومواقع الإنترنت ، وفيما يأتي أحد المنقولات : « كان المفتي السابق فضيلة الشيخ عثمان بطيخ أول المحذرين من ظاهرة حمل التونسيات بفعلة « جهاد النكاح » في سوريا ، ودفع ثمن ذلك بأن تمت إقالته ، وقد كان لنا معه هذا الحوار حول المستجدات الخطيرة لهذا الموضوع الذي أصبح يتصدر الصحف العالمية » .

قال المفتي السابق للجمهورية التونسية فضيلة الشيخ عثمان بطيخ لـ « الشروق » : « إنه يجب على العائلات التونسية أن تحذر من انتشار هذه الظاهرة الخطيرة وتنتبه أكثر من أولادها ، وتقوم بمراقبة تصرفاتهم حماية لهم من غسيل الأدمغة الذي يتعرض له شبابنا من قبل أصحاب الفكر المتشدد ، قائلاً في هذا السياق : ما يزعجني في هذا الموضوع أن ضحايا « جهاد النكاح » هن مجرد فتيات صغار السن لا حول ولا قوة لهم » .

وأكد الشيخ عثمان بطيخ أن أصحاب الفكر الوهابي يقومون

باستغلال الضحايا ويوهمونهم بأن الجنة مصيرهم ، وما يقومون به سيجازون عليه ، وأن ما يقومون به يعتبر نوعاً من أنواع الجهاد في سبيل الله ، مضيفاً أنه حذر في العديد من المناسبات من خطورة سفر التونسيات إلى سوريا وفتح الحدود لهن ، ولكن لم يجد آذاناً صاغية ، وصمتت سلطة الأشراف ، مما أنجز عنه أن عشرات الفتيات دفعن ثمن هذا الفكر الذي تسبب في كارثة كبرى في تونس .

وعن حُلول التصدي لهذه الظاهرة الخطيرة التي تفشت في المجتمع بسبب عودة أكثر من مئة تونسية حامل من أعداد كبيرة من المقاتلين في سوريا ، قال عثمان بطيخ المفتي السابق : « إن على كل إمام مسجد أن يحارب هذه الأفكار من خلال منبره » قائلاً أيضاً : « سأتصدى لهم من خلال خطبتي في الجامع وكتاباتي » ا . هـ جريدة الشروق . وما ورد هنا أكدته رويتر .

وأقر وزير الداخلية في تونس بذلك وبأن الجهات الأمنية اكتشفت عصابة تجند الشباب للقتال في سورية ، وتغرر بالفتيات القاصرات للذهاب إلى سورية لممارسة « جهاد النكاح » .

بل إن بعض الذين انخرطوا في سلك هذه المؤامرة على سورية من أبناء الوطن بلغت بهم الدناءة والخسة أن دفعوا بنسائهم وبناتهم في هذا الطريق القذر ، فزجوا بهم ـ بكل خسة ودناءة ـ في طريق الرذيلة باسم : « جهاد النكاح » ، وهم يدركون جيداً أنهم يكذبون ، ولكنهم باعوا نفوسهم وأعراضهم طمعاً بدراهم يكسبونها بزج نسائهم وبناتهم في هذه الرذيلة ، وقد أقرت ضحاياهم بذلك .

إننا لا نناقش مدى قذارة هذا الفعل المشين ، ولا نناقش مدى تعارضه مع الفطرة الإنسانية السوية لدى جميع البشر ، ولا مدى قذارة هذا السلوك المنحرف ، كل ذلك أمر لا يُنكره عاقل ، ولكن الذي نُريد أن نوضحه أن ثمة حرباً على الإسلام باسم الإسلام ؛ تمارس من خلال استخدام المصطلحات الإسلامية التي تعبر من مدلولات سامية عظيمة لممارسة أقذر أنواع الانحراف الأخلاقي ؛ بغية تشويه الإسلام ومفاهيمه ، ليدرك كل عاقل أن ما يجري في سورية إنما هو حرب على الإسلام بامتياز .

أهمّية البحث في قضية المرأة المسلمة

تنبثق أهمّية البحث في قضية المرأة المسلمة من أمرٍ بالغِ الأهمّية ؛ هو أنّنا ـ معشرَ المسلمين ـ أمةٌ حمّلها الله رسالة هداية البشرية بشريعة الإسلام ، ومن ثَمَّ فنحن مأمورون دائماً بحشد طاقاتنا جميعاً من أجل تأدية هذه الرسالة على خير وجه . ولما كانت المرأة نصفَ المجتمع البشري تقريباً ، وهي تُربّي ـ في الواقع ـ النصفَ الآخر منه ، فإنها طاقة عظيمة القيمة ، وقوّة لا يجوز التغافل عنها ، لأنها تُسهم في إنشاء الحضارة في إطار تلك الرسالة .

وإذا كانت نهاية القرن العشرين قد شهدت موجة تزعّمها الغربُ لتكريم المرأة تمثّلت أخيراً في « يوم المرأة العالمي »(١) ، تلك

(١) أعلنت الأمم المتحدة سنة ١٩٧٥م سنةً دولية للمرأة ، وعُقد مؤتمر للمرأة في المكسيك . وقد ارتأى المؤتمر عدم الاكتفاء بتخصيص سنة دولية واحدة فقط لقضايا=

الموجة التي كان يقصد بها التكفيرُ عن التفريط في جنبها وتضييع حقوقها ، كما يرى د . البوطي ـ رحمه الله ـ حين يقول : « كلّ مُتتبّع يعلم أن حديث الغرب اليومَ عن حقوق المرأة ليس إلاّ غطاءً لستر ذلك الماضي » ، فإن الإسلام ليس بحاجة إلى أن يُكفّر عن التفريطٍ في جنب المرأة ، لأنه لم يظلمها ولم يسىء إليها ، لا بل هو الذي أحسن إليها وأنصفها ، وكرّمها التكريمَ الحقيقي ، في وقت أساءت إليها فيه معظم القوانين في ظلّ الحضارات التي سبقت الإسلام ، بل وكلّ الحضارات والقوانين الوضعية التي لحقته ، على حينَ وضعها الإسلام في مكانها الصحيح ، وذلك في حدود دوافعها الفطرية وتكوينها الطبيعي ، حتى تقوم بدورها المتّزن في بناء المجتمع وإنشاء الحضارة ، ومن ثَمَّ تجد المرأة في ظلّ الإسلام أن من واجبها أن تَلْهَجَ بتكريم الإسلام والثناء عليه ، لا يوماً في السنة ، بل كلَّ يومٍ في حياتها .

* * *

= المرأة ، فطالب الأمم المتحدة بإعلان الفترة بين سنة (١٩٧٦ ـ ١٩٨٥م) عَقداً دولياً للمرأة ، وهكذا كان .

أحوال المرأة قبل الإسلام

لعلَّ من المفيد إلقاء نظرة سريعة على أحوال المرأة لدى أبرز الأمم التي سبقت الإسلام ، سواء لدى العرب أو الأمم الأخرى ، وذلك للبرهان على صحّة ما ذهبنا إليه من تكريم الإسلام للمرأة وإنصافه لها .

ـ فعند اليونان تبدّلت أوضاع المرأة حسب تقلّب أحوال الأمّة ؛ ففي فجر حضارتهم كانت المرأة عفيفة مُحْصَنة لا تُغادر البيت ، وظيفتها الإشرافُ على شؤونه ، لكنّها محرومة من الثقافة ، لا تسهم في شؤون الحياة العامّة ، مُمتَهَنَة من قبل الرجل ، مُحتجبة إن كانت من البيوت الراقية ، هذا اجتماعياً . وأمّا قانونياً فالمرأة عندهم متاعٌ من المتاع ، تُباع وتشترى في الأسواق ، وليس لها حقّ في الميراث ، وهي مسلوبة الحرّية والحقوق المدنية ، محرومة من المسرّات خاصّة ، وتبقى طيلة حياتها خاضعة لسلطان الرجل في زواجها وطلاقها وتصرّفاتها المالية ، وما ذكر من أنها نالت في إسبارطة[١] بعض الحرّية والحقوق المدنية ، إنما اضطرّوا إليه اضطراراً لانشغال رجال المدينة بالحرب ، فتركوا التصرّف في حال غَيبتهم للنساء .

وفي أَوْج حضارتهم اختلطت المرأة بالرجال في الأندية

(١) إحدى مدن اليونان آنذاك .

والمجتمعات ، ففشت الفاحشة في مجتمعهم ، حتى غدت دور البغايا مراكز للسياسة والأدب ، ولهج الأدباء بالحرّية الشخصية التي لا تعرف قيداً ولا حدّاً ، فانتشرت الفوضى في الأخلاق ، وفشا فيهم الشذوذ الجنسي ، وكان ذلك خاتمة المطاف في حضارتهم .

ـ وأمّا عند الرومان ؛ ففي العصر القديم من حضارتهم لم يكن الأب مُلْزَماً بضمّ أولاده إلى أسرته ، وكانت سلطته على أفراد الأسرة أبناءً وزوجة ـ مهما بلغت سنّهم ـ تمتدّ حتى وفاته ، وكانت هذه السلطة تشمل البيع والنفي والتعذيب والقتل[1] ، وسلطته سلطة مِلْك لا حماية .

ولم يكن للأفراد في الأسرة حقّ التملّك ، إنما يستخدمهم ربُّ الأسرة أدواتٍ في زيادة أمواله ، وهو الذي يقوم بتزويج الأبناء والبنات دون إرادتهم ، وظلّت المرأة فاقدة حقّ التملّك حتى العصور المتأخّرة ، حين استُثني من ذلك ميراث أمّها ، وإذا تزوجت أبرمت مع زوجها عقداً يسمّى « عقد السيادة » ، به تخرج الفتاة من سلطة أبيها إلى سلطة زوجها . وفي عهد الازدهار العلمي (١٠٥ ق . م ـ ٣٠٥م) تحوّلت السلطة على المرأة من سلطة مِلك إلى سلطة حماية ، لكنها مع ذلك ظلّت قاصرة الأهلية ؛ فقبل « جوستنيان » كانت الأنوثة سبباً من أسباب عدم ممارسة الأهلية ، فجاء قانون « جوستنيان » ليشترط لصحة التعاقد :

(١) استمرّ ذلك حتّى عهد جوستنيان الذي قصر سلطة الأب على التأديب .

* أهلية حقوقية ، عدّد فيمن يفقدها الخاضعاتِ لسلطان رئيس الأسرة .

* أهلية فعلية ، عدّد فيمن يفقدها كذلك الخاضعاتِ لسلطان رئيس الأسرة إذا صِرن مَدَينَّاتٍ دون إذنه ، أو المستقلاّت إذا صِرن مَدَينَّاتٍ دون إذن الوصيّ . ورغم أن هذه الحالة الأخيرة قد زالت مع زوال الوِصاية على النساء ، لكن هؤلاء المستقلاّت ظللن فاقداتِ الأهلية عند تحمّل دين الغير دون نفع لهن .

وبهذا يتبيّن أن الرومان حكموا على المرأة منذ فجر حضارتهم بالقصور ، وكان شعارهم الذي تداولوه منذئذ أن قيد المرأة لا يُنزع ونِيْرها لا يُخلع ، ولم تتحرّر عندهم إلاّ يوم تحرّر الأرقّاء إثر ثورات متلاحقة ، هنالك مُنحت المرأة جميع حقوق الإرث والملْك ، وجعلها القانون حرّة طليقة لا سلطان عليها للأب ولا للزوج .

وعلى مسير الأيام دخل في حوزة الرومانيات جزء عظيم من الثراء ، فكنّ يُقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة ، مما يجعل أزواجهن عبيداً لهن . ثم سهّلوا أمر الطلاق وصار يُلجَأُ إليه لأتفه الأسباب ، وصارت المرأة الواحدة تتزوّج رجلاً بعد آخر من غير حياء ، حتى حدّث « القديس جروم » (٣٤٠ ـ ٤٢٠ م) عن امرأة تزوّجت في المرّة الأخيرة الثالثَ والعشرين من أزواجها ، وكانت هي أيضاً الحاديةَ والعشرين لبعلها . ثم بلغ بهم التطرّف آخر الأمر أن عدّوا الزنى شيئاً عادياً ، وبذلك انحلّت عُرى المجتمع الروماني ، وأدّى ذلك إلى دمار مجتمعهم ثم سقوط دولتهم .

ـ أمّا الفرس ، فالمرأة عندهم كانت عبدة سجينة لا منزلة لها ، وهي تحت سلطة الرجل المطلقة ، يحقّ له أن يحكم عليها بالموت ، دون رقيب أو مؤاخِذ . وقد أباحت الأنظمة الفارسية بيعها وشراءها ، وشرٌّ من ذلك كلّه أنها أباحت الزواج بالمحارم ، ومتى حاضت المرأة أبعدوها عن المنازل وجعلوها في خيام صغيرة في ضواحي المدينة لا يخالطن أحداً .

ـ وأمّا عند الهنود ، فلم يكن للمرأة حقٌّ في الاستقلال عن أبيها أو زوجها أو ولدها ، فإذا مات هؤلاء وجب أن تنتميَ إلى رجل من أقارب زوجها ، وهي قاصر طيلة حياتها ، وليس لها ـ في بعض شرائعهم ـ حقُّ الحياة بعد وفاة زوجها ، وتُحرق معه وهي حيّة على موقد واحد . واستمرّت هذه العادة حتى القرن السابع عشر الميلادي ، حين أُبطلت على كرهٍ من رجال الدين الهنود .

ـ وأما عند الصينيين ، فالمرأة عندهم تُعدّ عبأً على الآباء ، وكان من أشدّ المذلّة الدائمة للأمّهات أن لا يكون لهن أبناء ذكور ، وإذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها ولقيت الأسرة الصعاب في إعالتهن تُركن في الحقول ليقضي عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية ! . فلما كان عهد « كونفوشيوس » أصبح في وسع الزوج أن يبيع زوجته ، وكان يطلب من زوجته أن تحرق نفسها تكريماً له بعد موته ! .

ـ أمّا اليهود ، فيعدّون المرأة لعنة لأنها أغوت آدم ، وتضعها بعض طوائفهم في مرتبة الخادم ، ولأبيها الحقُّ أن يبيعَها قاصرة .

ـ وكانت المرأة في نظر القساوسة النصارى القدماء شرّاً لا بدّ منه ، وآفة مرغوباً فيها ، وخطراً على الأسرة والبيت ، ومصيبة مَطلية مموّهة ، وفتنة مهلكة .

ـ وفي القرن الخامس الميلادي اجتمع مَـجْمع « ماكون » ـ قرية قرب باريس في فرنسا ـ للبحث في مسألة : هل المرأة مجرد جسم لا روح فيه ، أم لها روح ؟ وقرّروا أنها خِلوٌ من الروح الناجية من العذاب ، ما عدا أمّ المسيح عليه السلام . كما قرّروا أنها رجس يجب ألاّ تأكل اللحم ، وألاّ تضحك ، ومنعوها من الكلام ، حتى وضعوا على فمها قفلاً من الحديد ! .

ـ وفي القرن السادس الميلادي عقد الفرنسيون مؤتمراً للبحث : هل المرأة إنسان أم لا ؟ وقرّروا أنها إنسان ، لكن خُلقت لخدمة الرجل ! .

ـ أمّا في جزيرة العرب ؛ فقد تضاربت الأقوال عن حال المرأة فيها قبل الإسلام ؛ فمن مُشِيد بالرعاية التي لقيتها في مجتمع الجزيرة ، كأنما يريد أن يقول : إنه لم يكن للإسلام فضلٌ كبير عليها ، أو رغبةً في الدفاع عن المرأة العربية من حيث هي امرأة . ومن مضخّم للامتهان الذي عاشته المرأة فيها ، يريد أن يعظّم منّة الإسلام عليها . ولكلٍّ من الفريقين أدلّته في المجتمع الجاهلي ؛ فقد كان الجاهليون يحترمون المرأة في نواح ، ويمتهنونها في نواح .

وفي الشعر الجاهلي دليلٌ كبير على مظاهر الرعاية لها ، ومنزلتها

في المجتمع الجاهلي ، وفي نفس الرجل في ذلك المجتمع وعقله ؛ فهو يبدأ كلّ قصيدة من قصائده بذكرها ومناجاتها ، ويتمدّح إليها ببطولاته وأمجاده في حومة الوغى أو إثر قيامه بمكرمة ، ويحتكم إليها ويستشهدها على شجاعته ، ويرى خيرَ مكافأة له على بطولاته إعجابَها به . نرى ذلك في شعر عنترة ، وعمرو بن كلثوم ، وحاتم الطائي ، وغيرهم .

وكان العُرف يَفرِض على الرجل أن يحميها ويفديها بروحه إذا تعرّضت لتهديد أو سَبْيٍ ، وكثيراً ما كانت الحروب تنشب دفاعاً عنها .

ولعلّ ما امتازت به الجزيرة من صفات الرجولة والمروءة والشجاعة والكرم وغيرها ، مردّه في الدرجة الأولى إلى أن المرأة العربية كانت ـ على الجملة ـ تمتاز بالعفّة والفصاحة وحسن التربية لبنيها ، وكان الرجل يسعى لتخيّر المرأة التي ستكون أمّاً لأولاده ، فإذا كبروا منّ عليهم بذلك بمثل قوله :

وأوّل إحساني إليكم تخيُّري لماجدة الأعراق بادٍ عفافُها

وأمّا جوانب الظلم والمهانة التي تعرّضت لها المرأة في جزيرة العرب قبل الإسلام ، فأوّلها تطيّرهم منها ، وغلا فريق منهم في كره الأنثى حتى قصّ الله تعالى علينا من أمرهم هذا ، فقال عزّ من قائل : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ـ ٥٩] . ثم بلغ ببعضهم الأمرُ أن لجأ إلى وأدها خشية العار أو

الفقر ، كما كانت تفعل قبائل ربيعة وكِندة وتميم .

ومن تلك الجوانب عادة السبي ، فإذا شنّ قوم الغارة على قوم ساق الفارس مع ما قدر على حمله من الأمتعة من النساء والذراري ، فكانوا جميعاً مِلكه يتصرّف فيهم كيف يشاء .

وأبلغ من ذلك في المهانة أن الرجل إذا مات صديقه قال : أنا أحقّ بامرأته ، فإمّا يتزوّجها أو يزوّجها ويستولي على مهرها . وحين يموت الرجل يرث الولد فيما يرث من متاع زوجاتِه جميعاً ، فيتمتّع بهنّ كما كان يتمتّع أبوه ، أو يرثها أولياء المتوفَّى كما يرثون البهائم والمتاع ، إن شاء بعضهم تزوّجها ، أو شاؤوا زوّجوها دون رضاها وسلبوا مهرها ، وإن شاؤوا عَضَلُوها فلم يزوّجوها حتى تفتدي نفسها بشيء .

وكان بعضهم إذا توفّي عن المرأة زَوجُها ألقى عليها وليُّه ثوبه فمنعها من الناس ، أو حازها كما يحوز السَّلَب والغنيمة ، فإن كانت جميلة تزوّجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها .

وكان بعضهم يطلّق المرأة ويشترط عليها ألاّ تنكح إلاّ من أراد حتى تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها كلِّه أو بعضه .

ولم يكن للمرأة عند العرب قبل الإسلام أيّ حقّ لها على زوجها ، وليس لها حقّ في اختيار زوجها ، وإن كان بعض أشراف العرب يستشيرون بناتهم في أمر الزواج ، ولم يكن للطلاق عدد محدّد ، ولا لتعدّد الزوجات حدّ معيّن .

ومظالم أخرى انتشرت في الجزيرة العربية حينذاك بلا قيد

ولا شرط ، فيها امتهان للمرأة وكرامتها ، كنكاح البدل[١] ، ونكاح الشِّغار[٢] .

ومن المظالم أيضاً حرمان النساء من الميراث ، فكانوا يقولون : « لا يرثنا إلاّ من يحمل السيف ويحمي البيضة » ، فإذا تزوّجت اغتصب أقرب الناس إليها ـ أبوها وأهلها ـ مهرها . وقد يعضلونها عن الزواج أصلاً ؛ وذلك حين تكون يتيمة عند قريب لها ، فهو غير راغب في تزوجها لقبحها أو غيره ، ولا يزوّجها غيره خشية ذهابه بمالها ، فهي في جميع الحالات عرضة غبن وحَيْف ، تؤكل حقوقها ، وتُبتزّ أموالها ، وتحرم إرثها .

وآخر ما يذكر من تلك المظالم أنهم كانوا لا يعتبرونها والرجل سواءً في الدماء ، فإذا قتل رجل امرأة لم يكن عليه شيء ، وإن كان من النوادر قتل المرأة إلاّ لفاحشة ترتكبها امرأة هي خاصّة .

ونخلص من دراسة وضع المرأة العربية في الجاهلية بتصوّر عامّ عن ذلك الوضع نذكره في وجوه :

أوّلها : أن المرأة كانت في شريعة الجاهلية شيئاً لا كائناً بشرياً ، وأن ما لقيته من المنزلة المهينة والمعاملة السيئة ممّا يهبط بإنسانيتها وإنسانية الرجل على حدّ سواء .

---

(١) نكاح البدل : وهو أن يقول الرجل للرجل : انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي ، فهو نكاح بطريق المبادلة بغير مهر .

(٢) نكاح الشِّغار : وهو أن يزوّج الرجل ابنته أو أخته على أن يزوّجه الآخر ابنته أو أخته ، ليس بينهما مهر .

ثانيها : أن ما لقيته من قسمة الإنصاف والكرامة مساوٍ لما لقيته أختها في بلاد العالم الأخرى على تباعد أرجائه وتنوّع عاداته وشرائعه .

ثالثها : أن ما عرفه المجتمع الجاهلي من الرعاية لها وأداء حقوقها ، إنما درجت عليه بعض الأسر النبيلة فقط ، ممّا لا يَصلح إطلاقه على مجموع الجاهلية ، فضلاً عن أن التكريم الذي لقيته لم يكن لاعتبارها فرداً من جنس النساء يعمّها ما يعمّهن من الحقّ والمعاملة ، بل كانت تُكرّم عند الزوج لأنها بنت ذلك الرئيس المُهاب أو أمّ ذلك الابن المحبوب . وأمّا حماية الرجل لها أباً أو زوجاً أو أخاً ـ وهو الشيء الوحيد الذي تعتزّ به على أخواتها في العالم ـ فإنما هي حماية الواجب المفروض عليه لكلّ ما في جواره ، أو كلّ ما في حَوزته وحِماه ؛ فيعاب على الرجل منهم أن يُهان حَرَمه ، كما يَعِيبه أن يُعتدى عليه في كل مَحْمِيّ أو ممنوع ، ومنه فرسه ودابّته وبئره ومرعاه .

كذلك نخلص من دراسة وضع المرأة في أرجاء العالم القديم قبل الإسلام بما في ذلك المرأة العربية بهاتين النتيجتين :

١ـ أنّ الأخطاء التي ارتُكبت في حقّ المرأة في تلك العصور إنما تنبثق جميعُها من خطأ واحد ؛ هو أن إنسانيتها لم تكن محلّ اعتبار لدى الرجل ، إمّا لأنهم أنكروا إنسانيتها أصلاً ، أو لإحساسهم أن مهمّات المرأة في الحياة لا تقتضيها دوراً أساسياً تسهم به في المحيط العام .

٢ـ أنّ كلّ ما نالته المرأة ـ في الأمم والحضارات التي استعرضنا ـ من مكانة مُرضية لم يكن عامّاً ، وإنما اقتصر على فئات وطبقات معيّنة ، ولم يكن أمراً شرعياً تعترف به الدولة والأمّة ، بل كانت تناله بباعث من بواعث العاطفة في بعض الأحيان ، أو كمطلب من مطالب المتعة والوجاهة الاجتماعية في عصر الترف والبذخ الذي تنتهي إليه الحضارات الكبرى في أحيان أخرى .

أمّا المكانة التي تحسب من عمل الآداب والشرائع أو الحضارات فقد كانت معدومة في عصور الحضارة الأولى جميعاً ، ما خلا حضارةً واحدة لم نعرِض لها هي الحضارة المصرية ؛ فقد خوّلت المرأةَ حقوقاً شرعية قريبة من حقوق الرجل ، فكان لها أن تملِك وأن ترِث وأن تتولّى أمر أسرتها في غياب من يعولُها ، وهي حقوق كانت تضطرب باضطراب الدولة ، وتعود مع عودة الطمأنينة إليها .

بيد أن الحضارة المصرية زالت وزالت معها شرائعها قبل عصر الإسلام ، ومنذ استولى الرومان على مصر والشرق الأوسط عامّة واشتدّ ظلمهم ، انتشر في مصر وغيرها من أقطاره موجة من كراهية الحياة الدنيا ، وانتهى بهم ردّ الفعل بعد سقوط الدولة الرومانية ـ بما انغمست فيه من ترف وفساد ـ إلى الإيمان بنجاسة الجسد ونجاسة المرأة .

❊ ❊ ❊

مكانة المرأة في الإسلام وحقوقها وواجباتها فيه

يبدأ إحسان الإسلام إلى المرأة وإنقاذه إيّاها من حيث انبثقت المظالم والمهانات التي تعرّضت لها في الأمم التي لم تستظلّ بالإسلام بلا استثناء ، ونعني بذلك قضية إنسانيتها ؛ فعلى حين رأينا أن إنسانية المرأة لم تكن محلّ اعتبار لدى الرجل في تلك الأمم ، إمّا لجحودهم تلك الصفة فيها ، وإمّا لاعتقادهم بأن مهمّاتِ المرأة لا تخوّلها دوراً أساسياً تُسهم به في المحيط العام ، نزل الإسلام في جزيرة العرب ليرفع منزلة المرأة من ذلك الدَّرْك الهابط إلى ذلك المستوى الرفيع العالي الكريم ، انطلاقاً من تكريم الإسلام لبني آدم أجمع ؛ ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ . . . ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، ومن نظرته إلى الحياة الإنسانية ، وإلى شطري الإنسان ، فكان ذلك الارتفاع الذي لم تعرفه البشرية إلاّ من ذلك المصدر الكريم .

تقرير الإسلام لإنسانية المرأة :

أوّل فضل الإسلام على المرأة وتكريمه لها تقريره مشاركتها الرجل في أخوّة النسب الإنساني من جهة ، وفي وحدة المعنى الإنساني من جهة أخرى على النحو التالي :

١ـ فهي أخت الرجل ؛ إذ تنسب وإيّاه إلى أب واحد وأمّ واحدة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣]، ولفظ (الناس) في اللّغة يَشمل أفراد الإنسان كافّة رجالاً ونساء ، فهو على هذا يقرّر الأخوّة ؛ أخوّة النسب بين الرجل والمرأة ؛ فكلّ منهما شقيق للآخر كما يصرّح بذلك الرسول ﷺ بقوله : (إنّما النساء شقائق الرجال)[١] ، وأخوّة النسب على هذا النحو تقتضي المساواة ؛ إذ لا يكون أحد الشقيقين أوفر حظاً في النسبة إلى أبويه من الآخر ؛ فالمرأة على هذا مساوية للرجل في النسبة إلى الأبوين لا تزيد فيها عنه ولا تنقص .

٢ـ وهي إنسانة مثله مساوية له في معنى الإنسانية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] . فقوله سبحانه : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ فيه دلالة على النسبة الروحية أوضحُ وأوكد من دلالته على أخوة النسب الحسّيِّ الذي لا بدّ فيه من نفسين اثنين لا نفسٍ واحدة ، لا سيّما أن النفس في اللّغة تدلّ على الروح ، وعلى الصفات المعنوية للمرء ، ولا تقتصر دلالتها على شخص الإنسان الظاهر للحسّ .

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في الرجل يجد البلة في منامه ، عن عائشة رضي الله عنها ، برقم (٢٣٦) .

ثم يأتي قوله تعالى في الآية نفسها : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ليسهم مع سابقه في توكيد الدلالة على وحدة المعنى الإنساني ، ذلك أن الجملة السابقة تردُّ الجميع إلى نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام ، أمّا هذه الجملة فتنفرد بتقرير نسبة الزوجة ـ أمّ الجميع ـ حوّاء إلى نفس المصدر الروحي الذي نسب إليه بنوها ؛ فالأبناء وأمّهم معهم داخلون في التقويم الإنساني المستمدّ من خصائص تلك النفس الواحدة .

ولعلّ ما يتكرّر في القرآن الكريم من الإشارة إلى هذا التماثل بوجهيه السابقين ، إنما هو من أجل استئصال الشعور الراسخ باستصغار المرأة في نفوس بعض العرب ، وتلك واحدة من مفاخر الإسلام في فترة كانت تنعقد فيها مؤتمرات بعض الأديان لتبحث في المرأة : هل هي إنسان أم غير إنسان عند بعض الأمم ، وفي أمم أخرى كانوا يظنّون أن إله الخير خلق الرجل وإله الشرّ خلق المرأة .

وعلى أساس ذلك التماثل في الإنسانية الذي قرّره الإسلام بين الرجل والمرأة وترجمة له وتثبيتاً لجذوره في نفوس الناس إلى يوم القيامة ، أعلن الإسلام :

ـ مبادىءَ كرّم بها المرأة .

ـ وأهلياتٍ قرّرها لها .

ـ وتشريعاتٍ شرعها لها .

ـ ودوراً حدّده لها في المجتمع .

أوّلاً : المبادىء التي كرّم بها الإسلام المرأة : وأهمّها :

١ـ أنه دفع عنها اللّعنة التي كان يلصقها بها رجال الشرائع السابقة ، فلم يجعل عقوبة آدم بالخروج من الجنّة ناشئة منها وحدها ، قال الله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . . .﴾ [البقرة : ٣٦] ، وقال سبحانه في توبتهما : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، بل قرّر إعفاء المرأة من مسؤولية أمّها حواء ، وهو أمر يشمل الرجل والمرأة على السواء ، قال تعالى : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ١٣٤] .

٢ـ حارب فكرة أن المرأة عالة يَحسن التخلّص منها وهي وليدة ، فحارب عادة الوأد التي كانت معروفة في حياة بعض القبائل العربية حرباً لا هوادة فيها ، وعالج تلك العادة بنفس الروح التكريمية الخالصة التي ينظر بها الإسلام إلى البشر عامّة ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء : ٣١] ، وهنا أزال خوف الوالدين من الفقر على أرزاقهم ، وقدّم رزق الأولاد في هذه الآية ؛ لأنهم سبب الخشية من الإملاق ، ليملأ صدور الآباء ثقة برزق الله وكفالته للأولاد قبل الآباء ! .

ثم استجاش وجدان العدل والرحمة وهو يقول عن يوم القيامة : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٨ـ ٩] ، فجعل هذا موضع سؤال استنكاري بارز ظاهر في ذلك اليوم الرّهيب ، وقرّع

الوائدين فقال سبحانه : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . ﴾ [الأنعام : ١٤٠] ، حتّى لقد كان في صيغة بَيعة الرسول ﷺ للنساء : (. . . ولا تقتلن أولادكن . . .)[١] .

٣ـ حارب كرهها والتشاؤم بمولدها ، حتّى صرّح أنها بِشارة عظمى ، وذلك في الآية التي قرّع فيها الله سبحانه المتطيّرين بمولدها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ـ ٥٩] . وقد شرح رسول الله ﷺ هذه البشرى شرحاً تطبيقياً عملياً يفيض بالحنان والعاطفة ، عندما قال ﷺ : (من بركة المرأة تبكيرها بالأنثى)[٢] . ونسمع قوله الله عز وجل : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ . . . ﴾ [الشورى : ٤٩] فنرى كيف بدأ بالإناث قبل الذكور .

٤ـ حرّم سبيَها مذ حرّم الغزو أصلاً .

٥ـ سوّى بين دمها ودم الرجل ، فصار يُقتل قاتلُها ، ولم يكن الأمر كذلك .

٦ـ حمى سمعتها من أقاويل السوء حين شرّع حدّاً قاسياً على ضَربين مادّيٍّ ومعنوي لمن يتهمها بالزنى ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٤] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، حديث أم عطية رضي الله عنها ، برقم (٢٠٨١٦) .

(٢) أخرجه ابن عساكر ، عن واثلة رضي الله عنه .

٧ـ حرّم استئثار الرجل دونها بالمهر ، وجعله حقّاً خالصاً لها .

٨ ـ حدّد تعدّد الزوجات وقيّده بالقدرة والعدل بين الزوجات ، وكان قبل بلا حدّ ولا قيد .

٩ـ حرّم ما كان معروفاً في الجاهلية من إكراه الفتيات على البغاء ، فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ . . . ﴾ [النور : ٣٣] .

١٠ـ أمر بتكريمها أمّاً وبنتاً وزوجاً وجنساً :

ـ أمّا الأمّ فقد ورد تعظيمها في الشرع مع الإرشاد إلى مقام عظيم مقدّر لها ، لتأديتها أجلّ الأعمال للحياة الإنسانية عامّة ولولدها خاصّة ؛ فهي مع الوالد سبب في مجيء إنسان ينعم بما في هذا الكون من مغانم معرفة الله تعالى وعبادته ، لذلك جاء الإحسان إليهما مقارناً للإيمان به تعالى والأمر بعبادته : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، بل جاء وجوب الشكر على تلك النعمة مقارناً لوجوب شكره تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤] . وبذلك يلحظ المسلم كيف أسبغ الله سبحانه على مكانة الوالدين صبغة القداسة والمسارعة إلى مرضاتهما ، فبرّهما فريضة واجبة على الأبناء .

وإذا كانت الآيات هنا توضّح مقاماً من التعظيم يشترك فيه الأب والأمّ ، فإن الآيات التالية توضّح إفراد الأمّ بسهم آخر من التعظيم لمقامين خاصّين بها دون الأب :

أوّلهما : الحمل والفصال : قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ . . . ﴾ [لقمان : ١٤] وليس يخفى ما في الحمل والرضاع على أحد .

ثانيهما : مقامها في قانون الأمومة : الذي هو استعداد روحي تنفرد به الأمّ دون الأب ، وبوساطته يُحيي الله في إنسانية الولد ـ جنيناً وغير جنين ـ ملكةً تجعل صلته بأبويه صادقة التعظيم لهما ، وهو ما يشير إليه قول الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً . . . ﴾ [النحل : ٧٢] ، وفي الحَفْد معنى الخِفّة في العمل والإسراع والخدمة والتعظيم[١] ، فالحَفَدَةُ هم الأولاد الذين يجدون في أنفسهم من الولاء والتعظيم لوالدِيهم ما يحبّب إليهم خدمتهم والمبادرة لطاعتهم ومرضاتهم طاعة وتقرباً إلى الله سبحانه ، لقول الله جلّ وعلا : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ـ ٢٤] .

ـ وأمّا تكريمها بنتاً لا تزال تحت وصاية أبويها أو أوليائها ، فيتمثّل في تحريم وأدها ـ كما ذكرنا ـ ، وفي مثل وصايا الرسول ﷺ إذ يقول : (من كان له ثلاثُ بنات فصبر على لأَوائِهنَّ وضرّائهنَّ وسرّائهنَّ ، أدخله الله الجنّة بفضل رحمته إيّاهنّ . فقال رجل : أو

(١) ومنه في دعاء القنوت : (وإليك نسعى ونحفد) .

اثنتان يا رسول الله ؟ قال : أو اثنتان . فقال رجل : أو واحدة يا رسول الله ؟ قال : أو واحدة)[١] . وقول النبي ﷺ : (من كانت له أنثى فلم يَئِدْها ، ولم يُهِنْها ، ولم يُؤْثِر ولده عليها ، أدخله الله الجنّة)[٢] .

من أجل هذا يغدو شعور المرأة بأنها غير مرغوب فيها آخر أمر يجوز أن يطوف في خَلَدِ المرأة المسلمة ، ولولا اختفاء جوهر الدِّين وراء التقاليد لما بقي لهذا الشعور حتّى الآن محلٌّ في المجتمع الإسلامي .

ـ وأمّا تكريمها زوجاً ، فما نظنّ هناك منزلة للزوجة أسمى إنسانية من منزلة رفعها إليها الإسلام ، وصحّح بها النظرة المعكوسة التي كانت عند الجاهليين ، اقرأ إن شئت قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرُّوم : ٢١] . ولا ينسى المسلم قول رسول الله ﷺ : (خيرُكم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)[٣] ، وقول النبي ﷺ : (الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة)[٤] ، وقول المصطفى ﷺ :(ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم (٨٤٠٦) ، واللأواء : الشدّة والضيق .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في فضل من عال يتيماً ، برقم (٥١٤٦) .
(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، باب فضل أزواج النبيّ ﷺ ، برقم (٣٨٩٥) .
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، برقم (١٤٦٧) .

حفظته)[١] ، أو قوله حين شكت بعض الصحابيات أزواجهنّ عند أمّهات المؤمنين ، فقال ﷺ مخاطباً أصحابه رضي الله عنه في ذلك بفيض من اللطف والحكمة :(لقد طاف بآل محمّد نساء كثير يشكون أزواجهنّ ، ليس أولئك بخياركم)[٢] .

ـ وأمّا تكريمها جنساً فيقرّره أمثال قول رسول الله ﷺ : (حُبّب إليّ من الدنيا النساء والطيب ، وجعل قُرة عيني في الصلاة)[٣] ، وقوله ﷺ : (ما أكرم النساء إلاّ كريم ولا أهانهنَّ إلاّ لئيم)[٤] ، وقوله ﷺ : (إنهنّ يغلبنَ الكرام ويغلبهنّ اللئام)[٥] ، وقوله ﷺ في خطبة الوداع : (. . . ألا واستوصوا بالنساء خيراً. . .)[٦] .

ولقد تعهّد النبي ﷺ بنفسه ما تبقى من آثار الجاهلية ـ ونظرتها إلى المرأة ـ فقضى عليه ، وتكفّل التشريع بكلّ ما يتعلّق بمعاملتها ، وكاد ألاّ يبقي على شيء من الفكرة الجاهلية نحو المرأة ، حتّى ما كان على صعيد الشعور من ميل الوالدين إلى الذكر أكثر من الأنثى ، فإن ما رآه الناس من عمله ﷺ وما سمعوا من كلامه في هذا الموضوع حتّى أواخر حياته الشريفة قد أبرأ نفوسهم من رواسب الجاهلية وسُقْمها ، فإذا هم يتسابقون لإعزازها وبرّها وتفضيلها .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في حقوق المال ، برقم (١٦٦٤).
(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في ضرب النساء، برقم (٢١٤٦).
(٣) أخرجه النسائي في سننه ، باب حبّ النساء، برقم (٨٨٨٧).
(٤) أخرجه ابن عساكر ، عن علي رضي الله عنه .
(٥) تاريخ دمشق ج ٤٢٦/٥٣ .
(٦) أخرجه الترمذي في سننه ، باب في حقّ المرأة على زوجها ، برقم (١١٦٣) .

ومضى الصحابة الكرام رضي الله عنه ـ تلامذةُ الرسول ﷺ ـ يترسّمون في معاملة أزواجهم ما يفعله النبيّ ﷺ ؛ فقد كان مع أزواجه ليّن الجانب ، حُلو العِشرة ، كنّ يراجعنه في كثير من الأمور ، ويرددن عليه ، حتّى صِرْن القدوة للنساء .

ومن طريف ما يُروى في هذا المجال ما جَرى لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قال : (والله إنْ كنّا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً ، حتّى أنزل الله تعالى فيهنّ ما أنزل ، وقسم لهنّ ما قسم ، فبينما أنا في أمر أَأْتمِره ، إذ قالت لي امرأتي : لو صنعت كذا وكذا ، فقلت لها : ومالك أنت ولِما ههنا ؟ وما تكلّفك في أمر أريده ؟ فقالت لي : عجباً لك يا بن الخطاب ! ما تريد أن تُراجَع أنت ، وإن ابنتك ـ تعني السيّدةَ حفصة أمّ المؤمنين ـ لَتراجع رسول الله ﷺ حتّى يظلَّ يومَه غضبان . قال عمر :فآخذُ ردائي ثم أخرج مكاني حتّى أدخلَ على حفصة . فقلت لها : يا بنيّة إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتّى يظلّ يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنّا لنراجعه . فقلت : تعلمين أني أحذّرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يا بنيّة لا يَغُرَّنّك هذه التي قد أعجبها حسنها وحبّ رسول الله ﷺ إيّاها ، ثم خرجتُ حتّى أدخلَ على أمِّ سَلَمَةَ لقرابتي منها فكلّمتها ، فقالت لي أمّ سلمة : عجباً لك يا بن الخطّاب ! قد دخلت في كلّ شيء حتّى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ؟قال : فأخذتني أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها . . .)[(١)] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب في الإيلاء واعتزال النساء ، برقم (١٤٧٩) .

وقد بلغ تكريم الإسلام للمرأة أنّها تمتّعت بحرّية واسعة مارستها أوسع ممارسة في عهد رسول الله ﷺ ، نرى تلك الممارسة في مثل قصة بَرِيرَةَ الجاريةِ الضعيفة المملوكة ، زوجُها عبدٌ أسودُ اسمه مُغيث ، كان شديد التعلّق بها ، اشترتها عائشة وأعتقتها ، وكان لها بمقتضى الشرع أن تبقى عند زوجها ، أو تتركه وتعتدّ منه ، فلمّا خيّرها ﷺ اختارت نفسها وتركت زوجها ، فهام الزوج المحبُّ في سِكَكِ المدينة يطوف وراءها يترضّاها ، وهي تقول : لا حاجةَ لي فيك ، ورقّ له الرسول ﷺ وقال لها : (لو راجعتِه) فقالت : يا رسول الله تأمرني ؟ فقال : (إنما أنا أشفع) قالت : لا حاجة لي فيه . فجعل الرسول ﷺ يعجب ويقول للعبّاس : (يا عبّاسُ ألا تعجب من حبِّ مُغيثٍ بَرِيرة ، ومن بغض بَرِيرةَ مغيثاً ! ؟)[1] .

هكذا أثمر سعيُ صاحب الشريعة محمّد ﷺ في رفع شأن المرأة ، ورأت النساءُ أنفسَهنّ والرجالَ سواسية ، حتّى اعتددن بأنفسهنّ الاعتدادَ كلّه ، وحتّى كانت عائشة تستشهد بقوله ﷺ : (إنما النساء شقائق الرجال)[2] .

وتألّقت أمّهات المؤمنين ـ لا سيّما عائشةَ ـ في ظلّ التربية النبوية مثلاً وقدوةً لكلّ امرأة مسلمة بما نعمت به من عطاء الإسلام للمرأة ، فإذا لهنّ مكانةٌ عظيمة في العلم والأدب والدِّين ، حتّى قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : (ما أَشكل علينا ـ أصحابَ رسول الله ﷺ ـ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب شفاعة النبيّ ﷺ على زوج بريرة ، برقم (٤٩٧٩) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، باب الرجل يجد البلة في منامه ، برقم (٢٣٦) .

حديثٌ قطُّ فسألنا عائشة إلاّ وجدنا عندها منه علماً)[١] ، فلمّا توفّي ﷺ صارت بعده المرجع الأوّل في كلّ ما يتعلّق بالعلوم الإسلامية ، لا في المدينة فحسب ، بل في الأمصار الإسلامية كلّها ؛ إذ كان المسلمون إذا أشكل عليهم الأمر كتبوا إلى الصحابة رضي الله عنه ، فيرجع هؤلاء إلى الفقهاء والمحدّثين منهم ، وعلى رأسهم السيّدةُ عائشة . كذلك كانت نساؤه ﷺ جميعاً منبع خير لكلّ مؤمن وقدوةً لكلّ مؤمنة ، شاركن النبيّ ﷺ في ضَرّائه وسرّائه ، وظلّت بيوتهنّ مَهابط الوحي والرحمة والهدى مدّة حياته ﷺ ، فلمّا انتقل إلى جوار ربّه ، بقيت هذه البيوت مثابة للمؤمنين ومَوئلاً لمن أراد التفقّه في دين الله تعالى .

ويمضي الزمان ، وتظلّ بصيرة المؤمنين تكتشف صوراً من تكريم الإسلام للمرأة ، وحَسْبُ المرأة تكريماً أن الله عز وجل سجّل في القرآن الكريم شكوى امرأة أخذت تجادل رسول الله ﷺ في زوجها ، وأن الله كان يستمع إلى تلك الشكوى ، وأنزل فيها قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة ، فقال الله جلّ وعلا : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : ١] .

ثانياً : الأهليات التي قرّرها الإسلام للمرأة :

لم يعتبر الإسلام الأنوثة سبباً لنقص الأهلية كما رأينا في الأمم الأخرى غيرِ المسلمة ، بل قرّر لها من الأهليات ما تساوي فيه

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، باب فضل عائشة رضي الله عنها ، برقم (٣٨٨٣) .

الرجل ، بناءً على تلك الإنسانية المشتركة بين الرجل والمرأة . وأوّل هذه الأهليات :

١ـ أهلية التديّن : تثبت هذه الأهلية بنداء الله سبحانه وتعالى ومطالبته الناسَ بتكاليف التقوى ، وذلك في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ . . .﴾ [النساء : ١] والخطاب هنا متوجّه إلى المرأة قدرَ ما هو متوجه إلى الرجل باعتبار صفة الإنسانية فيها ، أي أن إنسانيتها هي التأهيل الروحي والفعلي لهذا التكليف ، ولأمرٍ ما أشرك الله عز وجل حواءَ مع آدمَ ـ عليهما السلام ـ فيما خاطبه به من أمر ونهي : ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ٣٥] .

كذلك قرّر القرآن للمرأة حرّية الاعتقاد للاستقلال عن الرجل في المسؤولية الدينية ، ولعلّ مما يدلّ على ذلك أنه كان للنساء بَيعة خاصّة في الإسلام دون بيعة الرجال ، لتدخل كلّ امرأة الإسلام من بابٍ غيرِ باب زوجها أو أبيها ، قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة : ١٢] ، فلا يجوز للرجل أن يفرض عقيدته على امرأة ، وإن القرآن ليعرِض هذه المسألة في أقوى صورها ؛ يَعرض الرُّسل الذين جاؤوا ليحملوا الناس على منهج الله ، فالمتصوَّر أن الأولى لهم أن يحملوا زوجاتهم عليه ، ومع ذلك قدّم لنا القرآن صورة نوح ولوط ـ عليهما السلام ـ وقد عجزا عن إقناع

أزواجهما بمنهج الله وظلّتا مخالفتين له : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] .

والإسلام إذ يقرّر حرية الاعتقاد للمرأة يفعل ذلك ابتداء من أن الاعتقاد سيُلزمها بمنهج ، فإذا لم تكن مرتبطة بالعقيدة باختيارها وبطواعيتها ، فإن إقبالها على المنهج عموماً غيرُ مأمون بغير رقيب .

وبناء على تلك المسؤولية جُعلت المرأة مع الرجل في ميزان الثواب والعقاب الأخرويين على درجة سواء ؛ كلٌّ حسب عمله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] . وفي مجال العقاب قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٨] . ويؤكّد القرآن الكريم هذا المبدأ في الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] ، فالآية تُصرّح بمسؤولية المرأة عن عملها مسؤولية خاصّة كاملة ، خصوصية مسؤولية الرجل عن عمله وكمالها .

ولقد بلغ احترام الإسلام لأهلية المرأة الدينية أن قرّر القرآن أن المرأة محلٌّ اصطفاء الله سبحانه كالرجل تماماً ، محلٌّ لأن يَخصّها الله

سبحانه بشيء ؛ كما اصطفى مريم عليها السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] ، واصطفى أمّ موسى وأوحى لها بأمور : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

٢ـ الأهلية الاجتماعية : وهي ثاني الأهليات ، وتعتمد على الأهلية الأولى ؛ لأن المرأة إذا كانت مسؤولة عن عملها مسؤولية كاملة ، فإن هذه المسؤولية الكاملة تقتضي الحرّية في العمل حرّية كاملة ؛ إذ لا مسؤولية حيث لا حرّية ، فالمرأة في الإسلام حرّة التصرف في حقِّ نفسها ، إذا بلغت وظهرت عليها علامات الرشد وحسن التصرّف ، فتزول عنها ولاية وليّها أو الوصيِّ عليها ، فيكون لها التصرّفُ الكامل بشؤونها المالية والشخصية :

أ ـ فلها اختيار المكان الذي تقيم فيه ما دامت ذات عقل وعفّة مأموناً عليها . قال الشيخ أحمد إبراهيم في كتابه (الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية) : (. . . والأنثى إذا بلغت مبلغ النساء ؛ فإذا كانت بِكراً أو شابّة أو ثيّباً غيرَ مأمون عليها ، فلأبيها أو من يقوم مقامه من الأولياء والمحارم المأمونين عليها أن يحفظها عنده جبراً عنها ، وإن كانت بكراً ودخلت في السنّ واجتمع لها رأيٌ وعفّة ، أو ثيّباً مأمونة على نفسها ، فليس لأحد من أوليائها أن يجبرها على الإقامة عنده ، فإذا تزوّجت أوجب الشرع عليها أن تتبع الزوج لاعتبارات معلومة عادلة) .

ب ـ ولها حقّ قبول أو رفض من جاء يطلب يدها ، يقول الرسول ﷺ :(الأيّم أحقّ بنفسها من وليها ، والبكر تُستأذن في نفسها وإذنها صُماتها)[١] .

جـ ـ ثم هناك حقّ المرأة في التعلّم ، بل هو فريضة عليها في الحدود الضرورية لها في شؤون دينها ، فما زاد على ذلك فحقٌّ مباحٌ لها ، لقوله ﷺ : (طلب العلم فريضة على كلّ مسلم)[٢] ، وهو هنا يشمل الرجل والمرأة باتّفاق علماء الإسلام . وكانت الشِّفاء تُعَلِّم أمَّ المؤمنين حفصةَ تَحسين الخطّ وتزيينه ، كما أمرها بذلك الرسول ﷺ ، ويدخل في هذا التعليم إعدادُهنّ لتبعات الحياة الأساسية .

وقد أحسّت المرأة في عصر التنزيل ـ نتيجة لهذا الحثّ ـ بحاجتها إلى العلم ، حتّى روى أبو سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال : (جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلّمنا ممّا علّمك الله . فقال : (اجتمعن في يوم كذا وكذا ، في مكان كذا وكذا) . فاجتمعن ، فأتاهن رسول الله ﷺ فعلّمهن ممّا علّمه الله . . .)[٣] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ،باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت ، برقم (١٤٢١) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ، باب فضل العلماء والحثّ على طلب العلم ، برقم (٢٢٤) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب تعليم النبيّ ﷺ أمّته من الرجال والنساء مما علمه الله ، برقم (٦٨٨٠) .

هكذا بلغ حرص المرأة المسلمة على العلم غايته حتّى طلبن المجالس الخاصّة بهنّ للتعليم ، مع أنهنّ كنّ يستمعن في المسجد لتعليمه ومواعظه عليه الصلاة والسلام .

كذلك نجد النبيّ ﷺ قد سنّ للنساء سنّة مؤكّدة هي شهود مجامع الخير يتزوّدن منها . تقول أم عَطيّة الأنصارية : أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهنّ في الفطر والأضحى ؛ العواتق[١] والحُيّض وذوات الخدور . فأمّا الحيّض فيعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين . قلت : يا رسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب . قال : (لتلبسْها أختها من جلبابها)[٢] . قال د . نور الدين عتر : « ولا يخفى ما في هذا الأمر المؤكّد من التكريم للمرأة والعناية برفع مستواها ، وحضّها على الخروج لشهود الخير العظيم ، وللتثقف بالثقافة الإسلامية » .

ويجب أن نعلم أن الإسلام لم يُحرّم عليها تعلّم أيّ نوع من أنواع العلم النافع ، وهي في هذا كالرجل سواء بسواء ؛ فلها أن تتعلّم الطِّبّ والصيدلة وعلوم الفضاء والزراعة والصناعة والتجارة. . . ، فقد أباح لها الإسلام التعلّم بمختلف أنواعه ومراحله .

د ـ ولعلَّ من أبرز معالم الأهلية الاجتماعية مكانةً ـ لم تقرّر للمرأة في شريعة قديمة أو حديثة ـ أن الإسلام جعل لها حقّ أن تجير في

(١) العاتق : البنت البالغة ، والتي قاربت البلوغ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ،باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلّى وشهود الخطبة ، برقم (٨٩٠) .

الحرب أو السلم من أرادت من غير المسلمين .

فلقد بلغت مكانة المرأة في الإسلام أن كانت تُجير على المسلمين فيحترمون جِوارها . قالت عائشة : (إنْ كانت المرأة لَتجير على المؤمنين فيجوز)[١] ، وهذه أمّ هانىء بنت أبي طالب تجير رجلاً من المشركين ، فأبى أخوها عليٌّ رضي الله عنه إلاّ أن يقتله ، فأسرعت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، زعم ابن أمّي عليٌّ أنه قاتلٌ رجلاً قد أجرتُه فلان بن هُبَيرة . فقال ﷺ : (قد أجرنا من أجرتِ يا أمّ هانىء)[٢] . هذا والإجارةُ أشبه شيء بإعطاء ما يُسمّى اليوم حقّ اللجوء السياسي . وحسبك به حَقّاً أعطاه الإسلام للمرأة لم يُعطها إيّاه إلى الآن أيّة شريعة أو قانون في بقعة من بقاع الأرض .

٣ـ الأهلية المالية أو الاقتصادية : وأوّل صورها حَقُّ الملكية الفردية الذي قرّره الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ . . . ﴾ [النساء : ٣٢] ؛ وذلك أنه إذا كانت المرأة في نظر الإسلام أهلاً للتكليف الإلهي بعبادة الله تعالى وفعل الخير ، فأولى أن تكون أهلاً لما دون ذلك من القيم الاقتصادية على اختلاف أنواعها ، وعلى رأسها الملكية الفردية ، وإذا كانت حرّة التصرف في حقّ نفسها ـ وهو أسمى الحقوق وأصلها ـ فَلأَنْ تكون حرّة التصرف في العمل والمال ـ وهو أهون ـ من باب أَولى . والمتتبّع لأحكام الفقه الإسلامي لا يجد فرقاً بين أهلية الرجل والمرأة في شتّى

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في أمان المرأة ، برقم (٢٧٦٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب أمان النساء وجوارهنّ ، برقم (٣٠٠٠) .

أنواع التصرّفات المالية كالبيع والإقالة والخيارات والسَّلَم والصّرف والشُّفعة والإجارة والرهن والقِسمة والبيّنات والإقرار والوِكالة والكَفالة والحوالة والصُّلح والشّركة والمضاربة والوديعة والهبة والوقف والعَتق وغيرها[١] ، ولها أن تمارس ذلك كلّه بنفسها أو بمن توكّله عنها باختيارها ، كما جعلها صاحبة الحقّ المطلق على مِلكها الذي حصلته بكافّة أسباب التملّك إرثاً أو مَهْراً أو تجارة أو هبة . وهذا المستوى في الكمال في الأهلية الاقتصادية لم تصل إليه المرأة في كثير من دول أوروبا إلى عهد قريب ؛ فبعضها يجعل الميراث لأكبر وارث من الذكور ، وبعضها يجعل إذن الولي ضرورياً لتوقيع أيّ تعاقد للمرأة بشأن المال ، ويجعل إذن الزوج ضرورياً لكلّ تصرف مالي من الزوجة في مالها الخاصّ ! وذلك بعد ثورات المرأة وحركاتها الكثيرة ، وما نشأ عنها من فساد في نظام المرأة كلّه وفي نظام الأسرة ، وفي الجوّ الأخلاقي العامّ . فأمّا الإسلام فقد منحها هذا الحقّ ابتداءً وبدون طلب منها ، وبدون ثورة ، وبدون جمعيات نسوية ، وبدون عضوية برلمان ، منحها هذا الحقّ تمشّياً مع نظرته العامّة إلى تكريم الإنسان جملة ، ذكراً كان أو أنثى .

ولا نشكّ أن من لوازم حرّية التصرّف في المال حقَّ العمل والحريّة فيه ؛ إذ كيف يُباح لها التصرّف في المال تجارة أو زراعة أو صناعة ثم يكون العمل محرّماً عليها ؟! . وأمّا الحجاب المفروض عليها فلا يستدعي تحريم مزاولة العلم عليها أو اضطلاعها بوظيفة ، ما تحلّت

---

(١) تفصيل ذلك كلّه في كتب الفقه .

بآداب الإسلام ووقفت عند حدوده ، وما استطاعت التوفيق بينه وبين مسؤوليتها بصفتها راعيةً في بيت زوجها .

ثالثاً : التشريعات التي شرعها الإسلام للمرأة :

كثرت التشريعات المتعلّقة بالمرأة في القرآن الكريم والسنّة المطهرة كثرةً تُوحي بحرص الإسلام على المرأة وصيانته لحقوقها وكرامتها من جَوْر الأعراف وتقلّبات الأحوال على مرّ الدهور وكرّ الليالي من جهة ، وصيانته للأسرة التي أرادها الله أن تكون قاعدة للحياة البشرية من جهة أخرى . والبيت هو مجتمع الأسرة ، وهو المثابة والسكن ؛ في ظلّه تنبت الطفولة وتدرج الحداثة ، ومن سماته تأخذ سماتها وطابعها ، وكم من أحداثٍ أثّرت في مسير التاريخ ، تكمن بواعثها الخفية في مؤثرات بيتية .

والفرد الذي لا يستمتع في بيته بالسلام لن يعرف للسلام قيمة ، ولن يكون عامل سلام وفي نفسه صراع ، وليس من الممكن أبداً أن يقوم في البيت سلام والمرأة تَلْقَى فيه جَوراً أو مهانة ، كما لا يمكن أن يقوم لبناء الأسرة أو للسلام فيها قائمة ما لم تخضع العلائق فيما بين أفرادها لقوانين عادلة رحيمة ، تراعي استعداد كلّ فرد فيها والوظائف التي أنيطت به بحسب ذلك الاستعداد ، ويكون لها سلطانها على النفوس ، وهذه الصفات لا تتوفّر في قوانين أو تشريع ما لم يكن من عند الله سبحانه ، ومن هنا تأتي أهمّية التشريعات المتعلّقة بالأسرة في الإسلام .

وأوّل هذه التشريعات ما يتعلّق بأساس الأسرة :

١ـ الزواج :

الزوجية نظام أزلي يلتئم به شمل كلّ شيء ، ويصلح عليه وجوده ، وتخرج به ثماره ، قال الله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات : ٤٩] . وقال الله جلّ وعلا : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم : ٢١] . ويتبيّن من مجموع الآيتين أن الإسلام يعدّ الزواج ضرورة فطرية للفرد لسَكَنِ النفس ، وسبيلاً يدرج فيه الحبّ والتراحم في المجتمع ، وسبيلاً كذلك إلى حفظ التناسل . من أجل هذا كلّه دعا إليه الله سبحانه بمثل قوله : ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ . . .﴾ [النور : ٣٢] ، وقال ﷺ : (يا معشرَ الشباب من استطاع الباءة فليتزوّج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وِجاء)[١] . فالإسلام يَعُدُّ الزواج ـ إلى جانب ما تقدّم ـ وسيلة للعفّة والارتفاع الخلقي .

على أن الإسلام لم يكتف بالتشجيع على الزواج ورفع العوائق من الطريق إليه[٢] ، بل أتبع ذلك بالتنظيمات والضمانات التشريعية :

وأوّلها : الرضا والاستئذان ، لقول النبي ﷺ : (لا تُنكح الأيّم حتّى تُستأمر ، ولا تُنكح البِكر حتّى تستأذن) قالوا : يا رسول الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب من لم يستطع الباءة فليصم ، برقم (٤٧٧٩) .
(٢) كالعائق الاقتصادي ، أو زعم الحفاظ على الصفاء الروحي ، وغير ذلك .

وكيف إذنها ؟ قال : (أن تسكت)[١] ، والرضا يستوجب الرؤية بلا شكّ ، ولو مراراً بحضور الولي أو غيره من الأهل .

وثانيها : العلانية والإشهاد : ولا بدّ من إيجاب وقَبول صريحين يشهد عليهما الشهود ، حتّى ليُستحبّ دقُّ الطبول لهذه المناسبة زيادة في الإعلان ، لقول رسول الله ﷺ : (أعلنوا هذا النكاح ، واجعلوه في المساجد ، واضربوا عليه بالدفوف)[٢] .

وثالثها : نيّة التأبيد لا التوقيت : فإذا نوى أحد الزوجين أو صرّح بأن يكون هذا الزواج موقوتاً بزمن لم ينعقد ؛ لأن هذا الارتباط مقصود به السَكَن والاستقرار .

رابعها : المهر : وهو تعبير عن رغبة الرجل فيها ، ورمز لتكريمها وإعزازها ، وقديماً صرّح الفقهاء بهذا بقولهم : « المهر فرض شرعاً لإظهار خطر المحلّ » ، فهو إذن ليس ثمناً للمرأة ، وإنما هو عَطِيّةٌ من الله للمرأة ، ليست مقابل شيء يجب عليها إلاّ الوفاءَ بحقوق الزوجية ، كما أنها لا تقبل الإسقاط ـ ولو رضيت المرأة ـ إلاّ بعد العقد ، لقول الله تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾ [النساء : ٤] .

وخامسها : النفقة : التي أوجبها على الرجل ، وجعلها فريضة كي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلّا برضاها ، برقم (٤٨٤٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، باب إعلان النكاح ، برقم (١٠٨٩) .

يتاح للأمّ من الجهد والوقت ومن هدوء البال ما تشرف به على بيتها وأولادها .

وسادسها : قوامة الرجل : وفي سبيل الاستقرار البيتيّ وقطعاً لدابر الفوضى والنزاع فيه ، جعل الإسلام القِوامة فيه للرجل ، وذلك تمشّياً مع سياسة الإسلام في تنظيم لقاء الناس واجتماعهم ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : (إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمّروا أحدهم)(١) .

وثمّة إرشاداتٌ أرشد إليها الإسلام حتّى يُؤتي الزواج ثماره التي أرادها الله منه ، منها أن تكون الزوجة المختارة أو الزوج المختار ممّن يتوقّع أن يحقّقوا هذه الثمار ، كما أرشد إليه رسول الله ﷺ بقوله : (. . .فاظفر بذات الدِّين تربت يداك)(٢) ، وقوله ﷺ : (تزوجوا الوَدود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم)(٣) . كما أرشد النبي ﷺ من أجل صيانة القلوب بقوله :(لا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتّى يترك الخاطب قبله أو يأذن لها لخاطب)(٤) . ومن تلك الإرشادات اليُسر في المهر وتكاليف الزواج ، حتّى لقد زوّج الرسول ﷺ رجلاً بما معه من القرآن . واستنّ الصحابة والتابعون رضي الله عنه بسنّته ﷺ ، حتّى زوّج سعيد بن المسيب ابنته لتلميذه ابن أبي وداعة على

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في القوم يسافرون يؤمّرون أحدهم ، برقم (٢٦٠٩) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب الأكفاء في الدين ، برقم (٤٨٠٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ،باب من تزوج الولود ، (٢٠٥٠) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب لا يخطب من خطب أخيه حتّى ينكح أو يدع ، برقم (٤٨٤٨) .

درهمين ، وقد خطبها الخليفة لولي عهده فأبى[١] .

وسابعها : الحدود التي رسمها الإسلام لحقوق كلّ من الزوجين وواجباته :

أـ حقوق الزوجة :

الأوّل : النفقة : وهو فرض واجب على الرجل لقوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ . . . ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

والثاني : إحسان العِشرة : لقوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] . وما أعظم قولَ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه لامرأة أرادت مفارقة زوجها لأنها تبغضه : (. . . ليس كلّ البيوت تبنى على الحبّ ، ولكنْ معاشرةٌ على الأحساب والإسلام)[٢] . ومن مظاهر حسن العشرة ألاّ يألوَ الرجل جهداً في الترفيه عن زوجته بما يُدخل السرور عليها ، ولا يتتبّعَ عَثَراتها ، ولا يتجسّس عليها ، ولا يتخوّنها ، فعن جابر رضي الله عنه : (نهى رسول الله ﷺ أن يَطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم أو يلتمس عثراتهم)[٣] .

(١) حلية الأولياء ج ١٦٨/٢ .

(٢) كنز العمال ج ٥٥٤/١٦ ، برقم (٤٥٨٥٩) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب كراهة الطروق وهو الدخول ليلاً لمن ورد من سفر ، برقم (٧١٥) .

ب ـ حقوق الزوج :

الأوّل : طاعته كلّما دعاها إلى فراشه ، لقول رسول الله ﷺ : (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتّى تصبح)[١] ، ـ على أن هذا لا يعني أن تكون المرأة أداة متعة للرجل في نظر الإسلام طالما أن الاستمتاع الجنسي ليس هو المقصود لذاته في الزواج إنما هو للإحصان والنسل ـ وعلى الرجل أن يلبّي رغبتها في هذا الصدد كما يُنفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف .

ومثلما رفض الشرع أن تكون المرأة أداة للمتعة رفض أن يحدّد الرجل النسل بغير مرضاة الزوجة .

الثاني : أن تحفظه في ماله وفي نفسها إذا غاب عنها : وقد جعل الرسول ﷺ ذلك من صفات المرأة الصالحة في قوله ﷺ : (. . . وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله)[٢] ، فأمّا حِفظه في ماله فمعناه أن تحافظ على ما جعله تحت يدها إلاّ لصدقة لا تتلف المال أو تستأصله ، قال النبي ﷺ : (إذا أنفقت المرأة من طعام بيتِها غيرَ مُفسِدَةٍ، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب. . .)[٣]. وأمّا حفظه في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ،باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ، برقم (٣٠٦٥) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ، باب أفضل النساء ، برقم (١٨٥٧) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب من أمر خادمه بالصدقة ولم يناول بنفسه ، برقم (١٣٥٩) .

نفسها فلقوله ﷺ : (. . . فأمّا حقّكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون . . .)[١] .

هكذا ضمنت هذه البنود النظام الذي خطّه الإسلام للزواج :

١ـ العدالةَ التامّة فيما فُرض لكلّ من الزوجين من حقوق وفرض عليهما من واجبات ، وذلك معنى قول الله سبحانه : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ . . . ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

٢ـ المساواةَ التي تقتضي توزيع الحقوق والواجبات بين الزوجين على سبيل التكافؤ أو المماثلة ، كما هو واضح في الآية نفسها ، حتّى يقول ابن عبّاس رضي الله عنه : (إني أحبُّ أن أتزيّن للمرأة كما أحبّ أن تتزيّن لي المرأة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ . . . ﴾)[٢] .

٣ـ التفاهمَ والتشاور بين الزوجين ، وإن لم ينصّ القرآن أو السنّة عليه صراحة ، ولكنه أمر تشمله كلمة « بالمعروف » كما تشمل حقوقاً وواجبات لكلّ من الزوجين لم يصرّح بها القرآن ، فالمعروف الذي يريده الله سبحانه يشمل العرف الذي يَجمع عاداتِ الناس وطرقَ معاملاتهم وعيشهم دون خروج على آداب الدِّين ومعتقداته ، كما يشمل معنى الرفق والإحسان في الأخذ والعطاء . وما دام الأمر قد تُرك للعرف فقد تُرك للتفاهم الذي بينها وبينه بالحسنى في أمور معاشهما جميعاً .

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، باب سورة التوبة ح (٣٠٨٧) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، ج ١٩٦/٤ ، برقم (١٩٢٦٣) .

٢ـ تعدّد الزوجات :

وقد ثبتت مشروعيته في قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء : ٣] والتعدّد نظام لم يُنشئه الإسلام بل حدّده ، ولم يَأمر به بل رخّص فيه وقيّده . إنه في الإسلام رخصة تؤدّي وظيفة صمّام الأمان في مجالها كضرورة الطلاق عند الاقتضاء ، وهي في الإسلام وقاية اجتماعية بحتة يتّقي بها أخطاراً أكبر من مزاج الأفراد ومن رغبات الزوجات والأزواج ، إنه علاج لواقع قديم وحديث :

أـ فهناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة ـ تاريخية وحاضرة ـ تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج على عدد الرجال الصالحين للزواج ، كما حصل في بعض المجتمعات بعد الحربين العالميتين ، وهنا يجيء حَلّ الإسلام للمشكلة متمثّلاً بالتعدّد ، ومستجيباً لحاجة المرأة الفطرية إلى الحياة الطبيعية ، سواء في ذلك مطالب الجسد ومطالب الروح والعقل من السَّكَن والأنس بالعشير . وليست المسألة مُجرد حاجة اقتصادية لدى المرأة تجاه الرجل ـ كما يزعم الزاعمون ـ فهذا الحلّ الذي اختاره الإسلام هو رخصة مقيّدة لمواجهة الواقع الإنساني بفطرته وضروراته متمشّياً مع واقعيته الإيجابية ، ومع رعايته للخُلُق النظيف والمجتمع المتطهّر ، وهو الحلّ الذي تأتي حلول القوانين الأرضية مطابقة له حين يهتدي أصحابها إلى رشدهم ؛ فقد تقدم أهالي « بون » عاصمة ألمانيا الاتحادية سنة ١٩٤٩م بطلب إلى السلطات المختصة يَلتمسون فيه أن

يُنصّ في الدستور الألماني على إباحة تعدّد الزوجات لزيادة عدد النساء على الرجال بسبب الحرب العالمية الثانية .

ب ـ وهناك رغبة الزوج في الإِنْسال الذي تتوقّف فترته لدى الزوجة إذا بلغت الخمسين .

جـ ـ رغبة الزوجة عن أداء الوظيفة الزوجية لمرض أو تقدّم في السن أو غير ذلك ، مع رغبة الزوجين كليهما في استدامة العشرة الزوجية وكراهية الانفصال .

د ـ ومثله حالة عقم الزوجة مع رغبة الزوج الفطرية في النسل .

فالتعدّد في هذه الأحوال جميعاً حَلّ رحيم عادل نظيف ، والإمساك على الزوجة الأولى ـ في هذا الحلّ وضمن الظروف التي عددناها ـ مروءة ونبل ، وهذا الحلّ أفضل بلا شكّ من كلّ حلّ محتمل آخر طُرح لمواجهة الحالات السابقة مثل : أن نكبت الرجل ونصدّه عن نشاطه الفطري بقوّة القانون بحجّة أن هذا لا يتفق مع حقّ الزوجة ولا مع كرامتها ، وأفضل أيضاً من أن نُطْلق الرجل يسافح من يشاء من النساء .

ومن ثم تغدو المساوىء التي ذكرها الذاكرون للتعدّد من أمثال أنه ينشىء بين الزوجات تحاسداً وتباغضاً ، ويشغل الزوج بتوافه الخصام ، وأن هذا العداء ينتقل إلى الأولاد ، وأن الرجل لا يمكنه العدل مهما حرص في النفقة والمعاملة ، ممّا يزرع في قلب الأولى عذاباً لا ينتهي ، نقول : تغدو هذه المساوىء ـ وإن كانت ذات وزن ـ أهون من تلك الضرورات التي ذكرنا . ثم أيُّ نظام لا مساوىءَ له ؟!

وأيّ شيء في الدنيا يجري كما يحبّ كلّ إنسان ويهوى ؟! على أن التديّن الصحيح يخفّف ـ بلا شكّ ـ كثيراً من هذه الأضرار .

وأما إذا انحرف جيل من الأجيال في استخدام هذه الرخصة واتخذوها فرصة للذّة الحيوانية ، فليس ذلك شأن الإسلام ، وليس هؤلاء الذين يُمثّلون الإسلام .

هذا وإن الإسلام قد شرط للتعدّد العدلَ بين الزوجات في المعاملة والنفقة والمعاشرة ، أمّا العدل في مشاعر القلوب فلا يُطالب به أحد من بني الإنسان ؛ لأنه خارج عن إرادة الإنسان ، وذلك مقتضى قول الله سبحانه : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ . . . ﴾ [النساء : ١٢٩] ، وهذا ما يَكشف الوفاق بين مضمون الآيتين ، فإن عَرف الرجل من نفسه عدم القدرة على العدل أو خاف من عدم تحققه فواجبه أن يَلزم قوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً . . . ﴾ [النساء : ٣] .

هذا وقد كان للإسلام أثر إصلاحي كبير في التعدّد ؛ فقد قَصره على أربع وكان في الجاهلية بلا حدود ، وشدّد فيه على العدل بين الزوجات ، وربّى ضمير الزوج المسلم على خوف الله ومراقبته ، وكلّ ذلك ممّا يجعل التعدّد ـ حين تقتضيه ظروف الإنسان الشخصية أو ظروف المجتمع العامّة ـ قليلَ المساوىء والأضرار .

٣ـ الطلاق :

إن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار ،

والإسلام يُحيط هذه الرابطة بكلّ الضمانات التي تكفُل استقرارها واستمرارها ، وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعة ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات ، ويفرض الآداب التي تمنع الفتنة كي تستقرَّ العواطف وتهدأ القلوب عن التَّلفُّت ، وهو يَفرض حدّ الزنى وحدّ القذف ، ويَجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها ، والاستئذان بين أهلها في داخلها ، وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محدّدة ، ويقيم نظام البيت على أساس القِوامة منعاً للفوضى والاضطراب والنزاع ، . . . إلى آخر هذه الضمانات والتنظيمات الواقية من كلّ اهتزاز ، فضلاً عن التوجيهات العاطفية ، وفضلاً عن ربط هذه العلاقة كلّها بتقوى الله ورقابته .

ولكن هناك حالاتٍ تتعذّر فيها الحياة الزوجية بالرغم من جميع الضمانات والتوجيهات ، ويصبح فيها الإمساك بالزوجية عبثاً لا يقوم على أساس .

والإسلام لا يَفصم رباط الزوجية لأوّل بادرة من خلاف ، وإنما يدعو إلى المصابرة حتّى في حالة الكراهية ، فهو يخاطب الرجال بقول الله سبحانه : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ١٩] ، حتّى إذا تفاقم الأمر وبلغ النشوز أو الشِّقاق[(١)] ، لم يكن الطلاق أوّل خاطر يهدي إليه الإسلام ، وإنما يُعالج الإسلام كلاًّ من الحالتين بأساليب حكيمة

---

(١) إذا ظهر الخلاف من قِبل الزوج أو الزوجة فكلاهما ناشز ، وإن ظهر الخلاف من كليهما معاً فهذا هو الشقاق .

رسمها بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٣٤] .

إن هذه الإجراءات كلّها هي عمل وقائي حماية للأسرة من الدمار ، لا لتحطيم رأس المرأة وإذلالها حين تهمّ بالنشوز ، فهذا قطعاً ليس من الإسلام ، إنما هو تقاليد بيئية في بعض الأزمان ، نشأت مع هوان الإنسان كلّه ، لا هوان شطر منه بعينه . وقد أُبيحت هذه الإجراءات لمعالجة أعراض النشوز قبل استفحالها ، وأحيطت بالتحذيرات من سوء استعمالها فور تقريرها وإباحتها ، وتولّى الرسول ﷺ بسنّته العملية في بيته مع أهله وبتوجيهاته الكلامية علاج الغلوّ هنا وهناك ، وتصحيح المفهومات في أقوال كثيرة ، منها قول رسول الله ﷺ : (لا تضرِبوا إماء الله) فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : ذئرن النساءُ على أزواجهنّ ! فرخّص رسول الله ﷺ في ضربهنّ ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثير يشكون أزواجهنّ ، فقال رسول الله ﷺ : (لقد طاف بآل محمّد نساء كثير يشكون أزواجهنّ ، ليس أولئك بخياركم)[١] ، وقال ﷺ : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)[٢] .

ومع ذلك فقد جُعل لهذه الإجراءات حدٌّ تقف عنده ، متى تحقّقت

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في ضرب النساء ، برقم (٢١٤٦) . ذئرن : اجترأن ونشزن وغلبن .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، باب في فضل أزواج النبيّ ﷺ ، برقم (٣٨٩٥) .

الغاية عند مرحلة من مراحل هذه الإجراءات ، فقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ﴾ [النساء : ٣٤] .

ب ـ فإن خُشي النشوز من الزوج ففي هذه الحالة أنزل الله سبحانه قوله : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٨] . وفيه حلّ لحالة النشوز والإعراض حين يُخشى وقوعها من ناحية الزوج فتهدّد أمن المرأة وكرامتها وأمن الأسرة كلّها كذلك .

ولا عجب فإن القلوب تتقلّب والمشاعر تتغيّر ، والإسلام يعالج كلّ جزئية في الحياة ، فإذا خشيت المرأة أن تصبح مَجفوة وأن تؤدّي هذه الجَفْوة إلى الطلاق ـ وهو أبغض الحلال إلى الله ـ أو إلى الإعراض الذي يتركها كالمعلّقة ، فليس هناك حرج عليها ولا على زوجها أن تتنازل له عن شيء من فرائضها المالية أو الحيوية ؛ كأن تترك له جزءاً أو كلاً من نفقتها الواجبة عليه ، أو تترك له قسمتها وليلتها إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها ، وكانت هي قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية . هذا كلّه إذا رأت هي ـ بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها ـ أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها ، وهذا هو « الصلح » الذي أشارت إليه الآية المباركة .

هكذا تبدو وسطية الإسلام في إحدى مظاهرها ؛ إذ هو دين الفطرة يتعامل مع الإنسان من حيث هو إنسان ، والقرآن في هذا المجال يَنصّ على إحدى خصائص هذا الإنسان ، بقول الله سبحانه : ﴿ وَأُحْضِرَتِ

ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ فالشحُّ حَاضر دائماً في الأنفس بأنواعه : الشحُّ بالمال ، والشحّ بالمشاعر . وقد تترسّب في حياة الزوجية أو تعرض أسباب تستثير هذا الشح في نفس الزوج تجاه زوجته ، فيكون تنازلها له عن شيء من مؤخَّر صداقها أو من نفقتها إرضاء لهذا الشحّ بالمال أو تنازلها عن ليلتها لضرتها إرضاء للشحّ العاطفي ، وفي ذلك كلّه استبقاء لعقدة النكاح ، والإسلام في الحالين لا يجبر المرأة بل يمنحها حرّية النظر في أمرها وفق ما تراه .

ومع كلّ هذه الإجراءات لا يدع القرآن الكريم أن يخاطب ضمير الزوجين بقول الله سبحانه : ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٨] .

ـ فإذا رُئي أن استخدام هذه الإجراءات قد لا يجدي ، بل سيزيد الشُّقة بُعداً والنشوز استعلاناً ، أو أدّى ذلك الاستخدام إلى غير نتيجة ، كان الإجراء الذي أشار إليه القرآن الكريم استنقاذاً للأسرة من الانهيار بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء : ٣٥] ؛ حكماً من أهله يرتضيه ، وحكماً من أهلها ترتضيه ، يجتمعان في هدوء ، طليقين من المؤثّرات التي أفسدت الأمور بين الزوجين ، حريصَين على سمعة أسرتَي الزوجين ، مشفقين على الأطفال الصغار ، بريئين من الرغبة في غلبة أحدهما على الآخر ، راغبين في خير الزوجين ومؤسّستهما المهدّدة بالدمار ، مؤتمنين في الوقت نفسه على أسرار الزوجين لأنهما من أهلهما ،

وهما بذلك كلّه يريدان الإصلاح بين الزوجين ، فيقدّر الله بينهما الصلاح والتوفيق : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ . فإذا تفاقمت الأمور بين الزوجين وتجاوز الخلاف بينهما هذه الوساطة ، وصار إمساك الزوجية على هذا الوضع محاولة فاشلة يزيدها الضغط فشلاً كان من الحكمة إنهاء هذه الحياة على كُره من الإسلام ، لقول رسول الله ﷺ : (أبغض الحلال إلى الله عزّ وجلّ الطلاق)(١) . وهنا يأتي التوجيه الإلهي : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ . . . ﴾ [النساء : ١٣٠] ؛ فإمّا أن يحاول كلّ منهما أن يبدأ حياة زوجية جديدة ، وذلك أعفّ وأصون لكلّ منهما وأقرب إلى ما أراده الله سبحانه من امتداد الحياة لا تجميدِها ، أو لعلّ هذه الفُرْقة نفسَها تثير في نفس الزوجين رغبة جديدة لمعاودة الحياة ، وكثيراً ما نرى حسناتِ الشيء عندما نحرمه ، وفرصة التلاقي من جديد لم تزل قائمة بقوله تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وقد عيّن الشرع وقتاً لإيقاع الطلاق كمحاولة أخرى لاستمرار الحياة الزوجية ، فلا يجوز الطلاق إلاّ في حالة طُهر من حيض لم يقع بينهما فيه وطء ، أو حاملاً بيّنة الحمل ، لقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾ [الطلاق : ١] . والحكمة في هذا التوقيت إرجاء إيقاع الزواج ،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في كراهية الطلاق ، برقم (٢١٧٨) .

فلعلّ النفس تسكن خلال مرحلة التريث حتّى الطُّهرِ إن كانت الفورة طارئة ، وفي حالة تبيّن الحمل قد يُمسك الرجل عن الطلاق إن علم أن زوجته حامل . وتلك أوّل محاولة لرأب الصدع في بناء الأسرة . وأمّا الأمر بإحصاء العدّة فذلك حتّى لا يطولَ الأمد على المطلقة فتضارَّ بمنعها من الزواج بعد العدّة ، أو تنقصَ المدّة فلا تتحقّقَ براءة رحمها من الحمل حفظاً للأنساب .

وتقضي المطلقة فترة العدّة في بيت الزوجية ، ولا تُخرج منه إلاّ في حالة وقوع فاحشة ظاهرة منها[1] ، وذلك لإتاحة الفرصة للرجعة واستثارة عواطف المودّة وذكريات الحياة المشتركة ، فإن وقعت الفاحشة فلا مجال لاستجاشة المودّات ولا حاجة إلى استبقائها في فترة العدّة .

وأما العِدّة فثلاثة قروء[2] للتي تحيض وتلد ، وثلاثة أشهر للآيسة والصغيرة ، ومدّة الحمل للحوامل ، لقول الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ . . . ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، وقوله جلّ وعلا : ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٤ـ٥] .

وأمّا الإنفاق في مدّة العدّة فبحسب مقدرة الأزواج ، وأمّا الرضاعة

(١) والفاحشة هنا قيل هي الزنى ، وقيل إيذاء الزوج أو أهله .

(٢) أي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف بين الفقهاء .

فلم يجعلها الإسلام واجباً على الأمّ بلا مقابل ، فمن حقّها أن تنال أجراً على الرضاعة تستعين به على حياتها وعلى إدرار اللبن للصغير ، فإن تعاسر الزوجان ولم يتفقا بشأن الرضاعة وأجرها ، فالطفل مكفول الحقوق بقوله تعالى : ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق : ٦] ، فلا يكون فشلهما في حياتهما نكبة على الصغير .

فإذا شارفت مدّة العدّة على الانتهاء فالزوج مخيّر بين أمرين : ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق : ٢ ـ ٣] ، وبلوغ الأجل آخر مدّة العدة ، وللزوج ـ ما دامت المطلّقة لم تخرج من العدّة ـ أن يراجعها فتعود إلى عصمته وهذا هو إمساكها ، أو أن يدع العدّة تمضي فَتَبِينُ منه ، ولا تحِلّ له إلاّ بعقد جديد .

وسواء راجع أم فارق فهو مأمور بالمعروف فيهما ، منهي عن المضارّة ؛ كأن يراجعها ليبقيها كالمعلّقة ، ويكايدها لتفتدي منه نفسها . وكذلك هو مَنهي عن المضارَّة في الفراق بالسبّ والغِلظة في القول ؛ فهذه الصلة تقوم بالمعروف وتنتهي بالمعروف استبقاء للمودّات ؛ فقد تعود العشرة بينهما فلا تنطوي على ذكرى موجعة ، وذلك هو الأدب الإسلامي على كلّ حال .

وفي حالتي الفراق أو الرجعة تُطلب شهادة اثنين من العدول قطعاً للريبة ؛ فقد يعلم الناس بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة ، فتثور الشكوك

وتكثر الأقاويل ، والإسلام يُريد الطهارة في هذه العلاقات وفي ضمائر الناس وألسنتهم على السواء .

وهذه الأحكام الإلهية يدعمها في نفوس المؤمنين توجيهاتٌ ربّانية في هذا المجال لتزيد رقابة الله خلال إجراءات الطلاق ، لِتُلَطِّفَ أجواءه وتخفّف من آثاره الأليمة في نفوس الطرفين ؛ من مثل قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ . . . ﴾ [الطلاق : ٢ـ٣] .

ـ وأمّا عدد الطَّلَقاتِ فقد قيّده الشرع بقول الله تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ . . . ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، وللزوج أن يراجعها في العدّة ، أو يعيد زواجها في حالة البينونة الصغرى[١] ، فإن كانت البينونة كبرى فلا عودة بعدها إلاّ أن ينكحها زوج آخر ؛ ذلك أن الطلقتين الأُوْليين امتحانان لصلاح الحياة بعدهما بين الزوجين ، وإلاّ فالطلقة الثالثة دليل على خلل في الحياة الزوجية لا تصلح معه حياة . وهنالك يكون التسريح بإحسان لا إيذاء فيه ، تمضي بعده الزوجة إلى خطٍّ جديد في الحياة : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ . . . ﴾ [النساء : ١٣٠] .

ـ ولا يحلّ للرجل أن يستردّ شيئاً من صَداقٍ أو نفقةٍ أنفقها في أثناء الحياة الزوجية ، إذا تمّ الطلاق بإرادته لعدم صلاح حياته مع زوجته وهي غير راغبة في الطلاق ، أمّا إن كان الطلاق بطلب من الزوجة

(١) إذا انقضت العدّة من غير أن يراجعها الزوج ، فإنها تبين منه بينونة صغرى . وذلك في حال الطلقتين الأُولَيين . أمّا في حال الطلقة الثالثة فالبينونة كبرى .

والزوج غير راغب فيه ؛ كأن تجد نفسها كارهة له لا تطيق عشرته ، وتحسُّ أنَّ كُرهها سيقودها إلى الخروج عن حدود الله في حُسن العشرة ، فللزوج في هذه الحالة أن يُطالبها بالتعويض عن هدم أسرته بلا سبب متعمّد منه برَدِّ الصَّداق أو بردّ نفقاته عليها كلِّها أو بعضها[(١)] ، وهذا ما يسمّى بالخلع .

وبهذا يتبيّن أن تشريع الطلاق ـ على الصورة التي رسمها الإسلام ـ هو التيسير على الرجل والمرأة معاً إذا لم يكتب لالتقائهما النجاح والاستقرار ، فالله الخبير لم يُرِدْ أن تكون هذه الرابطة بين الزوجين سجناً لا سبيل إلى الفكاك منه مهما نبت فيه من الشوك ، إنما أرادها سكناً وأمناً . فإذا لم تتحقّق هذه الغاية ، فالأَوْلَى أن يتفرّقا وأن يحاولا هذه المحاولة مرّة أخرى ، وذلك بعد استنفاذ جميع الوسائل لاستنقاذ هذه المؤسّسة ، ومع إيجاد الضمانات التشريعية والشعورية كي لا يُضارّ زوجٌ ولا زوجةٌ ولا رضيعٌ ولا جنين .

٤ ـ الحجاب :

ومن التشريعات التي كرّم الإسلام بها المرأة وصانها تشريعُ الحجاب ، والمقصود به أن تحجب المرأة ما قد يبدو منها من مظاهر الفتنة والإغراء عن الرجال الأجانب عنها ، بقطع النظر عن أي لباس أو كيفية معيّنة يتمّ بها ذلك ، وقد شرعه الله سبحانه صيانة للأسر أن

---

(١) أمّا إن كان الدافع إلى طلب المرأة للطلاق هو ظلم الزوج أو نشوزه وتعذّر الإصلاح بالوسائل الممكنة ، فإن على القاضي أن يحقّق رغبة المرأة في الطلاق ، دون أن تخسر شيئاً من مهرها أو حقوقها المشروعة .

تنهدم ، وحفظاً على السلام والاستقرار فيها ، وعلى تماسك العلاقة بين ركنيها . وقد ثبتت مشروعية الحجاب وما يحقّ للمرأة أن تبدو فيه أمام غير المحارم من الرجال بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

وقد استنتج العلماء من الآيتين معاً أن حجاب المرأة يجب أن يشملها جميعاً بثوب سابغ ساتر لجسمها ، وأن تغطي رأسها وجيبها ـ وهي فتحة الصدر من الثوب ـ فلا يبدو منها سوى الوجهِ والكفّين ، وهو معنى قوله سبحانه : ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ ﴾ ، والرسول ﷺ يقول مخاطباً أسماء بنت أبي بكر : (يا أسماء إنّ المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلاّ هذا وهذا) وأشار إلى وجهه وكفّيه[(١)] . وليس يتعيّن في الشرع بعد ذلك ساتر معيّن في شكله أو لونه ، إذ المهمّ أن يتحقّق الستر وتنتفي الفتنة ، وعلى ذلك اتّفاق

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب فيما تبدي المرأة من زينتها ، برقم (٤١٠٤) .

جمهور علماء المسلمين وأئمّتهم .

وهذا التحشّم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة ، ومن ثمّ يُبيح القرآن تركه عندما يأمن الفتنة ؛ فيستثني النساء اللواتي طعنَّ في السن وذلك لأمن الفتنة ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٠] .

على أنّ هذا الحجاب في حدوده وكيفيته ما كان يوماً عائقاً صَدَّ المرأة عن أداء واجب أو تحصيل حقٍّ ـ كما زعم بعضهم ـ إنما كان وسيظلّ خير سبيل يُمكّنها من أداء رسالتها على خير وجه ؛ وهذا تاريخ المرأة بين أيدينا(١) يُحدّثنا أن آلافاً من أعلام النساء على مرّ التاريخ بَرَزن في كلّ ميدان من ميادين الحياة بلا استثناء ، وما كان الحجاب عائقاً لهنّ في شيء من ذلك ، ولا ذَكر التاريخ أنهنّ اضطررن في ذلك أن يتخلَّيْن عن الحجاب الذي فَرضه الله عليهن . يقول د . محمّد سعيد رمضان البوطي في كتابه « منهج العودة إلى الإسلام » : (إنّني أقرّر ـ وأنا شاهد عيان ـ أن في فتياتنا الجامعيات بدمشق متحجّبات بحجاب الإسلام ، مستمسكات بحكم الله عزّ وجلّ ، وهن أسبق إلى النهضة العلمية والثقافية والنشاط الاجتماعي من سائر زميلاتهنّ . . .) ويضيف : (إنّ التخلّف له أسبابه ، والتقدّم له أسبابه ، وإقحام شريعة الستر والأخلاق في الأمر خُدْعَة مكشوفة ثقيلة ، لا تنطلي إلاّ على متخلّف عن مستوى الفكر والنظر الموضوعيين) .

---

(١) اقرأ إن شئت مثلاً كتاب أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحالة .

عمل المرأة : إنّ الإسلام قد أوجب على الرجل النفقة وجعلها فريضة ، كي يُتاح للزوجة من الجهد والوقت وهدوء البال ما تُشرف به على أطفالها وبيتها خير إشراف ، فهو لا يُرغب للمرأة المتزوّجة في الخروج للعمل إلاّ عند الضرورة ، كي تتفرّغ لأداء رسالتها كزوجة وأمّ ، لأن الأمّ المرهقة بالعمل للكسب لا يُمكن أن تَمنح أولادها وأسرتها حقّهم من العناية الواجبة .

إنّ الإسلام أراد للمرأة أن تتحرّك في الحياة شقيقة للرجل في دور تكامليّ لا تفاضليّ ، فلكلٍّ منهما دوره : الرجل يتعامل مع الأشياء ويبني الحياة سياسة واقتصاداً ، والمرأة تتعامل مع الأشخاص ودورها الأصيل تربويّ محض ، وليس أحد الدورين بأهمّ من الآخر ولا هو في غنى عنه .

على أنّ الإسلام فتح أمام المرأة باب العمل النبيل المشروع ، اللاّئق بها والمناسب لكرامتها واستعداداتها الفطرية والأنثوية ، وأباح لها ذلك ما التزمت آداب الشريعة وأحكامها في الستر والتصوّن ، والجدّ في القول والمسلك ، وما لم يعوّقها العمل عن القيام بواجباتها في الأسرة .

وإنّ منجزات التكنولوجيا الحديثة قد وفّرت على المرأة وقتها ، ومن ثمّ صارت المرأة قادرة على أن تزاول عملاً ما إن هي شاءت ، بل هو خير من أن تقضي فراغها فيما يَضرّها وما لا ينفعها . ومثل ذلك إذا وجدت حاجة لعون اقتصادي لزوجها ، لا سيّما إذا كبر الأولاد ، أو هي لم تُرزق ولداً أصلاً ، أو عند حاجتها لكفاية نفسها ، إن لم يكن

هناك من يعولها من أبٍ أو زوج أو أخ أو قريب ، أو لإبائها تحمّل منّة الغير عليها ، أو لكفاية العاجزين من أسرتها إن لم يكن هناك من يعولهم ، أو إذا اقتضت مصلحة المجتمع أن تعمل في بعض المجالات كالتعليم والتمريض وتطبيب النساء ونحو ذلك .

إنّ الإسلام لا يُفرّق بين الرجل والمرأة في حقّ العمل ، ولا في الأجر عليه ، ولم تكن مجالات العمل المختلفة في أيّ عَهد من عهود الإسلام المزدهرة وقفاً على الرجال دون النساء ، بل كان للمرأة المسلمة في ظلّ عهود الازدهار نصيب في سائر الأعمال والمهارات ؛ فكانت تعمل بالتجارة والرعي والزراعة ، وكانت تشترك في كثير من الصناعات والمهن اليدوية أو تشرف عليها ، وعملت في مجال الإسعاف والتمريض والتطبيب ، بل في مجال القضاء كذلك . فالإسلام لا يُحرّم على المرأة القيام بأيّ عمل تتقنه ، وتستطيع النهوض به على وجهه ، ولا يَمنعها من الإسهام مع الرجل في بناء الحياة في مجالاتها جميعاً ، ما كان هناك حاجة إلى عملها وخبراتها في تلك المجالات ، وضمن الشروط الشرعية التي ذكرناها آنفاً .

هكذا نرى أن موقف الإسلام من عمل المرأة هو الموقف الحكيم والمعتدل ، فلا هو مَنعها العمل خارج بيتها ـ كما كان شأن الشرائع قبله ـ ولا هو ألزمها به ودفعها إلى ترك أطفالها وإهمال رعايتهم ـ كما هو الحال عليه في أوروبا ـ .

هذا بالنسبة للمرأة المتزوّجة ، أمّا غير المتزوّجة فمجال العمل أمامها واسع ، وقد علمنا أن العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة ،

وليس من فائدة مجدية للعلم إلاّ العمل في سبيل أن تتمكّن المرأة من المشاركة العملية بجهدها لنفع نفسها وأسرتها ومجتمعها عموماً .

ولكن خير الأعمال لها ـ ما دام دورها الأصيل تربوياً محضاً كما ذكرنا ـ هو عملها في رياض الأطفال ، وفي المراحل الدراسية حتى نهاية المرحلة الجامعية ، لا سيّما أن كثيراً من البلاد قد أنَّث التعليم انسجاماً مع إبداع المرأة في هذا المجال .

وبعد ، فذلك هو وضع المرأة في ظلّ الإسلام ، وهو وضع كريم يَحقّ للمرأة المسلمة أن تُفاخر به جميع نساء العالم ؛ بسبق تشريعات الإسلام جميعَ شرائع العالم وقوانينه وحضاراته إلى تقرير حقوقها والاعتراف بكرامتها ، اعترافاً إنسانياً نبيلاً ، لا يَشوبه غرض ولا هوى ، ولا يدفع إليه قسر ولا ضرورة .

ومن ثَمَّ يَحقّ هنا التساؤل : أيّ شيء من الحقوق بَقي للمرأة لم يحقّقه الإسلام ، لِتَسعى إلى نيله والحصول عليه ؟ .

تريد المساواة الإنسانية مع الرجل ؟ فقد أعطاها الإسلام هذه المساواة نظرياً وعملياً وأمام القانون .

تريد حقّ التعليم ؟ فقد منحها الإسلام هذا الحقّ ، بل جعله فريضة عليها .

تريد ألاّ تتزوّج بغير إذنها ، وأن تُعامل معاملة كريمة بنتاً وزوجاً وأمّاً ؟ فقد أعطاها الإسلام كلّ ذلك ، حقّاً مفروضاً على الرجال .

تريد الاستقلال الاقتصادي ، وحقّ العمل ، والمشاركة في شؤون

الحياة المختلفة ؟ فقد منحها الإسلام ذلك كلّه ، وفتح لها تلك الأبواب جميعاً .

ولكن الإسلام مع هذا كلّه ، فَرَّق بين الرجل والمرأة في بعض المجالات ، ومن المؤكّد أن هذا التفريق لا علاقة له بالمساواة التي قرّرها بينهما ، بل لمصالح وضرورات اقتضت ذلك ، فلنبحث في هذه الفروق بشيء من التفصيل .

فروق جعلها الإسلام بين الرجل والمرأة :

هذا ولم يستثنِ الإسلام ـ ممّا سَوَّى به المرأةَ والرجل في الحقوق والأهليات التي قدّمناها ـ إلاّ أموراً تتعلّق بالاستعداد أو الدُّربة أو التبعة ، ممّا لا يُؤثِّر على حقيقة الوضع الإنساني للجنسين ؛ فحيثما تساوى الاستعداد والدربة والتبعة تساويا ، وحيثما اختلف شيء من ذلك كان التفاوت بحسبه .

وهذه الأمور هي :

أوّلاً : قِوامة الرجل على المرأة .

ثانياً : رِئاسة الدولة .

ثالثاً : الأعباء الاقتصادية .

رابعاً : الميراث .

خامساً : الدِّيَة .

سادساً : الشهادة .

سابعاً : تعدّد الزوجات .

ثامناً : حقّ الطلاق .

أوّلاً : القِوامة :

دليلها قول الله سبحانه : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ . . . ﴾ [النساء : ٣٤] . ومعناها الإدارة والإشراف على شؤون الأسرة ، باعتبارها مؤسّسة اجتماعية ، أو شركة قائمة بين الرجل والمرأة ، لا يَستقيم أمرها دون مُدير أعلى تُوكَلُ إليه إدارتها وتسيير شؤونها ورعاية مصالحها .

وقبل أن نستجلي الحكمة من كونها من اختصاص الرجل ونبيّن أهدافها النفسية والاجتماعية ، لا بدّ من بيانٍ مجملٍ لنظرة الإسلام إلى مؤسّسة الأسرة ومنهجه في بنائها والحفاظ عليها ، وذلك أن القاعدة الأولى في نظام المجتمع الإسلامي هي قيامه على قاعدة الأسرة وجعلها وحدة المجتمع ، وقوامة الرجل في الأسرة مظهر من مظاهر تنظيم الإسلام لمؤسّسة الأسرة وضبط الأمور فيها وتوزيع الاختصاصات وتحديد الواجبات ، لمنع نشوب خلاف بين أفرادها بِرَدِّهم جميعاً إلى أمر الله ، لا أمرِ الهوى والانفعالات الشخصية .

لقد شرع الإسلام مسألة القوامة تمشّياً مع سياسة التنظيم التي يَحرص عليها الإسلام حرصاً شديداً ، والتي تبدو بعض مظاهرها في الحديث الذي تقدّم ذكره ، وفيه أن رسول الله ﷺ كان يأمر الرجال أن يُؤمّروا عليهم أحدهم ، حتى لو خرج ثلاثة في أمر فأحدهم أمير عليهم ، وفي البيت كذلك لابدّ من قيادةٍ تَحمل التبعة وتحفظ النظام وتضمن السلام والاستقرار .

وإذا كانت المؤسّسات الأخرى الأقلّ شأناً من الأسرة ـ

كالمؤسّسات المالية والصناعية ـ لا يوكل أمرها عادة إلاّ لأكفأ المرشّحين لها ممّن تخصّصوا في هذا النوع علمياً ، ودُرِّبُوا عليه عملياً إلى جانب مواهبهم الطبيعية بالإدارة والقوامة ، فأَوْلَى أن تُتّبع هذه القاعدة في مؤسسة الأسرة التي تُنشيء أثمن عناصر الكون «الإنسان» .

وهنا يكون التساؤل : أيّ الزوجين كان المنطق كفيلاً بأن يسلّمه القيادة ؟ . إنّ الإسلام دين يُراعي الفطرة في كلّ ما يشرّع ، ويراعي الاستعدادات الموهوبة لشطري النفس الإنسانية « الذكر والأنثى » لأداء الوظائف المنوطة بكلّ منهما وفق هذه الاستعدادات ، كما يراعي العدالة في توزيع الواجبات على كلّ من الشطرين ، والعدالة في اختصاص كلّ منهما بنوع الواجبات المهيّأ لها ، والمُعانِ عليها من فطرته واستعداداته المتميّزة المتفرّدة .

والقرآن الكريم يُحدِّد أن « القوامة » في الأسرة للرجل ، ويَذكر من أسبابها أمرين : تفضيل الله سبحانه للرجل بمقوّمات القوامة ، وما تتطلّبه من خصائص ودُربة واستعداد ، ثم تكليف الرجل الإنفاق على الأسرة .

فأمّا السبب الأوّل وهو أفضلية الرجل على المرأة ، فوجه التفضيل هو الاستعداد والدربة والمرونة فيما يختصّ بالقوامة ؛ ذلك أن الله جعل من وظائف المرأة الحملَ والوضع والرضاع والتربية ، وهي وظائف ضخمة عظيمة الشأن ؛ وليست هيّنة بحيث تُؤدّيها المرأة بدون إعداد جسدي ونفسي وعقلي ، فكان عَدلاً كذلك أن ينوط بالرجل توفير الحاجات الضرورية ، وتوفير الحماية كذلك لزوجته كي تتفرّغ

لوظيفتها العظيمة الشأن ، ولا يُحمل عليها أن تَحمل وتَلد وتُرضع وتَكفُل ، ثم تَعمل وتَكدّ وتَسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد . وكان عَدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يُعينه على أداء وظائفه هذه ، وأن تمنح المرأة كذلك ما يُعينها في أداء وظيفتها تلك .

ومن ثم زُوّدت المرأة بالرقّة والعَطف وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة غير الإرادية لمطالب الطفولة لتسهُل تلبيتُها فوراً وتكونَ مُستحبّة رغم المشقّة ، وكذلك زَوَّدَ الرجل بالخشونة والصلابة وبطء الانفعال والاستجابة ، واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة لأن وظائفه كلّها في الحياة[١] تحتاج إلى التروّي وإعمال الفكر قبل الإقدام .

أمّا السبب الثاني وهو تَكليفه الإنفاقَ فذلك فَرعٌ من توزيع الاختصاصات يجعله بدوره أَوْلَى بالقوامة ؛ لأن تدبير المعاش للأسرة ومن فيها دَاخلٌ في هذه القوامة ، والإشراف على تصريف المال فيه أقرب إلى وظيفته فيها .

وفي مقابل القوامة أوجب الإسلام على الرجل العدالة والمعاملة بالحسنى ، والرفق في معالجة المشكلات التي قد تنشب في الأسرة ، وأخذ الأمر بِيُسر وهوادة ، بل لَحِظ بعض علمائنا أن فِي القِوامة معنى

---

(١) بدءاً من الصيد الذي كان يمارسه أوّل عهده بالحياة ، إلى القتال الذي كان يمارسه لحماية الزوجة والأطفال ، لا سيّما أثناء الغارات ، إلى تدبير المعاش بشتّى وجوهه ، إلى سائر تكاليفه في الحياة .

الخِدْمة ، وأن معنى : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ . . .﴾ أنهم مُكلّفون بِرعايتهنّ والسعي من أجلهنّ وخدمتهنّ إلى آخر ما تفرضه القوامة من تكليفات[١] .وكلّ ذلك ممّا يُوحيه قول النبي ﷺ : (خيرُكم خيركم لأهله)[٢] .

والخلاصة أنّ هذه القوامة هي تكليف لا تشريف ، وهي ليست عنواناً على أفضلية ذاتية للرجل على المرأة ، إنما هي أفضلية الاستعداد الطبيعي للقوامة والنهوض بأعبائها ، وهذا هو المعنى المراد في قول الله تعالى : ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . .﴾ ، وهذه الأفضلية تنتهي في حقيقتها بالمساواة بين الحقوق والواجبات بين الجنسين ، لأنها حَقٌّ مقابل تكليف ، وهي على كلّ حَال مَشروطة بكون الرجل صالحاً للقوامة ، وذلك ما يُفهم من قوله تعالى : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾ فلم يقل جَلّ وعلا « الذكور قوامون » ؛ إذ ليس كلّ ذكر رَجلاً وإن يَكن العكس صحيحاً ، فقد يَكون الذكر طِفلاً أو أَحمق أو غير ذلك ، وأمّا الرجولة التي حَدّدتها الآية وربطتها بالقوامة فهي الخلق الرفيع ، والتقوى والمروءة والصفح ، والنضج العقلي والعاطفي ، والقوّة النفسية التي لا تستسلم للنزوات ، ولا تتخاذل في حقّ من حقوق الله .

والقوامة لقيامها على السببين معاً « الأفضلية والإنفاق » ، فإن تصوّر سقوطها لقدرة المرأة على الإنفاق خطأ واضح من جهة ،

---

(١) انظر : سلسلة فتاوى الشيخ متولي الشعراوي ع ١٠/ ص ٥٩ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، باب في فضل أزواج النبيّ ﷺ ، برقم (٣٨٩٥) .

وإبطال لتشريع القوامة الذي قرّرته الآية الكريمة صراحة .

هكذا يبدو جلياً للمتأمّل أن القوامة لها أسبابُها من التكوين والاستعداد ، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ، ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية وتكليفِ كلّ من الرجل والمرأة ـ في هذا التوزيع ـ بالجانب الميسَّر له ، والذي هو مُعان عليه من الفطرة . وكذلك يبدو أنها ـ أي القوامة ـ ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة في البيت ولا في المجتمع الإنساني ، إنما هي وظيفة ـ داخل كيان الأسرة ـ لإدارة هذه المؤسّسة الخطيرة وصيانتها وحمايتها .

فإذا كانت المرأة غير متزوّجة كان مَظهر القوامة مُحافظةُ وَليِّ أمرها عليها ورعايتها وحمايتها وإمدادها بكلّ ما تحتاج إليه في حياتها .

ثانياً : رئاسة الدولة :

ممّا يَلحق بقوامة الرجل على المرأة في النطاق الاجتماعي العامّ رئاسة الدولة ، فقد حَتَّمَتِ[1] الشريعة الإسلامية أن تكون رئاسة الدولة للرجل دون المرأة ، والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ : (لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة)[2] ، وهذا النصّ يقتصر المراد من الولاية فيه على الولاية العليا ، لأنّه ورد حين أُبلِغَ الرسول ﷺ أن الفُرس وَلَّوا للرئاسة عليهم إحدى بناتِ كسرى بعد موته ، ولأن الولاية

(١) حَتمَتْ : حكمت وقضت .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب كتاب النبيّ ﷺ إلى كسرى وقيصر ، برقم (٤١٦٣) .

بإطلاقها ليست ممنوعة عن المرأة بإجماع الفقهاء ، كأن تَكون وصية على الصغار وناقصي الأهلية ، ووكيلة عن جماعة في تصريف أموالهم وإدارة مزارعهم أو ما شابه ذلك ، وأن تكون شاهدة والشهادة ولاية ، وأن تكون قاضية في بعض الحالات ـ عند الحنفية ـ والقضاء ولاية .

فالحديث صريح إذن في منع المرأة من رئاسة الدولة العليا ، ويلحق بها ما كان بمعناها في خطورة المسؤولية . وهذا الفرق وثيق الصلة بالمصلحة العامّة ،وبتكوين المرأة النفسي والجسمي ، ونظرة الإسلام إلى رسالتها الاجتماعية ، وليس له علاقة البتّة بإنسانية المرأة أو كرامتها أو أهليتها .

فرئيس الدولة في الإسلام هو الذي يُعلن الحرب ويقود الجيش ، ويُقرّر السلم حسب المصلحة ، وذلك يقتضيه استشارة أهل الحَلّ والعَقْد في الأمّة ، وهو الذي يَتولّى خُطبة الجمعة في المسجد الجامع ، وإمامة الناس في الصلوات ، والقضاء بينهم إذا اتّسع وقته لذلك ، وكلّ ذلك يَقتَضي التفرّغ التامّ لمعالجة قضايا الدولة ، وقوّة البدن والأعصاب ، والجرأة في خوض الحروب ورؤية القتل والدماء ، وتغليب العقل والمصلحة العامّة على العاطفة ومقتضياتها ، فضلاً عمّا تقوم عليه إمامة الصلاة وخطبة الجمعة من خشوع وفراغ قلب ممّا يُنافيه قيام المرأة به في الرجال ؛ فَكلّ أولئك إذن ممّا تَوجّه الفطرة فيه إلى اختيار الرجل ، وممّا تَنأى طبيعة المرأة ورسالتها عنه ، ونوادر النساء اللواتي رَأَسْنَ الدول في التاريخ وقُدْنَ الجيوش ، استثناءٌ يُؤكّد القاعدة ولا ينفيها .

ثالثاً : الأعباء الاقتصادية :

كَفِل الإسلام للمرأة من أسباب الرزق ما يحميها من شرور الكدح في الحياة ، فأعفاها من كافّة أعباء المعيشة وألقاها جميعاً على كاهل الرجل . وهذا التشريع حين يُنظر إليه من خلال الإطار العامّ للنظام الإسلامي في تكامله نَرى فيه من العظمة والحكمة والتكريم للمرأة شيئاً كبيراً مِثلما رأينا في القوامة .

فما دامت المرأة غير متزوّجة ولا مُعتدّة من زوج ، فَنَفقتها واجبة على أصولها أو فروعها أو أقربائها حسب ترتيب الفقه الإسلامي لهم في وجوب النفقة ، فإن لم يَكن لها قَريب قادر على الإنفاق عليها فنفقتها واجبة على بيت المال . وكذلك شأنها في جميع مراحل الزوجية سواء في ذلك مرحلة الإعداد للزواج ومرحلة الزواج ومرحلة انفصامه بالطلاق .

أمّا في مرحلة الإعداد للزواج فأهمّ واجبات الرجل المالية تجاه زوجته المستقبلية مقدّم الصداق ، وإعداد منزل الزوجية . وفي مرحلة الزوجية لا تُكلّف الشريعة المرأة أيّ عِبء في نفقات الأسرة مهما كانت مُوسرة ، وأمّا في حال انفصال الزوجين بالطلاق فالرجل كذلك يَحتمل كُلَّ الأعباء الاقتصادية ؛ فعليه مُؤخّر الصداق ونفقتها من مأكل وملبس ومَسكن ما دامت في العدّة ، وعَليه نَفَقة أولاده ورضاعتهم وأجور حضانتهم في دور الحضانة ، وعليه وَحدَه نفقات تربيتهم بعد ذلك . فأيُّ شريعة ـ في قديم أو حديث ـ سمت بالمرأة إلى هذه المرتبة الرفيعة ؟! .

رابعاً : الميراث :

جعل الإسلام نصيب الذكور ضعفَ نصيب نظائرهم من الإناث في ميراث الأولاد ، قال الله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ . . .﴾ [النساء : ١١] . ولا شكّ في أنّ هذا الفرق يظهر ـ عند أدنى نظر ـ أنه بَديهيٌّ مبني على الفرق السابق بصورة عامّة ، وإن بدا للوهلة الأولى في مبدأ : ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ أن هناك إيثاراً للرجل ، ولكن هذا النظر ما يَلبث أن يَتكشّف عن التكامل في أوضاع المرأة والرجل وتكاليفهما ؛ فالغُنْمُ بِالغُرْمِ قاعدة ثابتة في تشريع الإسلام .

فالرجل في تشريع الإسلام مُكلّف بالإنفاق ؛فهو مُلزم بأعباء وواجبات مالية لا تُلزَم بمثلها المرأة ، فهو الذي يُؤدّي للمرأة صداقها ، ولا تُؤدّي هي له صداقاً . والرجل يُنفق عليها وعلى أولادها منه ، وهي مُعفاة من هذا التكليف ، ولو كان لها مال خاصّ . والرجل مُكلّف بالنفقة على المعسرين والعاجزين عن الكسب في الأسرة ؛ الأقرب فالأقرب ، والمرأة معفاة من هذه الفريضة ، حتى أجر رضاع طفلها من الرجل وحضانته عند افتراقهما بالطلاق يتحمّلها الرجل ويؤدّيها لها .

فهو تشريع متكامل ؛ وتوزيع التبعات فيه هو الذي يحدّد توزيع الميراث ، وتبعات الرجل في الإنفاق أثقل من تبعات المرأة ، ومَنظورٌ في هذا التشريع إلى طبيعة الرجل وقدرته على الكسب ، وإلى توفير الراحة والطمأنينة الكاملة للمرأة لتتفرّغ لرعاية الأولاد وشؤون البيت ،

ومن هُنا كان العدل أن يَكون نصيب الرجل أكثر من نصيب المرأة في الميراث .

على أن مبدأ : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ ليس مَبدأً عَامّاً وحكماً مطلقاً ، يُطبّق في سائر الحالات كلّما اجتمع ذكر وأنثى في الميراث ـ كما يظنّ بعض الناس ـ إنما هو حُكم يَسري في ميراث الأولاد من أحد الأبوين دون غيرهم ـ كما أشرنا ـ وللورثة الآخرين ذُكوراً وإناثاً أحكامهم الخاصّة بهم ، ونصيب الذكور والإناث واحد في أكثر هذه الأحكام .

فمثلاً إذا ترك المتوفّى أولاداً وأباً وأمّاً ، ورث كلّ من أبويه سدس الميراث دون تفريق بين ذكورة الأب وأنوثة الأمّ ، لقوله تعالى : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ. . . ﴾ [النساء : ١١] .

وإذا تركت المرأة المتوفاة زوجاً وبنتاً ، فإن البنت ترث النصف ، ووالدها ـ زوج المتوفاة ـ يَرث الربع ، أي إن الأنثى هنا تَرث ضعف ما يرث الذكر . وهناك حالات أُخرى مُشابهة فُصِّلت في كتب الفقه .

وبذلك نَلحظ معالم التوازن الشامل في الإسلام ؛ الدِّين الذي شرعه الحكيم العليم ، ويتبيّن لنا أن الإسلام لم يَهضم حقّ المرأة في الميراث ، ولم يُحابِ الرَّجل على حسابها ، بل إنّه يُراعي الأعباء والتبعات ، ويَنظر إلى نوع العلاقة السارية بين الوارث ومورّثه ، فإذا اقتضت هذه العلاقة بينهما ، ومدى الأعباء التي يُطالب بها الوارث ، أن تكون حصّة الذكر أكثر من حصّة الأنثى ، كان حكم الميراث كذلك ، وإذا اقتضى ذلك أن تتساوى الحصّتان ، أو أن تفضل الأنثى

على الذكر كان الحكم كذلك ، كما اتّضح لنا من خلال الأمثلة السابقة .

خامساً : الدِّيَة :

جعل الإسلام دية المرأة المقتولة خطأً أو التي لم يَستوجب قَاتلها القصاص لعدم استيفاء شروطه بما يُعادل نصف دِية الرجل . ولهذه التفرقة عَلاقة بِمَدى الضرر الماديّ الذي يَنشأ للأسرة من قَتلِ كُلٍّ مِن الرجل والمرأة ، ولا شكّ أن خسارة الأسرة الماديّة بِموت المنفق المعيل أكبر من خسارتهم بموت الأمّ أو الزوجة ، فأساس الدية إذن هو تَقديرٌ لقيمة الخسارة الماديّة بفقد القتيل ، وليست تقديراً لقيمة « الإنسانية » .

سادساً : الشهادة :

جعل الإسلام الشهادة التي تُثبت الحقوق شهادةَ رجلين عدلين أو رجلٍ وامرأتين ، وذلك في قول الله تعالى : ﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وهنا أيضاً لا عَلاقة لهذا التفاوت بالإنسانية أو الكرامة أو الأهلية ، وإنما المسألة مسألة مُلابسة عملية في الحياة ؛ وذلك لأن الإسلام ـ مع إباحته للمرأة التصرّفات المالية ـ يُعدّ رسالتها الاجتماعية هي التوفّر على شؤون الأسرة ، وهذا ما يَقتضيها لزوم بيتها في غالب الأوقات ، وخاصّة أوقات البيع والشراء ، لذلك فإنّ شهود المرأة لِحَقٍّ يَتعلّق

بالمعاملات المالية بين الناس لا يَقع إلاّ نادراً ، وما كان كذلك فليس من شأنها أن تَحرص على تَذكّره حين مشاهدته ، بل تَمرّ به عابرة ، فإذا جاءت تَشهد كان أمام القاضي احتمال نِسيانها أو خَطئها ، فإذا شَهدت امرأة أخرى بِمثل ما تَشهد به زال احتمال الخطأ والنسيان ، والحقوق لا بُدّ من التثبّت فيها ، وواجب القاضي بَذل غاية الجهد لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل .

وهذا أحد سَبَبَي « الضلال » الذي ذكره الله سبحانه في الآية الكريمة . وأمّا الآخر فقد يَنشأ من الطبيعة الانفعالية للمرأة ؛ فإن وَظيفة الأمومة البيولوجية تَستدعي أن تَكون المرأة شديدة الاستجابة الانفعالية لتلبية مطالب الطفل ، بينما الشهادة على التعاقد في حاجة إلى تجرّدٍ كبير من الانفعال ، ووقوفٍ عند الوقائع بلا تأثّر ولا حياء ، ووجود امرأتين فيه ضمانةُ أن تُذكّر إحداهما الأخرى إذا انحرفت مع أيّ انفعال ، فتتذكّر وتفيء إلى الوقائع المجرّدة .

سابعاً : تعدّد الزوجات :

جعل الإسلام التعدّد مشروعاً للرجل دون المرأة وذلك لأمور منها :

١ـ أن المرأة تَحمل من لقاحٍ واحد ، فيكون اللقاء بِذكور آخرين لا مَعنى له لأنه مُجرّدٌ عن وظيفة الإنجاب ، ومِن ثَمَّ لم يُركِّب الخَالق في فطرتها هذا الطبع .

٢ـ للحفاظ على الأنساب ، فتعدّد الأزواج بالنسبة للمرأة يُضيّع

نِسبة ولدها إلى شخص معيّن ، وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الرجل في تعدّد زوجاته .

٣ـ لمّا كان للرجل رئاسة الأسرة ـ على ما قدّمنا ـ فلمن تكون هذه الرئاسة إذا تعدّد الأزواج ، ولمن تخضع المرأة ؟ لهم جميعاً ؟ وهذا غير مُمكن لتفاوت رغباتهم ، أم تخصّ واحداً دون الآخرين فتسخطهم جميعاً .

ثامناً : حقّ الطلاق :

إن جعل الطلاق بِيَدِ الرجل وحدَه هو الأمر الطبيعي المنسجم مع واجباته المالية نحو الزوجة والبيت ؛ فما دام هو الذي يدفع المهر ونفقات العرس والزوجية ، كان من حقّه أن يُنهيَ الحياة الزوجية إذا رضي أن يتحمّل الخسارتين المالية والمعنوية الناشئتين عن رغبته في الطلاق .

والرجل ـ في الأعمّ الغالب ـ أضبط أعصاباً ، وأكثر تقديراً للنتائج في ساعات الغضب والثورة ، وهو لا يُقدم على الطلاق إلاّ عن يأس من إمكان سعادته الزوجية مع زوجته ، ومع علم بما يَجرّه الطلاق عليه من خسارة ، وما يَقتضيه الزواج الجديد من نفقات .

لذلك كان إعطاء الرجل حقَّ الطلاق طبيعيّاً ومنطقياً ، لارتباطه ارتباطاً مباشراً ووثيقاً بمسألة النفقة والمهر فيما قرّره الإسلام . وعندما نلاحظ ذلك نجد أن هذا الارتباط المباشر والوثيق بينهما مصدر لأدقّ معاني المساواة بين الرجل والمرأة ، لانسجامه مع القاعدة التي ذكرناها « الغُرْم بالغُنْم » .

لقد جعل الله تعالى من الطلاق مغنماً للرجل وربطه بالمهر والنفقة اللذين جعلهما الله مغرماً عليه ، وفي المقابل فقد جعل الله من المهر والنفقة مغنماً للزوجة وربطهما بالطلاق الذي جعله الله مغرماً عليها . يقول د . محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى : « إن علاقة ما بين هذين الأمرين ـ الطلاق من جانب ، والنفقة والمهر من جانب آخر ـ تشبه علاقة الكفّتين بالميزان الواحد . فهل رأيت عاقلاً نظر إلى الميزان من خلال كفّته الواحدة ، ثم أدلى بما يشاء من الأحكام عليه من خلال هذه النظرة الخاطئة ؟! . إن الإجحاف لا يتمثّل في الحكم الذي قضت به الشريعة الإسلامية مؤلّفاً من ميزان دقيق يضمّ كِلا هاتين الكفّتين ، ولكن الإجحاف كلّ الإجحاف إنما يتمثّل في النظرة الحولاء ، التي تختار رؤية واحدة بعينها من هاتين الكفّتين ، والتعامي عن رؤية الثانية ، ليتأتى القول بأنه ميزان ظالم مُجحف صُنع خصيصاً لظلم المرأة والتحيّز إلى الرجل ، ولكن ما الردّ المنطقي على من سلك هذا السبيل المنكَّس ذاته في التحليل والفهم ، فاستعمل النظرة الحولاء ذاتها مختاراً رؤية الكفّة الأخرى والتعامي عن الأولى ، ليتمكّن من القول بأنه أمام ميزان ظالم مجحف ، يهدر حقّ الرجل ويتحيّز إلى المرأة ؟ » .

وهنا قد يقول قائل : إن الرجل لا يوقع الطلاق دائماً وهو معذور فيه ، بل قد يفعل ذلك نكاية بالزوجة ، وكثير ممن لا خَلاق لهم يطلّقون زوجاتهم لمجرّد الرغبة في الاستمتاع بامرأة جديدة ، وقد يكون له من الأُولى أولاد فتسيء الزوجة الجديدة معاملتهم .

والجواب على هذا الاعتراض ـ بل على كلّ اعتراض يمكن وروده على واحد من التشريعات السابقة ـ هو : أن كلّ نظام في الدنيا يُساء استعماله ، وكلّ صاحب سلطة لا بدّ أن يتجاوزها إذا كان سيّىء الأخلاق ، ضعيف الوازع الديني ، ومع ذلك فلا يخطر في البال أن تُلغى الأنظمة الصالحة لأن بعض الناس يُسيئون استعمالها ، أو أن لا تُعطى لأحد في الدولة أيّة صلاحية ، لأن بعض أصحاب الصلاحيات تجاوزوا حدودها .

إن الإسلام أقام دعامته الأولى في أنظمته على يقظة الضمير المسلم واستقامته ومراقبته لربّه ، وقد سلك لذلك سبلاً متعدّدة من مثل ما كنا نقرأ خلال آيات الأحكام السابقة المتعلّقة بالزواج بكلّ أحواله وقضاياه ، كقول الله تعالى في الزوجية نفسها : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ، وفي إحسان العشرة خلال الزوجية : ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] ، وفي حال النشوز وتأديب الناشز : ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٨] ، وكلّ ذلك خطاب لضمائر الزوجين معاً ، وخلال آيات الطلاق يَكثر الحديث عن التقوى ؛ من مثل قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ [الطلاق : ١] ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] .

هذه السُّبُل وأمثالها تؤدّي ـ إذا رُوعيت بدقّة وصدق ـ إلى يقظة ضمير المسلم وعدم إساءته ما وُكِل إليه من صلاحيات .

على أن كُلَّ نظام وكلّ قانون في الدنيا لا بدّ من أن ينشأ عند تطبيقه بعض الأضرار لبعض الأفراد ، ومقياس صلاح النظام أو فساده هو نفعه لأكبر قدر من الناس أو إساءته إليهم .

وهناك نقطة مُهمّة جِداً ، وهي أن الاستفادة من المذاهب الاجتهادية الأربعة ، وعدم التشبّث بمذهب واحد في المحاكم الشرعية تُخفّف كثيراً من الإعنات[١] ، الذي تلقاه المرأة من الرجل في مثل حالات إيقاع الطلاق ثلاثاً بلفظ واحد ، أو طلاقِها في حال غضب ، أو عدم استطاعة الزوجة الخلاص من زوج يُسيء معاملتها حتى صارت حياتها جحيماً وهو يأبى الطلاق .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه يُمكن للزوجة إذا شاءت أن تُمارس حَقّها في الطلاق من الزوج مُباشرة ـ أي دون وساطة القضاء ـ وذلك بأن تَشترط في عَقد النكاح أن تَكون عِصمتها بيدها ، فإذا وافق الزوج على ذلك استوت معه في التمكّن من ممارسة حقّ الطلاق عندما تريد ، ولكن على أن تتنازل عن المهر جزئياً أو كاملاً للزوج كما ذكرنا في حالة الخلع .

وبعد : فهذا أهمّ ما فرّق الإسلام به المرأة عن الرجل في بعض الحقوق والواجبات ، وهناك فُروق أخرى ثانوية يُمكن للمتأمّل أن يَعرف الحكمة منها في ضوء ما تَقدّم من التعليل للفروق الأساسية ، وهي كلّها ـ كما تبيّن ـ فروق لا تَعود إلى أساس تَمييز جِنس الرجل

(١) أَعْنَتَه : شدّد عليه وألزمه ما يصعب عليه أداؤه ، ويشقُّ عليه تحمّله .

على جنس المرأة ، بعد أن تَبيّن ما تَبيّن مِن حرص الإسلام على المرأة تكريماً وصيانة ومساواة لها بالرجل في الإنسانية والكرامة والأهليات وثواب الدنيا والآخرة وضماناً للحقوق ، وإنما الأمر لمصالح وضرورات مُتعلّقة بالاستعداد والدربة والتبعة ـ كما ذكرنا ـ اقتضت ذلك التفريق .

وتلك الفوارق نفسها دليل على المصدر الربّاني لهذا الدين ، لِمَا وَجدنا من انسجام هذه الفروق مع الفطرة التي فطر الله عليها كلاً من الرجل والمرأة ؛ ذلك لأن الإسلام إنما يستهدف تحقيق منهجه المتكامل بكلّ حذافيره لحساب المجتمع المسلم ولحساب الحقّ والصلاح والخير العامّ وحساب العدل المتكامل الجوانب والأسباب .

رابعاً : الدور الذي حدّده الإسلام للمرأة في المجتمع :

وبعدُ فهذه هي التشريعات التي شرعها الإسلام للمرأة ، ومن خلالها نلمس مدى الجدّية في نظرة الإسلام للمرأة وتكريمه إياها ، وإنصافه لها بنتاً وأختاً وأمّاً وزوجة ومطلّقة ، وزوجة وحيدة أو شريكة لزوجات أخريات ، ثم صيانته لحقوقها بعد ظلم طويل عاشته أحقاباً من عمر الإنسانية الشاردة عن الله ، وتوفيره الضمانات لتنفيذ ما شرعه لها ، كلّ ذلك بروح تكريمية خالصة ليست مَشوبة بضغط السياسة أو الاقتصاد ، خِلافاً لكلّ ما نَالته المرأة وتَنَاله في ظلّ الجاهليات قديمها وحديثها ، وإنما منحها الإسلام ما منحها من حقوق ابتداء ودون طلب منها ، ناظراً إلى صفتها الإنسانية التي كرّمها الإسلام في بني آدم جملة بقول الله تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، ومُتمشّياً مع

تقريره وَحْدَةَ منشأ الإنسان ذكراً كان أو أنثى : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ... ﴾ [الأعراف : ١٨٩] .

ومن ثم لا يحسب على دين الإسلام تلك المفهومات الخاطئة للناس حين يَتحوّل الرجل جَلاّداً باسم الدين ، وتتحوّل المرأة رقيقاً باسم الدين ، فهذه كلّها أوضاع لا يَصعب تمييزها عن الإسلام الصحيح ومقتضياته في نفوس المؤمنين ، ولا يجوز أن يُحسب من الإسلام كُلّ ما يقع في المجتمع الذي ينتسب إلى الإسلام خارجاً على أصوله وموازينه ، لأنه انحراف عنه .

ولا شكّ أن هذه المواهب العظيمة التي منحها الله للمرأة ، والمكانة الرفيعة التي أحلّها بها ، وتلك التشريعات التي صانها بها من الذلّ والظلم ، كلّ أولئك يُحتّم أن يكون للمرأة في المجتمع الإسلامي دور عظيم ومهمّة سامية شريفة ؛ وذلك لأن الله سبحانه حين يَمنح الناس المواهب لا يَمنحها عبثاً ، إنما يفعل ذلك سبحانه لحكمة بالغة يُحقّق بها مقاصدَ مقدّرة .

وهذا الدور العظيم الذي أَشرنا إليه إنما هو مُهمّة الإشراف على المجتمع والإسهام في النهوض به ، عن طريق الدعوة والتربية والإرشاد ونشر الوعي بين أفراده ، وتوجيههم نحو الفضائل وتحذيرهم من الرذائل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] ما يكشف

بوضوح أن الإسلام يَضع صَلاح المجتمع أمانة يُسأل عنها كلّ مؤمن ومؤمنة ، لا يُعفي من هذه المسؤولية المرأة ، ولا يستثني الرجل ، لأنه يَنظر إلى وصف الإنسانية لا إلى ذكورة أو أنوثة ، وقوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . . . ﴾ يمدّ مسؤولية الأفراد ذكوراً وإناثاً إلى كلِّ مُقومات المجتمع : دينية واجتماعية وإدارية وسياسية واقتصادية .

فليس يَجوز في الإسلام ـ مثلاً ـ السكوت عن مُشكلات الفقر أو مظالم الاستغلال ، أو مفاسد الجهل أو غير ذلك ، وعلى المرأة واجبها في ذلك كلّه ما استطاعت في نطاق تقاليد بيئتها وآدابها ، وفيما فَضَلَ من وقتها بعد أداء واجباتها تجاه البيت والزوج والولد ،فليس للمرأة أن تتقاعس عن أداء هذا الواجب ، مُعتمدةً على الظنّ بأن هذه المسؤولية من شأن الرجل خاصّة ، فإن للرجل دائرته وللمرأة دائرتها ، والحياة لا تستقيم إلاّ بنهوضهما معاً ، فإن تخاذلا أو تخاذل أحدهما ، انحرفت الحياة عن الجادّة السليمة والسبيل المستقيم .

وبذلك تغدو الدعوة إلى الله بين نساء المسلمين وبناتهم المظهر الأول والأهمّ لدور المرأة في المجتمع ، فإن في ذلك حَمْلٌ للمجتمع كلّه على الاستقامة والخير ، لأن هذه الدعوة إلى الله سوف تَمتدّ إلى بيوت هؤلاء النسوة والبنات ؛ وذلك لأن المرأة لا تعدو أن تكون أمّاً أو أختاً أو زوجة أو بنتاً في الأسرة ، وبذلك تكون المرأة قد أدّت أمانة إصلاح مجتمعها من غير أن تُهمل أمورَ أسرتها ، مسترشدة بقول

رسول الله ﷺ: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)[١]، وقوله ﷺ :(إن لربّك عليك حقّاً ، ولنفسك عليك حقّاً ، ولأهلك عليك حقّاً ، فأعط كلّ ذي حقّ حقّه)[٢] .

ولقد احتفظ التاريخ وافتخر بأسماء نساء رائدات من أعلام المسلمات ، بَرَعنَ فِي كَثيرٍ مِن مَجالات الحياة ، وساهمن في بناء صرح الحضارة الإنسانية عبر عهود التاريخ المتوالية ، غير أنه ما كان لواحدة منهن أن تَبلغ ما بلغته من آفاق العلم والسموّ والكمال لولا الإسلام الذي أشعرها بقيمتها وكرامتها ، وأعلى من اهتماماتها وأهدافها .

من هؤلاء النسوة أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين التي خاضت الصعاب لما هاجر النبيّ ﷺ مع أبيها إلى المدينة . وأمّ سُليم ؛ أمّ أنس بن مالك التي جعلت مهرها للزواج من أبي طلحة إسلامه . وأمّ شَريك القرشية التي كانت تدخل على نساء قريش تدعوهن إلى الإسلام ، حتى إذا انكشف أمرها ، فأخذها صناديد قريش فعذّبوها وتركوها في حرّ الشمس أيّاماً بلا طعام ولا شراب .

ومن أعلام النساء العالمات البارزات أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن ، وأسماء بنت يزيد ابن السَّكَن خطيبة النساء في زَمن النبيّ ﷺ ، وأمّ الدرداء الصغرى وحفصة بنت سيرين وكانتا عالمتين بالعلوم الدينية ، وعنهما أخذ كثير من الرجال . ومنهن سُكينة بنت

---

(١) المعجم الأوسط ٧/ ٢٧٠ ، برقم (٧٤٧٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ،باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ، رقم (١٨٦٧) .

الحسين وكانت تُجالس الأئمّة الأجلاّء من قريش ، وكانوا يأخذون برأيها . ونفيسة بنت الحسن سمع منها الإمام الشافعي ، وكان لها بمصر مجلس علم يحضره . وفاطمة بنت الشيخ علاء الدين السمرقندي ، وكانت فقيهة جليلة ، وكانت الفتوى تخرج وعليها خطّها وخطّ أبيها .

ومن أعلام النسوة اللاتي ترَكن آثاراً لا تُنسى ؛ زبيدة زوجة هارون الرشيد ، التي أقامت كثيراً من المنشآت العامّة في مكة تَيسيراً على أهلها وقاصديها من الحجّاج . وستّ الشام أمّ حسام الدين بنت نجم الدين ، التي جعلت من دارها مدرسة عُرفت بالمدرسة الشامية ، أوقفتها على الفقراء من أصحاب الإمام الشافعي . ومنهن الصاحبة ربيعة خاتون التي أنشأت مدرسة للحنابلة في الصالحية بدمشق ، سمّيت بمدرسة الصاحبية . وفاطمة بنت محمّد الفهري التقية العالمة التي بنت جامع القرويين في المغرب ، وجعلته مدرسة ومأوى للأيتام ولطلاب العلم ، وسرعان ما تطور هذا الجامع وتحوّل إلى مكان للتعليم الديني والكوني ، واكتسب شهرة بوصفه أوّل جامعة في التاريخ . ومنهن تاج محل التي كانت تساعد زوجها في إدارة شؤون البلاد . وغيرهن كثير .

دور وِزارة الأوقاف في رعاية المرأة وتمكينها من القيام بدورها في النهوض بالمجتمع :

وهنا يَبرز دور وِزارة الأوقاف الموقّرة في بلدنا الحبيب في الإشراف على هذه المهمّة الجليلة التي أُنيطت بالمرأة ورعايتها ، فقد أنشأت عام ٢٠٠٨ مكتباً مستقلاًّ للإشراف على النهضة الدَّعْوية

والعلمية للداعيات في سورية ، وتأهيل الداعيات المتميّزات بالكفاية العلمية التي تقوم على مبدأ الوسطية والاعتدال في الفكر والمنهج ، وذلك بتدريبهنّ على المهارات وطرق التدريس الحديثة لتطوير الخطاب الديني والارتقاء به من أجل تعزيز رسالة الإسلام الحضارية التي تناسب كلّ زمان ومكان ، ولتربية جيل من النساء والبنات يَكون مُدركاً لقضايا أمّته وللتحدّيات التي تواجهها ، وقادراً على إيصال رسالة الإسلام الحضارية لكلّ العالم .

ومنذ تاريخ إنشاء وزارة الأوقاف للمكتب المذكور أصبحت الدعوة النسائية في سوريا تابعة له من حيث :

أوّلاً : إصدار التراخيص لحفظ القرآن الكريم والتدريس الديني للداعيات في المساجد وفق شروط محدّدة .

ثانياً : إصدار « المنهج الموحّد » الخاصّ بالعمل الدينيّ النسائيّ في المساجد ، وقد صدر منه حتّى هذا التاريخ سبعة أجزاء : الأوّل : متعلّق بعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف . والثاني : متعلق بالعلوم الإسلامية : [سيرة ، فقه ، عقيدة. . .] . والثالث : متعلق بالمنهج الوطني . والرابع : متعلق باللّغة العربية . والخامس : منهج محو الأمية . والسادس : منهج التربية الإيمانية . والسابع : الدليل العلميّ لمرحليّات حفظ وتحفيظ وسبر القرآن الكريم والحديث الشريف وتدريس اللّغة العربية .

ثالثاً : متابعة عمل الداعيات المرخّصات في مساجد القطر بالتنسيق مع مديريات الأوقاف في المحافظات من خلال :

ـ إصدار « التعاميم » الضابطة للعمل الديني النسائي .

ـ تجهيز برامج فترات دوام الداعيات .

ـ جولات دورية ميدانية تفقّدية للعمل الديني النسائي في مساجد المحافظات .

ـ تشكيل مكاتب فرعية للدعوة النسائية ولسبر القرآن الكريم في مراكز خاصّة في كافّة مديريات الأوقاف في المحافظات ، تتبع في عملها للمكتب المركزي في الوزارة .

ـ تشكيل لجان نسائية لسبر مرحليّات القرآن الكريم في مراكز خاصّة تابعة للمساجد .

ـ تشكيل لجان تمكين اللّغة العربية تشرف على إقامة دورات تدريبية وإجراء امتحانات .

ـ متابعة المسابقات النسائية المحلّية والدولية .

ـ إعداد الشهادات الوِزارية الخاصّة باجتياز الامتحانات « النجاح في مراحل أجزاء القرآن ـ اختبارات اللّغة العربية ـ مسابقات الحديث الشريف » .

وبعد ؛ فالحمد لله كلّ الحمد على شرعه الحنيف ، الذي أسعد به عباده وأنصفهم جميعاً ، ورسم لهم سبيل الرشاد ، نسأله سبحانه لنا ولبلدنا الحبيب كمال الخير والتوفيق والازدهار .

❊ ❊ ❊

المنهج النبوي في الدعوة
وموقع الأحزاب الدينية منه

المحتوى

مقدمة البحث ٢١٣
حوار حول الطريقة المثلى لفهم شخصية محمد ﷺ ٢١٦
ملامح تربوية في السيرة النبوية ٢٢٧
كيف يزكي المسلم نفسه باختصار ٢٣٦
العصبية الحزبية آفة الدعوة إلى الله ٢٤١
الخاتمة ٢٥٤

مقدمة البحث[١]

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد .

فينبغي على الداعية أن يخاطب العقول والعواطف معاً ، وينتقل من النظري إلى التطبيق ، ويبين تاريخ الإسلام ، من هو محمد عليه الصلاة والسلام ؟ كيف كانت مواقف رسول الله ﷺ فيما يتعلق بمحبته بأمته ؟ كيف كان يحارب موضوع التكفير ؟

روى الشيخان من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق)[٢] .

أنا بحاجة لمخاطبة هؤلاء الناس لأجعلهم يُطَّلّون على التاريخ الإسلامي ما هو ! وعلى شخصيّة سيّدنا محمد ﷺ ، وكيف تجذب الإنسان إلى محبته ﷺ .

---

(١) مستخلص من كلام العلامة الشهيد من برنامج « مع البوطي في قضايا الساعة » من عدَّة حلقات .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب ما جاء في الجنائز ، برقم : (١١٩٣) ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، برقم : (١٦٢) واللفظ له .

فاجعلوا ميزان علاقتكم مع عباد الله من منطلق محبتكم لله ، مرتبط بميزان محبتكم لله ، هذا هو العلاج ، لكن إذا ذهلنا عن علاقتنا مع الله ، عن محبتنا لله عزّ وجل ، فالذي سيطفح في قلوبنا هو محبتنا لأنفسنا . . عصبيتنا . . أهواءنا . . أموالنا . . رغائبنا . . كراسينا . . هذه هي التي تسدُّ مَسدّ محبتنا لله عزّ وجل ، وعندئذ هذه المشاعر هي التي ستقودنا ، وعندئذ سنحكم على الناس من منطلق أمزجتنا وأهوائنا وعصبياتنا .

متنوا محبّتكم لله عزّ وجل ، وانظروا كيف تنظر إلى عباده ، محبّة الله تثير في نفسك فروعاً من محبّتك لعباد الله ، من أحب الله أحبّ عباده . قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] فمنطلق دعوة الفاجر أو الجاهل هو من منطلق الشفقة عليه .

ينطلق الداعي إلى الله عز وجل إلى دعوته من الشعور بالشفقة على الجاهل ، من الشعور بالشفقة على التائه ، على الفاسق ، على الفاجر ، والغيرة عليه والحب له . فينبغي أن لا يكون الداعي كما نرى في كثير من الأحيان يجعل من الدعوة أداة لشفاء غليله .

أما الحب في الله والبغض في الله ، فقد قال العلماء : يُبغَضُ في العاصي معصيته ، ولا يُبغَضُ شخصه . لاحظ قول سيدنا لوط عليه السلام لقومه ماذا قال : ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٨] ولم يقل إني لكم من القالين . فالبغض في الله وارد ، لكن شتان بين أن أُبغض شخص العاصي ـ هذا غير وارد ـ وبين أن أبغض معصيته مع

الشفقة عليه . الدين نصيحة ، وهيهات أن يكون الإنسان ناصحاً إذا كان مبغضاً لمن ينصح . حتّى النهي عن المنكر الذي يزجّ صاحبه بالكفر يكون بالحكمة والرفق ، إذ ليست الغاية التشفي وإنّما الهداية .

وحتى الملحد روحه إيمانية تنبض بحقائق الإيمان ، لكن قد تكون الفطرة نائمة راقدة ، أنا أريد إيقاظها لا خنقها .

* * *

حوار حول الطريقة المثلى[١]
لفهم شخصية محمد ﷺ

قارئي الكريم أياً كنت ، وإلى أي مذهب انتميت : دعني أحاورك من خلال كلمات موجزة ، مجتمعاً معك على صعيد واحد ، هو ذاك الذي يسمونه : حرية الفكر ، أي حرية الفكر عن التقيد بأي أسبقية تستعبده لهدف مرسوم ، وعن الخضوع لأي رغبة تستذله لاتباع النفس ووحي الأمزجة والرغبات .

وحواري معك لن يتجاوز بضع نقاط ، لا بل لن تزيد على ثلاث نقاط ، نستعرضها معاً طبق تسلسل منهجي سليم :

النقطة الأولى :

كيف نتحدث عن محمد ﷺ ، وكيف نتعامل في فهم سيرته وحياته عندما نريد أن نتجه بأفكارنا في مناسبة ما ، إلى شيء من ذلك ؟ هل نفتش عن مزاياه العقلية والعلمية ، أم نحلل أخلاقه الشخصية ، أم نركز على النظر في أعماله الإصلاحية ، أم نلتفت إلى قيادته العسكرية ، أم ندع كل هذا ونتبع مظاهر عبقريته النادرة وفراسته الصائبة ؟

---

(١) كتاب « الظلاميون والنورانيون » للعلامة الشهيد الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى .

والمعروفُ لنا جميعاً أن كثيراً من الكتاب والباحثين تفرقوا في جوانب شتى من هذه الاختيارات ، حتى تجمعت في دراستهم المتنوعة ما يمكن أن يفي بهذه المزايا كلها ، وما من ريب أن الجمهرة الكبرى من هؤلاء الكاتبين ـ على اختلاف نحلهم ومشاربهم ـ قد انتهوا إلى اتفاق علو كعبه ﷺ في هذه الجوانب الإنسانية كلها .

ولكن هل تتفق هذه الاختيارات متفرقة أو مجتمعة متضافرة مع المنطق العقلي السديد ، فيما يرسمه من منهج للطريقة العلمية المثلى في دراسة حياة محمد ﷺ ؟

بوسعك أن تعلم أن هذه الاختيارات كلها ليست إلا اهتمامات عقيمة عابثة ، إن تساءلنا في تأمل فكري صافٍ عن الشوائب ، عن الهوية التي قَدَّمَ هذا الرجل نفسه إلى الناس كلهم على أساسها .

من الثابت يقيناً أنه لم يُعَرِّف الناس على ذاته إلا من خلال هوية واحدة ، قَدَّمَ نفسه إلى العالم كله على أساسها ، ألا وهي أنه رسولٌ إلى الناس كلهم من قبل الله عز وجل ، وأنه يحمل إليهم منه أنباء في غاية الأهمية ، عن الإنسان وحقيقته وعلاقته بالكون والحياة ، كما يحمل إليهم جملة أوامر وتحذيرات تتعلق بالفكر والسلوك ، سيتحملون مسؤولية تضييعها أو الاستهانة بها .

يتبين لنا ذلك من خلال مواقف كثيرة في حياته ﷺ ، نذكر منها هذين الموقفين :

أولهما : يوم اتجه إلى الصفا ـ رابية صخرية على مقربة من الكعبة

ـ ملبياً قول الله له : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] وأخذ ينادي القبائل واحدة واحدة . روى ابن عباس رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد رسول الله ﷺ الصفا ، فهتف : (يا صباحاه) ، فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا إليه ، فقال : (يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب) فاجتمعوا إليه ، فقال : (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقي ؟) قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)[١] .

ثانيهما : يوم أرسلت إليه قريش تفاوضه أن يتخلى عن دعوتهم إلى الدين الذي قال إنه بُعِثَ به ، لقاء تنصيبهم له زعيماً عليهم ، لا يقطعون دونه برأي ولا بأمر ، وأن يعطوه من المال ما يجعله أغنى الناس فيهم ، فكان آخر ما قال : (ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منِّي ما جئتكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه عليَّ أَصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)[٢] .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، سورة البقرة ، باب (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، برقم : (٤٤٩٦)، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب في قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، برقم : (٣٣٣).

(٢) أخرج القصة بتمامها ابن جرير الطبري في تفسيره سورة الإسراء ، القول في تأويل قوله=

إذن فمحمد ﷺ إنما قَدَّمَ نفسه إلى العالم على أنه رسول من الله ، يحمل إلى الناس أنباء تخصُّهم وتتعلَّق بمصيرهم ، وما هم مقبلون عليه مما هو مخبوء خلف سجاف الغيب ، ولم يُقدم نفسه لأحد من الناس أو لأي فئة منهم ، على أنه زعيم أو مصلح سياسي أو اجتماعي ، أو ذو مَهارة عسكرية متميزة ، أو فِكْرٍ قانوني فذّ .

إذن ، أليس الإعراض عن هذه الهوية التي عرَّف محمد ﷺ نفسه للعالم من خلالها ، مع الاشتغال والتسلي بهذه الجوانب في شخصيته وتلمُّسها والإطالة في تحليلها ، عملاً سخيفاً عابثاً يشمئز منه المنطق العقلي ، وينم على حمق في الفكر وبلادَةٍ في الطبع ؟ .

وهل من فرق بين هذا الشاغل العابث بشخصية رسول الله ﷺ وتحليلها ، وعبث رجال يمتطون سياراتهم متجهين نحو بلدة يَقصدونها ، ولما توسطوا الصحراء ضاعت عليهم معالم الطريق ، ووقفوا في مكانهم حائرين ، وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل من أهل البادية ، وقد عرف مصيبتهم التي يَشكون منها ، فأنبأهم بأنه ابن هذه الصحراء وأنه خبير بطرقها ومسالكها ، ثم دلهم على الطريق الذي يُوصلهم إلى البلد الذي يقصدون ، وحذرهم من التوجه إلى المسارب والسبل الأخرى ، ونبههم إلى ما قد يَكمن فيها من المهالك والأخطار ، غير أن القوم كانوا في شغل شاغل عن حديث الرجل

= تعالى : (أو يكون لك بيت من. . .) ، وقوله : (قل سبحان ربي. . .) (٢٠٦٩٤)
وأخرج قول النبي ﷺ البخاري في كتاب خلق أفعال العباد ، باب ما جاء في قول الله : (بلغ ما أنزل إليك) (١٨٥) .

ونصيحته لهم وتعريفهم بنفسه ، بما انصرفوا إليه من التأمل في شكله ومظهره ومنطقه البليغ ، وقوة عارضته ومركزه الاجتماعي الذي يتجلى من خلال هيئته ولباسه ، ناسين أو متناسين المشكلة التي هم بصددها .

أقول : هل من فرق بين عَبَثٍ ـ بل سُخْف ـ كل من الموقفين والصورتين ؟ .

طُلِبَ إلي قبل سنوات أن أكتب فصولاً في السيرة بأسلوب مُبسط يُمكن أن يُفيد منه الصغار ، فكتبت بضع صفحات ، وأطلعت الطالبين عليها ليروا رأيهم في المنهج والأسلوب ، فقيل لي : إن الحديث عن نبوة محمد ﷺ وما يتعلق بها ، مثار نظر ونقاش ، ومثار خلاف طائفي ، أما عظمته ومزاياه الإنسانية ، فمحل اتفاق وإجماع ، لذا فإنا نرى غض النظر عن مسألة نبوته ، وتحليل حياته من الجوانب الإنسانية الأخرى ! .

قلت : إنني لم أصل بعد من الحمق والسذاجة إلى أن أُعرض عن الهوية التي قدم محمد ﷺ نفسه إلى العالم من خلالها ، ثم أتشاغل وأتسلى بدلاً عنها بالحديث فيما لا طائل فيه ولا فائدة لي منه .

النقطة الثانية :

إذا كان هذا الذي قُلناه واضحاً متفقاً مع المنطق ومقتضيات الموضوعية والعلم ، فإن دراسة السيرة النبوية يجب أن تكون طبق منهج متفق مع هذا الحق الذي أوضحناه ، أي إن مركز الثقل من

اهتمامنا بحياة محمد ﷺ وسيرته ، يجب أن يتمثل في تلك الهوية التي عرف نفسه إلى العالم على أساسها ، وأن يدور حول المسؤوليات التي قال إنه جاء يحمل أمانة تبليغها إلى الناس ووضعها في أعناقهم .

وليس معنى هذا الواجب أن نغمض أبصارنا وبصائرنا ونؤمن بما قاله هذا الرجل عن نفسه إيماناً عشوائياً ، ونفرض الصدق في كلامه دون بحث أو استدلال ، ثم نرهق كواهلنا بتلك المسؤوليات دون أي تأمل ولا تحميص .

وإنما معناه أن علينا ـ وقد أنبأنا عن الرسالة التي قال إنه يحملها إلى الناس من قبل الله عز وجل ـ أن نضع كلامه هذا تحت مجهر الدراسة والنظر ، اعتماداً على بصيرة عقلية متحررة عن أي عصبية نفسية ، أو أي أسبقية مذهبية ، فإن كانت نتيجة هذه الدراسة هي الوصول إلى التأكد من صدقه فيما أخبر به من الرسالة التي حُمِّلها والمسؤوليات التي كُلِّف بإبلاغها ، فلا مناص من الإيمان بتلك الرسالة ، كما أنه لا مفر من الخضوع لما يقتضيه هذا الإيمان ، وليس له من مقتضى سوى تحمل المسؤوليات التي وُضِعَت في أعناقنا ، والنهوض بها جهد الاستطاعة والوسع .

أما إن كانت نتيجة هذه الدراسة هي التأكد من كذبه فيما ادعاه ، أو حتى الارتياب والشك في ذلك ، فمن الخير عندئذ إهمال شأنه وإراحة النفس من القلق الذي قد يساورنا من أحاديثه وتنبؤاته ، ولا قيمة في هذه الحال لكل ما تلمحه في شخصه من مظاهر العظمة والنبوغ والمزايا الإنسانية النادرة ، فإن من شأن ذلك كله أن يذوب وينمحي

في ضرام مثل هذا التدجيل الذي تلبَّس به .

وأقول هنا بحق وصدق : ما من باحث متدبر وضع الهوية التي قَدَّمَ محمد ﷺ نفسه إلى العالم على أساسها تحت مجهر البحث والنظر بموضوعية وفكر صاف متحرر ، إلا وعلم علماً جازماً أنه صادق فيما عرّف نفسه به ، وأنه ـ دون ريب ـ نبي مرسل من رب العالمين إلى الناس جميعاً ليخبرهم بما ينبغي أن يعلموه ، وليأمرهم بما يجب أن يفعلوه ، وليحذرهم عما يجب أن يجتنبوه .

فأنت إن وقفت تدرس ظاهرة الوحي في حياته ، وصلت إلى هذا اليقين .

وإن أقبلت تتأمل في إعراضه القوي والفعلي طوال حياته عن الدنيا ومظاهرها ، وعن الزعامة وأسبابها ، وصلت إلى هذا اليقين ذاته .

وإن تأملت في سمو أخلاقه ودوام صدقه ، وما عُرف به من أمانة وَرِقَّةٍ في مشاعره الإنسانية ، زادك ذلك كله دعماً لليقين نفسه .

وإن ذهبت تُقارن بين كلامه الذي يصدره من أعماق نفسه ويصوغه بأسلوبه وبيانه ، وبين القرآن متمثلاً في أسلوبه الفريد الذي يتميز به عن الكلام العربي كله ، ومضمونه الذي يَقف من بعض مَا يَقضي به رسول الله ﷺ أو يَرتئيه ويجتهد فيه موقف المخطىء والمصحح بل ربما العاتب ، رأيت نفسك وعقلك أمام هذا اليقين ذاته .

وإن فكرت في عموم التاريخ الإنساني وسلسلة النبوات والرسالات التي امتدت في أعماقه ، وفي علاقة أولئك الرسل والأنبياء بعضهم ببعض ، رأيت نفسك مرة أخرى أمام هذا اليقين ذاته .

النقطة الثالثة :

والآن ، لا بد أن يسير بنا المنهج العلمي في البحث إلى النقطة الثالثة والأخيرة ، وهي إنما تتمثل في النتيجة العلمية التي ينبغي أن تأتي ثمرة طبيعة لدراية تامة لكل من تلك النقطتين ، بعقلانية متحررة ومنهج موضوعي سليم .

إذا عرفنا أنَّ محمداً ﷺ عرَّف نفسه إلى العالم من خلال قوله وتأكيده المتكرر بأنه رسول الله إلى الناس كلهم ، وأنه قد ندبهم إلى التأمل في دعواه هذه بفكر متيقظ حر ، وإذا استجبنا لذلك فتأملنا في سيرته ونهج حياته ، فعلمنا ـ بيقين لا يلحقه ريب ـ أنه صادق فيما أخبر عن نفسه ، وفي الرسالة التي قال إنه يحملها من الله إلى الناس ، إذن فما هو الشيء الذي يفرضه علينا المنطق العقلي الصافي المبادرة إلى فعله وتنفيذه ؟ .

لا يشك أي من العقلاء الذين يُحاكمون القضايا بالمنطق والفهم الموضوعي ، في أن الشيء الذي يوجهنا العقل إلى فعله دون إمهال ، هو الإعلان عن الإيمان بهذه الهوية التي عرّف رسول الله ﷺ نفسه من خلالها ، ثم المبادرة إلى تحمل المسؤولية التي كلفنا الله بها عن طريق هذه الرسالة التي تحملناها عن طريقه .

وبنود هذه المسؤولية واضحة وصريحة في الكتاب الذي أنزله الله وحياً إلى هذا الرسول الذي آمنا به وأيقنا بصدقه . فهذا الكتاب يتضمن تعريفاً للإنسان بذاته ونشأته وعلاقته بالمكونات التي من حوله ، وقصة الرحلة التي يجتازها في هذه الدنيا ، وأنباء ما هو مقبل عليه من أحداث ما بعد الموت والنشأة الثانية ، والجزاء الذي هو على موعد

معه ولا مناص له من تجاوزه أو الحيدة عنه . وهذا الكتاب يتضمن أيضاً بياناً لقائمة المهمات والواجبات الفردية والاجتماعية التي كُلِّفَ الإنسان بالنهوض بها ، وبياناً بقائمة المنهيات التي كُلِّفَ بتجنبها والابتعاد عنها ، كما يتضمن تأكيدات متكررة بأن تلك الواجبات لم تفرض عليه إلا تحقيقاً لمصلحته ، وإن غاب عن الإنسان وجه المصلحة فيها ، وأن المنهيات لم تُحرَّم عليه إلا وقاية له من سوئها ، وإن غاب عنه وجه السوء الذي فيها ، أليس هو القائل : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة : ٢١٦] .

كما يتضمن هذا الكتاب تأكيدات متكررة بأن الإنسان إنما يتحرك تحت سلطان الله ، وفي دائرة ملكه ، فلا مفرَّ له من قبضته ، ولا نجاة له من حكمه ، وقد كتب الله على نفسه الرحمة لكل من أذعن لحقائق عبوديته له ، ثم سعى جاهداً إلى وضع هذه العبودية لله موضع التنفيذ ، وألزم نفسه بتحقيق الحياة الطيبة له في كل من الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل : ٩٧] .

ولكنه جل جلاله التزم أيضاً بأن يزج كل من أعرض مستكبراً عن حقائق عبوديته له عز وجل ، في غياهب الشقاء وضَنك الحياة ، في كل من الدنيا والآخرة معاً ، فقال : ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤ـ١٢٦] .

أفليس عجباً يا قارئي العزيز ، أن يَمُرَّ أحدنا بالنقطة الأولى التي أوضحناها ، ثم يتجاوزها إلى التي تليها ، فلا يرتاب عقله في أن محمداً ﷺ نبيه المرسل من قبل ربه إلى الناس جميعاً كما قال ، لم يكذب على الناس ، ولا افتأت على الله ، حتى إذا دفعه منطق المعرفة طبق التسلسل المنهجي إلى السلوك والتنفيذ ، تقاعس وتراجع ونكص على عقبيه ، وأقام بينه وبين رسالة الله إليه ـ بعد أن وعاها واستيقنها ـ مختلف الحواجز والسدود ، ثم أعرض عنها مُلتفتاً عنها إلى اليسار مرة واليمين مرة أخرى ؟ .

أما إن كنت ممن يقول : ولكني لم أشغل ذهني ـ لحسن الحظ ـ لا بالنقطة الأولى ولا الثانية من حياة هذا الرجل ، وإنما اكتفيت من معرفته بما يمليه زادي الثقافي العام الذي جعلني أدرك أنه كان عظيماً من الناس ، وكان واحداً من المصلحين لحياة أقوامهم ، وإذن فأنا لا أقع تحت طائلة ما قد يتهددني من جراء عدم الالتزام بمقتضى رسالته ، ومن جراء عدم تحمل شيء من المسؤوليات التي تضمنها وانطوت عليها .

أقول : أما إن كنت واحداً ممن يقول هذا الكلام ، فإنما أنت كالذي فرَّ من رشاش المطر إلى أمواج الطوفان ، أو كالذي عالج الحمى بالطاعون .

إن بوسعك أن تتخيل أن هذا الاعتذار باب نجاة لك من تحمل المسؤوليات والالتزامات ، ولكنك سرعان ما تعلم بأنه ليس إلا كالباب الذي تخيلته النعام مصدر نجاة لها ، إذ دست رأسها إلى

أقصى ما استطاعت من ظلمات الرمال ! .

ليست المعذرة الحقيقية ألاَّ تشغل بالك بالنبأ الذي أقبل به محمد ﷺ إلى الناس ، إنما المعذرة الحقيقية أن تُقبل بذهنك إليه وإلى حديثه ، فتدرك بيقينك العقلي الحرّ أنه كاذب فيما يقول ، فتنصرف معرضاً عنه ، وقد فتحت لنفسك بيقينك هذا أوسع آفاق المعذرة والنجاة .

ولكن إعراضك عن حديثه ، خوفاً من أن يكون صادقاً فيحرجك صدقه وتقع تحت مسؤولية ما يحمله إليك من أنباء وأحكام ، يُحَمِّلك غداً بين يدي الإله الذي أرسله إليك جريرتين عظيمتين :

إحداهما : الإعراض عن نبيه الذي أرسله إليك .

والثانية : الفرار دون عذر من المسؤوليات التي حملك إياها وكلفك بتنفيذها .

ثم اعلم يا أخي القارىء ، أن أعقل الناس من تصرف في حاضره الذي يمر به على ضوء الغد الذي هو مقبل عليه ، وأن أحمق الناس من تناسى غَدَهُ الذي هو مقبل عليه في سبيل تلوين حاضره الذي يمر به باللون الذي يحبه ويشتهيه . سَمِّ ما شئت نوراً وتعامل معه على أساس ذلك ، وسمِّ ما شئت ظلاماً وتعامل معه على أساس ذلك ، ولكن فلتكن على يقين بأن المسميات لن تكون في الغد القريب مقرونة بالأسماء التي تشتهيها اليوم لها ، ولكنها ستكون مقرونة بأسمائها الحقيقية الثابتة .

❊ ❊ ❊

ملامح تربوية في السيرة النبوية[(١)]

لما كانت التربية عمليّة وجدانيّة متواصلة ، يُبتغَى منها إخضاع الرغائب الشهوانيّة لقرارات العقل وأحكامه ، ومهما اختلفت المظاهر العمليّة لها أو تطوّرت في حياة الأمم والمجتمعات ، فإنّ الغاية منها تظلّ واحدة لا تختلف ، ألا وهي : إخضاع السلوك الإنسانّي لما يقضي به المنطق والعقل .

والمنطلق الأوّل الذي لا بدّ منه إليها ، هو الوقوف على قرار العقل وحكمه في فهم حقيقة الكون والإنسان والحياة ، وإنّما يتمّ ذلك باتّباع منهج المعرفة وقواعد المحاكمة العقليّة في معرفة الأشياء .

إنّ العمليّات التربويّة على اختلافها وتنوّعها ، لا موضوع لها قبل أن يدلي العقل بقراره عن حقيقة الإنسان والكون والحياة ، إذ لا يوجد ذاك الذي ينبغي إخضاع الرغائب الوجدانيّة والشهوانيّة من أجله وفي سبيله .

وقد انتهى بنا المنهج العلمي للمعرفة ، إلى أنّ الإنسان عبد مملوك لله ، ميّزه عن سائر المخلوقات بالتكريم وقابليّة المعرفة والعلم ، وإلى أنّ الكون الذي يراه من حوله مخلوقات مسخّرة

---

(١) بحث ألقاه العلامة الشهيد الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى في أحد المؤتمرات / ثم نشره على موقعه الالكتروني ـ نسيم الشام www.naseemalsham.com .

لمصالحه مُسَيَّرة لتحقيق احتياجاته ، وإلى أنّ هذه الحياة التي يعيشها الإنسان فرصة أمكنه الله منها لأداء الوظيفة التي شرّفه الله بها وكلّفه بالنهوض بأعبائها ، وهي قيامه بعمارة الأرض عمراناً ماديّاً وحضاريّاً تبرز فيه معاني عدالة الله تعالى ومظاهر حكمته ودلائل رحمته .

فهذا هو قرار العقل وحكمه في فهمه لحقيقة الكون والإنسان والحياة ، ومن ثمّ فهو الموضوع الذي ينبغي أن تسعى العمليّات التربويّة لإخضاع مشاعر الوجدان ورغائب الأهواء للتعامل معه والانقياد له .

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق المنطلق ، وهو معرفة الإنسان والكون والحياة ، ثمّ إلى العملية التربويّة ، وهي العمل على إخضاع العواطف ورغائب الشهوات والأهواء لقرارات العقل وحكمه .

لقد كانت بعثة رسول الله ﷺ تحقيقاً وتجسيداً للسبيل إلى كلّ منهما ، ولقد كان القرآن الذي تنزّل عليه وحياً بألفاظه ومعانيه هو المصدر الأوّل للمعرفة وهو المبصِّر بمنهجها المنطقيّ والعلميّ ، وكان كلٌّ من سيرته وخُلُقه السبيل التربويّ إلى تحقيق الغاية التربويّة المتّفق عليها في العالم كلّه ، وهي إخضاع العواطف والرغائب الشهوانيّة لقرارات العقل وحكمه .

ولقد جاء القرآن بوضع الأسس الكليّة للتربية إلى جانب التبصير بالمنهج العلميّ للمعرفة ، وهي ما يعبّر عنه بالتزكية ، أي تطهير النفوس من الرعونات ، وتحريرها من أسر الأهواء المحرّمة ، وما يعبّر عنه بالرغبة والرهبة والحُبّ ، ثمّ جعل من المزايا والأخلاق

الإنسانيّة المثلى التي ميّز بها نبيّه محمّداً ﷺ تفصيلاً لمعنى التزكية وتبصيراً بالسبيل إليها ، وعاملاً يدعو كلّ من تبيّن فيه هذه الأخلاق والمزايا الإنسانيّة ـ مشاهدةً أو سماعاً ـ إلى حبّه والتعلّق به والاقتداء بسلوكه .

فكانت بعثة محمّد ﷺ نعمةً من الله تعالى أهدت إلينا قواعد المعرفة والعلم ، وسبل التربية التي تحرر الإنسان من غوائل النفس، وصدق الله القائل تثبيتاً لهذه الحقيقة : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] ، والقائل : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ومن ثَمَّ جعله الله بسبب هذه المزيّة قُدوةً للناس ، وجعل منها حاملاً على محبّتهم له وتأسّيهم به ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وإنّها لصورةٌ رائعةٌ من رحمة الله بعباده أن يجعل من المزايا الإنسانيّة الرفيعة في حياة رسول الله ﷺ التي يتعشقها كلّ إنسان سويّ في طبعه وإنسانيّته ، أقصر طريق وأقوى جاذب إلى اتّباعه والاقتداء به .

ولسنا هنا بصدد الحديث مفصّلاً عن شمائله ﷺ التي أَفردَ في الحديث عنها كثير من العلماء والمحدّثين مؤلفات خاصّة ببيانها ، وتصوير شخص رسول الله ﷺ وحياته من خلالها ، ولكنّا نستعرض بعض الصور التي تُبْرِز لنا السموّ الأخلاقيّ في شخص رسول الله ﷺ ، وتبرز لنا أثر ذلك في حبّه والتعلّق به ، وتحرير النفوس من رعوناتها ،

وإخضاعها لقرارات العقل وأحكامه .

ـ روى ابن حبان في صحيحه قصّة الأعرابيّ المشرك الذي اخترط سيف رسول الله ﷺ وهو نائم ، في ساعة كان هو وأصحابه يستريحون فيها أثناء عودتهم من غزوة ذات الرقاع ، فأيقظه الأعرابي والسيف مصلَت بيده عليه ، قائلاً : من يمنعك منّي ؟ فقال له : الله ، فسرى الرعب في أوصال الأعرابيّ وسقط السيف من يده ، ولكنّ رسول الله ﷺ أجلسه ولم يعاقبه ، وأنبأ بذلك أصحابه الذين كانوا نياماً من حوله ، فأسلم الأعرابيّ وانطلق إلى قومه يقول لهم : جئتكم من عند خير الناس[(١)] .

إنّ من الواضح أنّ القناعة الفكريّة ليست هي التي لعبت دوراً في هداية الأعرابيّ ، ولكن الذي لعب الدور في ذلك إنّما هو خُلُق رسول الله ﷺ ، الذي ظهر في صفحه عن الأعرابيّ الذي قصد قتله ، فأورثه ذلك حبّه ، وكان من تأثير حبّه لرسول الله ﷺ أن حرّره من رعوناته وعصبيّته ، وأخضعه لحكم العقل وقرار المنطق ، الحافزين له على الإسلام ، وتلك هي التربية التي كانت السلاح الأمضى بيد رسول الله ﷺ في طريق القيام بدعوته .

ـ روى الإمام أحمد وابن اسحاق والبغوي كلّهم بألفاظ متقاربة ،

(١) أخرج القصة بنحو ما أوردها الشيخ هنا ابنُ حبان في صحيحه ، باب الإمامة والجماعة ، باب صلاة الخوف (٢٩٣٥) ، وأصل الحديث عند البخاري ، في المغازي ، باب غزوة ذات الرقاع (٣٩٢١) ومسلم ، في صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الخوف (١٤٣٦) .

أنّ عديّ بن حاتم كان امرءاً شريفاً في قومه ، وكان يأخذ من قومه ضريبةً تسمّى « المرباع » ، فلمّا سمع برسول الله ﷺ ومقدمه إلى المدينة كره دعوته ، وترك قومه ولحق بنصارى الشام خوفاً على مكانته وشرفه في قومه . قال : فكرهت مكاني في الشام أكثر من كراهتي لدعوة رسول الله ﷺ ، فعدت إلى المدينة ودخلت عليه وهو في مسجده ، فسلّمت عليه فقال : من الرجل ؟ فقلت : عديّ بن حاتم . فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته . فوالله إنّه لعامد بي إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تُكَلِّمه في حاجتها . فقلت في نفسي : والله ما هذا بملك . ثمّ مضى بي حتّى إذا دخل داره ، تناول وسادةً من أدم محشوّة ليفاً فقذفها إليّ وقال : اجلس على هذه ، قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ على الأرض . فقلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك . ثمّ إنّ رسول الله ﷺ حدّث عديّاً عن الإسلام وعن مستقبله ، وعن المستقبل المشرق الذي سيؤول إليه حال المسلمين ، وسرعان ما تفتّحت نفس عديّ لقبول الإسلام ، فأعلن إسلامه ، وانخلع عن مظاهر الأُبَّهَة والترف اللتين كان قد أسبغها عليه قومه .

إنّ محلّ الشاهد في قصّة عديّ هذه أنّ فكره لم يكن محجوباً عن دلائل نبوّته قبل أن يراه ويجلس إليه ، فقد كان يسمع عن صفاته هذه التي رآها فيه ، قبل أن يدفعه كبرياؤه لمفارقة المدينة واللحاق بالشام ، بل كان يسمع عن صفاته هذه أثناء وجوده فيها ، ولكنّه كان

محجوباً عنها بتساميه ، وبرعوناته وأهوائه التي نشأ عليها . فلمّا وفد إلى المدينة ، وفوجىء بأخلاق النبوّة في مظهر رسول الله ﷺ ومعيشته وسلوكه ، كان ذلك عاملاً كبيراً في انطواء رعوناته والكبرياء التي رُبّي عليها ، وفي يقظة عقله للدلائل الباهرة على نبوّة محمّد ﷺ ، وتحرّره من أسر أهوائه وعصبيّته . وتلك هي حقيقة التربية ، كما عرّفناها في مدخل هذا البحث .

والحقيقة أنّ هذا العامل التربويّ الكامن وراء إسلام عديّ بن حاتم ، هو بذاته العامل الذي أدّى إلى إسلام أكثر الذين تمّ إسلامهم من أهل الجزيرة العربيّة ، ممن رأوا رسول الله ﷺ وتبيّنوا سيرته ومزاياه الأخلاقيّة ، وهذا العامل هو الذي أدّى إلى إسلام الأجيال التي توالت من بعده ، إذ كانت دراستهم أو اطّلاعهم على مزاياه الأخلاقيّة النادرة التي صاغه الله عليها ، هي العامل الأول في ذلك ، وهو عامل تربويّ كما شرحنا وأوضحنا ، وليس عاملاً فكريّاً اقتناعيّاً كما قد يُتوهم .

فلقد كانت القناعة العقليّة والفكريّة موفورة لديهم أو لدى أكثرهم بنبوّة محمّد ﷺ ، ولكنّها كانت ملجمة بلجام التعالي والعصبيّة ، وصدق الله القائل : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤] ، ثمّ إنّ محبّتهم له بسبب أخلاقه ﷺ المثلى هي التي طوت كبرياءهم وتغلّبت على عصبيّاتهم ، فأذعنوا لما كانوا قد عرفوه فيه من قبل .

وإليكم هذا المشهد الآخر من المشاهد التي لا تُحصى لأثر

الأخلاق المحمّديّة في التربية الإسلاميّة التي نُشِّىء عليها أصحاب رسول الله ﷺ والمؤمنون الصادقون من بعده .

في غزوة حنين خَصَّ رسول الله ﷺ المسلمين حديثاً من أهل مكّة بمزيد من الغنائم ، نظراً إلى أنّهم يستحقّون بالإضافة إلى حقّهم في الغنائم سهم المؤلّفة قلوبهم . فسرت وساوس ـ ممّا يتعرّض له الإنسان بدافع من جبلّته ـ إلى أذهان ثلّة من الأنصار ، وقال قائلهم : يَغفر الله لرسوله ﷺ ، يُعطي أقواماً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فجمع الأنصار في مكانٍ خاصّ ، وقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني عنكم ؟ ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله بي ، ومتفرّقين فألّفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ؟ كلّما قال من ذلك شيئاً قالوا : بلى ، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل . ثمّ قال : ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنّة والفضل ! . فقال عليه الصلاة والسلام : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصَدَقْتم ولصُدِّقتم ، أتيتنا مُكَذَّباً فصَدَّقناك ، ومَخْذُولاً فَنَصَرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك . فصاحوا : بل المنّة علينا لله ولرسوله . ثمّ تابع رسول الله ﷺ قائلاً : أوجدتم يا معشر الأنصار في نفوسكم من أجل لعاعةٍ من المال تألّفت بها قوماً لِيُسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون أن يرجع الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير ، وترجعوا إلى رحالكم برسول الله ؟ فوالله لما تنقلبون به خيرٌ ممّا ينقلبون به ، والذي نفس محمّدٍ بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من

الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لَسَلَكتُ شعب الأنصار ، وإنّكم ستلقون أثرة بعدي فاصبروا حتّى تلقوني على الحوض ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناءَ أبناءِ الأنصار . فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله قَسماً ونصيباً .

من الواضح ـ أيّها الأخوة ـ أنّ الحالة التي آلت إليها نفوس تلك الثلّة من الأنصار ، من التأثّر والندامة والصفاء الروحيّ والنفسيّ ، لم تكن بسبب درايةٍ علميّةٍ أو حقيقيّة فكريّة كانت غائبةً عن أذهانهم ثمّ ظهرت ، وإنّما كانت بسبب تربيةٍ وجدانيّةٍ تحقّقت لديهم ، وهيمنت على نفوسهم ، لمّا رأوا مظاهر الرقّة والذوق الرفيع والخُلُق الإنسانيّ السامي المتمثّل في التواضع الصادق العجيب ، ممزوجة بمشاعر المحبّة الشديدة لأولئك الذين انتقدوه ، فغاب النقد وتُنوسي العتاب ، وأجهش الجميع بالبكاء ندماً على ما بَدَرَ منهم ، واستيقظ الحبّ الذي اجتاحهم أواره لرسول الله ﷺ الذي آثر ترابهم على وطنه وفاءً لهم فيما قد واثقهم عليه .

إذن فالدلائل العلميّة الناطقة بنبوّة محمّد ﷺ وصدقه فيما أخبرَ الناسَ به لم تكن هي العامل الأوحد ولا الرئيس في اعتناق أصحابه والذين جاؤوا من بعده للإسلام ، بل ما أكثر الذين احتضنت عقولهم حقائق نبوّته ودلائل رسالته ، فغيّبوها في طوايا نفوسهم الحاقدة والمستكبرة .

وإنّما العامل الأهم يتمثّل في التربية الوجدانيّة التي تسامت إليها

نفوسهم ، بسبب ما رأوه ، فتأثّروا به من أخلاقه الإنسانيّة المثلى .

وهذا يصدق على الذين جاؤوا بعد الصحابة ، من الذين آمنوا به ﷺ ولم يروه ، وقفوا على سيرته وتبصّروا مشاهد حياته وسموّ أخلاقه ، فجذبهم إليه جاذب الحبّ ، فغابت في غمار ذلك الحبّ رعوناتهم ، وخمدت عصبيّاتهم ، وتراجعت أهواؤهم ، فاستسلموا للحقّ الذي آمنت به عقولهم ، وغدت التربية الوجدانيّة هي الحصن الدائم لإيمانهم .

وتلك هي سيرة كلّ من يعتنق الإسلام اليوم ، لاسيّما هؤلاء الكثرة الكاثرة من الغربيين الذين يُحَوِّلهم الإسلام خلال أسبوع واحد من حالٍ إلى نقيضها ، من ضياعٍ عن الهويّة والذات في غمار الأهواء والملذّات ، إلى اصطباغٍ تامّ بصبغة العبوديّة لله ، والتزام كامل بضوابط السّلوك إلى الله .

إنّهما جناحان : جناح الإدراك العلميّ لحقائق الإيمان بالله وجناح التربية الوجدانيّة المنبثقة من المزايا الأخلاقيّة العجيبة لرسول الله ﷺ ، بهما معاً يرقى الإنسان إلى بلوغ مرضاة الله . فنسألك اللهم أن يحققنا بذلك .

* * *

كيف يزكي المسلم نفسه باختصار(١)

[التزكية : حقيقتها ، ثمراتها ، سلوكها ، مراتبها ، الفناء والبقاء وعلاقتهما بالتزكية ، أوراد ينصح بها]

إن « التزكية » ـ وهي كلمة قرآنية ـ تعني السعي إلى تطهير النفس من الشوائب التي قلّما تنفك منها ، والتي إن بقيت عالقةً بها تورد صاحبها المهالك ، وتحيل إيمانه بالله إلى مظهر لا حقيقة له ولا فائدة منه ، وأخطر هذه الشوائب الكبر ، ثم العجب والحقد وحب الدنيا ومظاهرها من المال والجاه والرئاسة. . إلخ .

ويتلخص سبيل التزكية باستحواذ التوحيد يقيناً راسخاً على العقل ، أي أن يتحول التوحيد من كلمة « لا إله إلا الله » ـ إذ يرددها اللسان ـ إلى يقين عقلي جازم بأن الله واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، لا يشركه في شيء منها أحد ، فهو وحده القائم بأمر هذا الكون كله ، ومن ثم فهو الموجد والمعدم ، وهو الضار والنافع ، وهو المعطي والمانع .

غير أن التوحيد لا يتحول من شعار على اللسان إلى يقين راسخ في

---

(١) الأصل فيه استفتاء وجهه أحدهم إلى العلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى ، ثم وافق على دمجه مع استفتاء آخر ونشره كمقال متكامل في موقع نسيم الشام وجُهز قبيل استشهاد العلامة الإمام وبتنسيق معه مباشرة ، وهو من دوّن الأوراد التي ينصح بالالتزام بها .

العقل ، ثم تأثير على الوجدان ، إلا بالإكثار من مراقبة الله ، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من ذكره ، أي تذكره ، واللسان ليس إلا أداةً لهذا التذكر . وخير سبيل لهذا الذكر والتذكر أن يربط الإنسان دائماً النِّعَمَ التي تَفِدُ إليه بالمُنْعِم ، فكلما أقبلت إليه نعمة تذكّر بها المنعم وأيقن أنها وافدة إليه منه ، ومن المعلوم أن نعم الله كثيرة لا تحصى ، ولقد كانت هذه طريقة سيدنا رسول الله ﷺ في ذكر الله عز وجل .

فإذا استمر العبد على هذا العلاج من الذكر والتذكر ترسخت عقيدة التوحيد في عقله ، وغابت الفاعلية المزيفة للأغيار عن عقله وتفكيره . ثم إن هذا اليقين الاعتقادي ينعكس إلى قلبه حباً ومهابةً وخوفاً ، إذ يعلم بعقله ويشعر بفؤاده أن المحسن الأوحد في الكون هو الله ، والمتصرف بالعباد والمخلوقات هو الله ، فتذوب في ضرام هذه المشاعر المهيمنة تلك الشوائب التي كانت عالقة بالنفس ، فلا يرى لنفسه قيمة ذاتية حتى يتكبر بها ، ولا يرى الدنيا بكل معانيها وما فيها إلا جنداً بيد الله عز وجل .

أما ما تسألني عنه من الأحوال المتمثلة فيما يسمونه الفناء والبقاء ونحوهما ، فقد دأب المتصوفة المتأخرون ومن جاء على غرارهم في هذا العصر ، على اعتبار هذه الأحوال مراحل على الطريق يجب على السالك أن يضع نصب عينيه الوصول إلى كل منها ، ثم اجتيازها إلى التي تليها .

غير أن هذا التصور ـ مع السلوك الذي على أساسه ـ مخالف لما

كان عليه السلف الصالح ، بل هو مخالف لما كان عليه أئمة السالكين في هذا الطريق ، ومنهم رجال الرسالة القشيرية .

إن المطلوب من السالك أن يسعى بالوسيلة التي ذكرتها إلى الاصطباغ التام بحقيقة التوحيد ، والغاية الوحيدة التي ينبغي أن يتمثلها في ذهنه هي أن يرقى إلى حالة يتعامل فيها مع الأسباب الكونية مع رؤية المسبب وحده ، وعند هذه الغاية يصطبغ السالك بحقيقة العبودية لله عز وجل ، وهي قصارى ما كان السلف الصالح يطمحون إليه .

وفي الطريق إلى هذه الغاية قد يعاني بعض السالكين مما يسمى الفناء ، فيفنى أي يذهل ويغيب عن الأكوان بالمكون ، فلا يرى لها وجوداً ، وقد ينطق في هذه الحال بما يعبر عن شعوره هذا ويخالف الواقع والشرع .

فلنتعلم أن هذه حالة طارئة ما ينبغي أن يعدّها السالك مرحلة لا بدّ من المرور بها أو الوقوف عندها ، بل عليه أن يعمل على تجنبها جهد استطاعته ، فإن غُلب على أمره ، فليعلم أنه ضعْف ابتُلي به من حيث عوفي منه أصحاب رسول الله ﷺ ومن سلكوا نهجهم من التابعين وخيرة السلف الصالح ، وليفعل كل ما يملك لتجاوز هذه الحالة إلى ما يسمى بالبقاء ، وهو الوضع الذي يرى فيه الأسباب ويتعامل معها طبق موازين الشرع ، ولكنه لا يرى لها أيّ فاعلية ، ولا ينسب أي تأثير إليها ، وهذا الذي قلته عن الأحوال يقال أيضاً عما يسمونه المقامات ، كمقام الصبر ، ثم الشكر ، ثم الرضا ، ثم اليقين .

إن من الخطأ أن يضع السالك نصب عينيه التنقل في هذه المقامات

ليصل أخيراً إلى مقام اليقين ، بل عليه منذ بدء سلوكه أن يبذل كل ما في وسعه لبلوغ أعلى مراتب اليقين ، فالصبر ليس منفكاً عن اليقين ، والرضا ما ينبغي أن ينفك عن الصبر ، بل المطلوب ممن قرر أن يجاهد نفسه الأمارة بالسوء أن يضع نصب عينيه أن يتحلّى في وقت واحد بالصبر والرضا والشكر والتوكل واليقين ، وسبيل ذلك هو الإكثار من ذكر الله الذي لا يراد منه فرقعة السبحة في اليد ، وإنما المراد منه بعبارة مختصرة تذكر المكوِّن كلما رأيت الأكوان ، وتذكر المنعم كلما رأيت النعم . نعم قد يُلجِىء نظام السلوك بعض السالكين إلى التدرج في بعض هذه المقامات ، ولكنها حالات اضطرارية لأصحابها ، وليست منهجاً تربوياً لعامة السالكين .

ثم اعلم يا أخي أن هذا الذي تسألني عنه ـ أياً كان اسمه ـ ذوق بل شعور وسلوك يهيمن عليه نظام الشرع ، وليس علماً يُروى أو فناً يمثّل أو مهنة يستدرّ بها رزق أو تُنال بها رتبة ! .

وقد قال أحد الربانيين من السلف الصالح : « كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له ، ثم أصبح اليوم اسماً لا مسمى له » .

❊ ❊ ❊

سؤال : الدكتور الحبيب ومعلمي الشيخ محمد سعيد ، ثبته الله على الحق : أرجو إعطائي ـ بشكل مختصر ـ ورداً يومياً لي لأسير عليه من الأذكار لأصلح نفسي ، وورداً آخر أجتمع عليه مع العائلة وحبذا لو يكون نفس أوراد والدك رحمه الله .

الجواب : الأوراد التي كان والدي حريصاً عليها ويوصي بها :

- الاستغفار قبيل الفجر (مائة مرة)
- وشهادة « لا إله إلا الله » بعد الفجر (مائة مرة).
- والتسبيح بصيغة « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » (مائة مرة) .
- والصلاة على رسول الله ﷺ (مائة مرة) .
- وقراءة ورد الإمام النووي .
- وقراءة سورة يس صباحاً مع ما تيسر من تلاوة القرآن .

* * *

العصبية الحزبية آفةُ الدعوة إلى الله[1]

الدعوة إلى الله عن طريق تعريف الناس بدلائل ربوبيّته وبهوياتهم عبيداً مملوكين لله ، وتبصيرهم بأحكام دينه ، شكل من أقدس أشكال التعاون الذي حضَّ عليه بيان الله تعالى في قوله : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة : ٢] .

فقد شاء الله تعالى أن يجعل عباده متفاوتين في القدُرات ، ففيهم العالِم وفيهم الجاهل ، وفيهم الملتزم بأوامر الله تعالى ، وفيهم الشارد عن صراطه ، وجعل ضريبة الهِداية التي أكرم بها طائفةً من عباده أن يعودوا بهذه الهداية إلى التائهين الشاردين ، ونبَّهَهم إلى هذا الواجب الذي أناطَه في أعناقهم ، وألزمَهم النهوضَ به في مواضع كثيرة من كتابه العزيز ، قال تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ١٠٤] ، وقال عز وجل : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : ٣٣] .

ما هي الصفات التي يجب أن يتحَلَّى بها الداعي إلى الله عزّ وجلّ ؟

* **العلم** : فالشريعة الإسلامية لا تُجيز لإنسانٍ أن يَعِظَ الناسَ موعظةً عاطفيةً وجدانيةً فارغةً من العلم ، ولا يُشتَرَط أن يكون مُطَّلِعاً

(١) مستخلص من الحلقة السابعة من برنامج « مع البوطي في قضايا الساعة » .

على كلّ علوم الإسلام ؛ بل يكفيه أن يكون خبيراً في الأمر الذي يريد أن يحاور الناس فيه .

* أن يكون سلوكُ الدّاعي جذّاباً لأنّ صحيحَ اللسان يعبّر عن مكنون العلم ، وكلماتُه تنتهي ويتبدّد جَرْسُها داخلَ الصِّماخ ، وتستقرّ معانيها في تجاويف الدّماغ ، أما الذي يجذب الناس إلى الدّاعي فهو واقعُ حاله وسلوكُه وصِلَتُه بالله ، وتَرَفُّعُه عن أغراض الدنيا كمصلحةٍ أو مرتّب أو منصب أو غير ذلك .

* أن تنبعث دعوتُه من شعور غامرٍ بالشفقة والرحمة لعباد الله جميعاً ، فعلى كلّ من جنّد نفسه داعياً إلى الله أن يجعل من قلبه وعاءً يفيض بالرحمة لعباد الله كلهم ، على اختلاف نِحَلهم ومِللهم ومشاربهم واتجاهاتهم ، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يضحيَ الدّاعي بحظوظه الشخصية ومصالحه الدّنيوية في سبيل تحقيق الخير لهم جميعاً ، لا أن يجعل من دعوته وسيلةً لفضح المدعوّ وإبراز انحرافه على رؤوس الأشهاد ، وعليه أن يكون دقيقاً في مراقبة نفسه ؛ ألا يتسرّب إليها شيء من الرغبة في المكِيدة والانتقام من المدعو ، فهيهات أن يكون الإنسان ناصحاً إذا كان مُبغضاً لمن ينصح .

وهذا لا يتعارض مع ما هو مقرَّرٌ من ضرورة البُغض في الله ، لأنه لا يعني أن تكون في نفس المسلم أيّ كراهية للشخص بالذّات ، بل يتّجه البُغض إلى المعصية التي تلبَّس بها ، أو الكفر الذي أصرّ عليه ، وهذا في حقيقته ليس إلا معنىً من معاني الشفقة على شخص العاصي ، وهذا ما عَنَاهُ سيدنا لوط على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام ،

عندما قال لقومه فيما رواه ربُّه عنه : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٨] ، فالداعي طبيب والمَدعوّ مريض ، والطبيب لا يكون طبيباً ناجحاً إلا إذا اندفع إلى تطبيب مريضه بدافع من الشفقة والرحمة .

هل هناك ما يمكن أن يميّز الدعوة في المجتمعات الغربية ؟

ينبغي على من يدخل في المجتمعات الغربية داعياً إلى الله أن يبدأ بترسيخ جذور العقيدة في طوايا فؤاد هذا الإنسان بالدّلائل العلمية التي لا يُستَغنى عنها ، لكنه لا ينبغي أن يتوقف عند ذلك الحدّ ، وإنما عليه أن يتجاوزه إلى النواحي العاطفية من خلال إبراز دلائل عبوديّة الإنسان لله عزّ وجلّ ، وعوامل محبّة العبد لله بالطريقة الوجدانية ، لأن الرجل الغربيّ اليوم مُشبَع بالقضايا الفلسفية العقلانية ، لكنه يعاني جفافاً وحاجةً إلى الأمور العاطفية الوجدانية ، فإذا نقَلَه من الضياع الإلحادي إلى معرفةِ ذاتِه عبداً لله عزّ وجلّ ، وأعطاه زادَه اليقينيّ ، وعرّفه بمسؤولياته تجاه مولاه وخالقه ؛ عليه أن يتركه لهذا الإيمان ويبتعدَ عن إدخال عصبيته المذهبية في نفوس وعقول أناسٍ أجانب لم يؤمنوا بعدُ بالله الإيمان الكافي .

ماذا تعني العصبية الحزبية وما هو خطرها على أعمال الدعوة إلى الله ؟

العصبية يمكن شرحها بأنها الأنانيّة ، فنحن نعلم أن الشخص في كثير من الأحيان يوصَف بأنه أناني ومستكبر ، إذا كان يضحي بحقوق الآخرين في سبيل ذاته ، وفي سبيل أفكاره ومصالحه ، فذاتيّتُه مقدسة عنده إن أصاب أو أخطأ، دون الالتفات إلى ميزان الصِّحة وعدم الصحة .

وكما تكون الأنانية وصفاً لشخص ، تكون أيضاً وصفاً لجماعة أو حزب ، فالحزب شخصية اعتبارية ، إن لم يلتفت أفرادُه إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه سيقعون فيما يقع فيه الفرد من أنانية ، فترى أن المنتسبين إليه يعدّون أنفسهم من الدرجة الأولى ، ويرون أن الآخرين من الدرجة الثانية ، ويرددون شعار « من لم يكن مِنّا فهو علينا » .

وهذه الأنانية الحزبية تعد أشد خطراً من الأنانية الفردية ؛ لأنها استكبار خفيّ لا يتحرّك إلا تحت أقنعة الانتصار للحق ، فلا جَرَم أنها أعمق في النفس وأكثر انتشاراً في المجتمع وتأثيراً فيه ، ومن أسوأ آثارها سحْقُ مشاعر الودّ والتآلف بين القلوب ، وإشاعة عوامل الحقد والبغضاء فيما بين الجماعات ، وتحويلُ الأمة والمجتمع إلى فئات متناحرة متصارعة ؛ تحت اسم الدفاع عن الحق والانتصار له ، لأن الأصلَ في المجتمع الإسلامي أنه خاضعُ لقرار الأخوّة التي صاغها الله وأعلن عنها في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] فالحقيقة البارزة التي أوضحها لنا الله عز وجل أن الأسرة الإسلامية المؤمنة هي في الواقع أسرة واحدة ؛ تربطها بعضها ببعض الأخوة التي أعلن عنها الله عزّ وجلّ ، فإذا أردتُ أن أنشىء حزباً أكون قد اقتطعْتُ من هذا الحزب الواحد الذي أعلن الله عز وجل رابطة الأخوة بين أفراده جميعاً ، اقتطعتُ منه جزءاً وجعلت منه حزبي ، ويوماً بعد يوم بعد يوم ، ستصبح علاقتي مع أعضاء هذا الحزب متميِّزة عن علاقتي مع من قال لي الله عنهم : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وعندما أتحدث عن أعضاء هذه الجماعة أقول هذا من إخواننا ، وينبغي أن

نرعى إخواننا ، وفي هذه الحالة أكون قد خالَفْتُ مخالفةً حادة قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ .

مثلاً في فحوص الجامعة ، لنفرض أنني حزبيّ عندما أصحّح أوراق الطلاب ، أحاولُ أن أستبين اسم الطالب ، فإذا كان عضواً في الحزب أغضّ النّظر وأرفعه إلى مستوى النجاح ، وإذا لم يكن من الحزب ربما أُعرِض عنه .

وقد يسأل أحدهم ألا يمكن أن يكون الحزب الذي ينهض بأعمال النشاط الإسلامي متحرراً من العصبية ؟ الواقع الملموس يقول أنه لا يمكن ، أقلُّ ما في الأمر أن الحزبَ يقتطع من الجماعةِ الإسلاميةِ المتمثلة في كلّ المؤمنين بالله عز وجل قطعةً ، ويفصلها عن الأخوّة الإسلامية الإيمانية .

عندما يتحدث البيان الإلهي عن المسلمين يصفهم بالحزب الواحد : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٦] ، ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢] ولا يوجد في القرآن الكريم آيةٌ واحدةٌ تنعَتُ المسلمين بالأحزاب ، بل هم حزبٌ واحد ، فإذا تحدَّث عن الآخرين جَمَعَ : ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٢] ، ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم : ٣٧] ، لأن القرآن الكريم يشدّد على أن الأمة الإسلامية ينبغي أن تكون حزباً واحداً .

ومما يرتبط أيضاً بهذا المعنى : نلاحظ أن الله عز وجل في القرآن

عندما يتحدث عن النور يتحدث عنه بصفة المفرد ، فإذا تحدث عن الظلام يتحدث عنه بصيغة الجمع ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام : ١] ، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة : ٢٥٧] لأن مصادرَ الظلمات كثيرة ، والمذاهبُ الشّاردةُ عن الحق كثيرة جداً ، لكن مصدر النور واحد ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وهذا يبدو جلياً في قوله عز وجل : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٥٣] طريق الحقّ طريق واحدة ، فإذا شرد الإنسان عنها يجد نفسه أمام سُبُل شتى تَتَوازَعُه .

فالمسلم يندرج في هذه الجماعة الواحدة ويقوم بكل ما يستطيع القيام به من الدعوة إلى الله باعتباره جزءاً من هذه الجماعة .

كان بديع الزمان سعيد النّورسي رجلاً ربانياً ، عاش في أواخر الخلافة العثمانية وأوائل عهد أتاتورك ، وكان داعياً إلى الله ، لكنه كان بعيداً عن السياسة ، وله كلمةٌ انتشرت في العالم العربي كله : « أعوذ بالله من الشيطان والسياسة » . حُوكِمَ في عهد مصطفى كمال ، وعندما وقف في المحاكمة اتُّهم بأنه يسعى إلى إقامة حزب ، فقال في دفاعه عن نفسه : « إنه ينبغي أن أبادر فأُعَرّفَكم على هذا الحزب الذي انتسبتُ إليه ، إنه الدائرة التي تتسع لأربعمئة مليون من أعضائه ـ كان هذا عدد المسلمين آنذاك ـ المنتسبين إليه والعاملين من أجله ، وبياناتُه التي تَنْشر نُظُمَهم وأفكارَهم تتمثَّل في عموم المكتبة الإسلامية التي تعكس حقيقةَ الإسلام وجوهرَه ، أما صحافتُه فتتمثَّل في كل صحيفةٍ

تتَّخذُ من إعلاء كلمة الله شعاراً لها ، مركزُ هذا الحزب عامَّةُ ما ينتشر في بقاع الأرض من مساجدَ ومدارسَ لتعليم الإسلام وزوايا لذكرِ الله وعبادته ، حزبٌ هذا شأنه لابدَّ أنَّ رئيسَه هو فخر الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام ، ومسلكُه التربوي هو أن يجاهد كلُّ عضوٍ فيه نفسَه التي بين جَنبَيْه حتى يجعلَ منها قدوةً صادقةً لكلّ مسلم ، ونظامُه يتمثَّل في الوحي الإلهي والسنةِ النبوية ، وسيفُه في المعارك الحُجَجُ القاطعةُ ، ذلك لأن التغلُّبَ الحقيقيَّ إنما يكون بالإقناع العقلي لا بالإكراه المادي . إنّ تَحَرّي الحقيقة ليس له من سبيلٍ إلا سبيلُ المحبّةِ والأخلاق الحميدة ، ولذلك فإن تسعة أعشار الدين الإسلامي يتمثل في مقومات هذين المبدَأَيْن ، والعُشْرُ الأخير هو وحده الذي يتمثل في السياسة ، وهذا ما نوكِله إلى أمانةِ أولي الأمر ووُجدانِهم ، فأنا أفخر بأنّي واحدٌ مِن أصغرِ أفرادِ هذا الحزب ، وبأنّي واحدٌ من أولئك الذين يعلنون دائماً عن التّشبُّث بمبادئه ونظامه » .

هذا النهج هو النهج الأمثل ، منهج واحدٌ فقط يفتح الله عز وجل به قلوباً غُلْفاً في مدينة ؛ بل ربما دولة .

فما هو البديل الذي يجعل العمل الدّعوي منظَّماً ومنضبطاً ؟

البديل أن تكون الدعوة إلى الله شكلاً منظَّماً في جماعةٍ متآلفةٍ متواثقة متعاهدةٍ على العمل ، والسير في طريق مرضاة الله سبحانه وتعالى ، ويكون منهجها مُتمثِّلاً في كيفية محاورة الآخرين ، وضبطِ العملِ الدّعوي بمنهج تربوي سليم ، وجعلِه بعيداً عن الفوضى ،

لا في رسم الخُطط التي تتكفَّل بترسيخ وجودٍ أفضل وأكثر قوةً للحزب على طريق السعي للوصول إلى مناطق الحُكم والنفوذ ، فهذا يُسمّى عملاً حركياً لا دعوةً إسلامية .

هل تعود مشاركة الأحزاب في الأنشطة السياسية بالخير على الدعوة الإسلامية ؟

دلت التجربة على أن هذه الفائدة هي فائدة في الظاهر ولكنها تستبطن نقيض ذلك .

في الثمانينات من القرن الماضي دُعيتُ من قِبَل بعض المسؤولين الكبار إلى أن أنشىء حزباً إسلامياً ليكون من أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية ، فقلت : أما ضمانات النجاح فأنا أضمن ذلك ، وأنا أعلم أنني لو أعلنتُ أنني سأنشىء حزباً إسلامياً لن يقلَّ عدد الداخلين فيه عن المليون خلال شهر واحد ، لكن ماذا أكون قد صنعت للإسلام ؟ هل أسَأتُ أم أَحسنت ؟

الجواب أنني سوف أسيء لأسباب :

أولاً : عندما يكون لي كرسي سادس أو خامس مثلاً في الجبهة الوطنية التقدمية ، فمعنى ذلك أن المجتمع السوري تقاسَمَتْه هذه الأحزابُ الخمسة ، ونصيبُ الإسلام منه الخُمُس أو السُّدُس ، ولكنَّ الإسلامَ ليس إصبعاً خامساً بين هذه الأصابع ، الإسلام هو المِعصَم الذي يجمع ، إذا أردتُّ أن أجلسَ على كرسي أصبحتُ قسيماً ، فأكون قد أسأتُ للإسلام .

ثانياً : عندما أنشىء هذا الحزب سأجد من حولي أناساً دخلوا فيه يحيطون بي يحذِّرونني، يمدحونني.. الخ ، سأجد بأن علاقتي بهذه الجماعة أصبحت هي البديل عن قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، ولسوف أجد أن علاقتي مع هؤلاء الإخوة تعلو فوق علاقاتي مع بقية الناس ، فكيف ألقى الله ؟! ربما يكون أناسٌ بعيدين عن هذا الحزب أفضلَ بكثير من كل هؤلاء الأعضاء .

ثالثاً : هنالك سياسيون حرفيون مِهَنيّون يريدون أن يصلوا إلى أمانيهم من أقصر طريق ، عندما يجدون أن هنالك حزباً إسلامياً ، له مزية لا تتمتع بها بقية الأحزاب من ليبراليين ، وشيوعيين ، واشتراكيين.. الخ ، وهي أنه يستحوذ على العاطفة الإسلامية للمجتمع ، فعندما أخاطب الناس بأنني مسلم ، وأريد أن أطبق الإسلام ، سأجد عشرات بل مئات الناس يفسحون لي المجال ، ويتبنون وصولي إلى الحكم ، هؤلاء السياسيون المحترفون يسيل لعابُهم ، وسرعان ما يأتي الواحد منهم فيطلق لحيةً ، ويُظهر التمسُّك بالدين والغيرة على الإسلام، ويسجد ويضغط عند سجوده ليُحدِث علامةَ سجودٍ على جبهته ، فأنا ما أدراني بحقيقته ؟ النتيجةُ أنني سأجد أن ظهري أصبح مَطِيَّةً لهؤلاء الناس، ركِبوا الإسلام عن طريقي ، فلما وصلوا إلى الحكم تنكَّروا لي .

أنا لا أتحدث عن خيال ، لا يوجد حزب إسلامي إلا وخمسون بالمئة منه أو أكثر من الحرفيين الذين دخلوا في هذا الحزب ؛ لأنهم وجدوا أن الطريق معبدٌ إلى أمانيّهم السياسية المختلفة التي يريدون الوصول إليها .

رابعاً : عملُ الدعوة إلى الله عز وجل لا يُكَمِّله النشاط السياسي ، بل يلغيه وينسخُه ، لأنني عندما أقوم بعمل سياسي لا أستطيع أن أقنع رئيسَ الدولة أو المسؤول بأنني أنصحه لله ، عندما يجد أنني أُناكِبُه العمل وأسابقه في الهدف ، ويسيل لعابي على الكرسي الذي يجلس عليه ، كيف يصدّقني ؟ .

لكن عندما يعلم أنني زاهدٌ في كرسيِّه ، وإنما أطمع في عقله ؛ عندئذ يمكن أن يستجيب لي .

كيف يجب أن تكون علاقة الدعاة مع ولي الأمر ؟

علماء الشريعة الموثوقون الربانيون من أمثال الإمام الرازي ، وحجة الإسلام الإمام الغزالي ، والإمام النووي ، يقولون :

أولاً : ينبغي أن يستعلي ويستغني الداعي عن المغانم المالية التي قد تصل إليه من الحكام والقادة والمسؤولين .

ثانياً : ينبغي أن يُبرِز ما يُثبِت صدقَه ، وعِفَّته وتساميه عن كرسي الحكم الذي يَتبَوَّؤُه ذلك الحاكم .

ثالثاً : إذا دعاه الحاكم يجب أن يلبِّيَه ، وأن يجعل لقاءه لقاء نصح له ودعوة ، ولا ينبغي أن يجعل هذا اللقاء فرصةً لمَغنم دنيوي أيّاً كان .

رابعاً : إذا سنحت الفرصة للداعي إلى الله أن يجلس إلى حاكم ، فدعاه ونصحه تنفيذاً لقول رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق

عند سلطان جائر »[١] ينبغي إذا خرج أن لا يُحَرِّكَ لسانه بما حصل في ذلك المجلس ، فلا يقول في المجالس مثلاً : أنا اليوم دُعيت إلى مجلس عند الرئيس الفلاني ، فقلت له كذا ، وقلت له كذا ، لأن الرجل في الواقع فاسق لأنه كذا ، ثم يجلس في مجلس آخر ، ومجلس آخر ، هذا لا يجوز أبداً ، وإن فعل ذلك فهو دليلٌ على أنه يُعاني من نوعٍ من النفاق والرياء .

وكثيرٌ من الدُّعاة يغيب عنهم هذا الأدب الذي يذكره العلماء المسلمون فيما يتعلق بالعلاقة بين الدّعاة والحكام ، فحديث : (كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائر) يجعلونه « كلمة حق على سلطان جائر » أو « في غياب سلطان جائر » فيصعد المنبر ويقول : « الحكّام هكذا شأنهم يظلمون ، يرتكبون. . . » ولكنَّ الحكام لا يسمعون ، فهو يحكي للناس ، والنبي ﷺ لم يقل : « كلمة حق في غياب سلطان جائر » أو « على سلطان جائر » إنما قال : عند ، أي تجلس إليه ، وتقول له هذا الكلام ، وليست كلمة (عند سلطان جائر) دالَّةً على أنه ينبغي أن تكون هذه الكلمة بقسوة ، كما يظنّ البعض ، أبداً . فالباري عز وجل قال لسيدنا موسى وهارون : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه : ٤٤] .

والإمام الغزالي في كتابه الإحياء يُطيل ويُفيض في هذه الآداب ، ويذكر قصصاً واقعية ، أنا أقول هذا الكلام لإخواننا الذين يريدون أن ينهجوا المنهج الإسلامي في الدعوة إلى الله عز وجل : والله يا إخواننا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١١٥٩) .

هذا ما ينبغي أن يكون ، وإذا كان الداعي إلى الله ملتزماً بهذه الآداب ، ووقف أمام الحاكم يدعوه إلى الله وينصحه ، فسيقبل منه النصيحة .

هل يعني الترفع عن المكاسب الدنيوية أنه لا يجوز للإمام أن يأخذ أجراً على إمامته ؟

لا يوجد مشكلة أن يأخذ الإمام أو الخطيب أجراً ، والعلماء أوضحوا ذلك ، ولكن هذا العمل ليس هو العمل الذي يجعل منه داعياً إلى الله بالضوابط التي ذكرنا ، وإنما عليه أن يُضيف إلى هذا العمل الذي يقوم به عملاً آخراً طوعياً بأي طريقة من الطرق ، يجلس ويدعو الناس لحوار ، أو يذهب إلى بعض الأرياف ، فيشتغل مع بعض الجهّال التائهين ويحاورهم ، ويلاطفهم ويدعوهم إلى ما يجهلون من أمور الدين ، فيُكمل النقص ، والأجرُ الذي يأخذه لا حرجَ فيه مع ذلك . لا نقول أنَّ هذا الخطيب لا ثوابَ له مطلقاً ، فإذا كان يعلم من نفسه أنه لو لم يتقاضَ هذا المرتَّب سيظلُّ يؤدِّي وظيفتَه هذه ، فلن يحرمه الله من أجر الدعوة ، لكنه ينبغي أن يضيف إلى ذلك دعوةً صافيةً من الشوائب .

دُعيتُ عندما كنت أدرِّس في الجامعة لإلقاء درس في أحد مساجد دمشق ، ولم أكن وقتها أدرّس في المساجد ، فاستعفَيْتُ ، فسألني والدي ـ وكان من كبار الصالحين ولعلّه كان من الأولياء ـ لماذا استعفيتَ ؟ فأجبتُ بأنني أمارسُ الدّعوة من خلال عملي في الجامعة ، فقال لي والدي : « لا ، هذا العمل الذي تقوم به ليس لك عليه أجر ، لأنك تقوم به مقابل مرتّب ، فإذا انقطع المرتّب تركْتَه .

العمل الذي ينبغي أن تعلم أنه يُقرّبك إلى الله هو أن تجلس مع هؤلاء الناس وتدعوهم إلى الله دون النظر إلى أي هدفٍ دنيويّ » فسلكتُ منذ ذلك اليوم هذا المسلك ، وأخذت أجلس مع شيوعيين وملاحدة ، وكم سمعتُ من كلماتٍ فيها من الهُزْء ما فيها .

مرّةً سألني أحدهم : « إذا أردنا أن ننْهجَ النَّهجَ الذي تتحدّث عنه نصلي ونتجه إلى الاستقامة ، فكم نحتاج حتى يحقق الله لنا النموّ الاقتصادي ونتخلّص من الرجعية ؟ » طبعاً كان يتكلم باستهزاء ، قلت له : أنت ماركسي ، هل سألتَ لينين أو سألتَ الذي يشرف عليك في هذا الموضوع هذا السؤال ؟ هل قلتَ له كم من السنوات ينبغي أن نصبر إلى أن نجد هذا الفردوس المفقود الذي تحدثوننا عنه ؟ أبداً ما قلت ، أنت عبدٌ يا أخي وأنا عبد ، عبوديتنا لله تمنع أن نقول هذا ، وأن نشترط على الله ، ما جئنا إلى العالم بشرط .

والآن هو مِن أفضلِ المصلّين ، ومن أفضل المتجهين إلى الله عز وجل .

* * *

الخاتمة(١)

الدعوة إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى هو العمودُ الفقريُّ في المجتمعِ الإسلاميّ ، بل إنَّ الدّعوةَ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى هي لُبُّ الدّين ، ومن أساسِه وجوهره ، وإذا فرغَ المجتمعُ من دعاةٍ إلى الله ، مرشدينَ إلى دينِ الله عزَّ وجلّ ، وقد آل هذا المجتمع إلى بناءٍ تهاوت دعائمهُ ؛ لا بدَّ أن يتهاوى هو الآخرُ من وراءِ ذلك ، كيفَ لا وإنَّ ربّنا جلَّ جلالهُ ليقول : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ويقولُ عزَّ وجلّ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

وفي هذه الخاتمة أريدُ أن أتكلّمَ عن طرفٍ من آدابِ الدُّعاةِ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى ، وعن طرفٍ من آدابِ المسلمين إذ ينصتونَ إلى الدّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلّ .

إنَّ على الدّاعي إلى ربِّهِ سبحانه أن يعلمَ هذه الآداب ويلتزمها ويتمسّكَ بها ، كما أنَّ على النّاسِ جميعاً الذين يتلقّونَ هذا الإرشادَ والتّوجيه أن يعلموا الآدابَ التي ينبغي أن يصطبغوا بها .

---

(١) مستخلص من خطبة العلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالىٰ بتاريخ (٥/ ١٠/ ١٩٨٤م) ومنشورة على موقع نسيم الشام بتاريخ : (٦/ ٩/ ٢٠١٣م) .

على الدّاعي إلى اللهِ عزَّ وجلّ ألا يجعلَ الدّعوةَ إلى دينهِ متّكئاً لغيبة ، ولا وسيلةً لفتنة ، ولا مجالاً لفضحِ من سترهمُ اللهُ سبحانهُ وتعالى في معاصيهم ، فما ينبغي للداعي إلى اللهِ عزَّ وجلّ أن يُعلِنَ عن أسماء سترها اللهُ سبحانه ، وما ينبغي أن يجمعَ بينَ الدّعوةِ إلى ربّه ، وهو أمرٌ يأمرنا اللهُ عزَّ وجلَّ به ، وبينَ الغيبةِ التي ينهانا اللهُ سبحانهُ وتعالى عنها . وقد كانَ سيِّدُنا رسولُ اللهِ ﷺ أوّلَ الدُعاةِ وسيِّدهم ، فما كانَ يرفعُ سترهُم ، وما كانَ يفضحُ أمرهم ، وما كانَ يذكرُ العصاةَ بأسمائهم ، وإنما كانَ من هديِهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلام أن يقول : « ما بالُ أقوامٍ يفعلونَ كذا ، ما بالُ أناسٍ يفعلونَ كيتَ وكيت » . وقد خطبَ مرّةً فيما يرويهِ مسلمٌ فقال : (لقد هممت أن آمر فتيتي فيجمعوا حزماً من حطب ثم آتي قوماً يصلون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرقها عليهم)[1] .

فما كانَ المصطفى ﷺ وهو يقومُ ليُنكِرَ منكراً ، ما كانَ ليربطَ بينَ المنكرِ وأصحابهِ بأسماءَ صريحةٍ علانية ، وإنما كانَ يقولُ : « ما بالُ أقوامٍ . . » .

ثمَّ إنَّهُ ﷺ لا يبالِي أن تقعَ هذه الكلمةُ أينَ وقعت ، ولا يبالِ أن تلتصقَ هذه الكلمةُ بمن كانَ أهلاً بأن تلتصقَ به .

من آدابِ الدّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أيضاً : أن يكونَ الدّاعي إلى ربِّهِ سبحانهُ وتعالى حكيماً ، وأن يكونَ مندفعاً إلى الدّعوةِ والإرشاد بسائقِ

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في التشديد في ترك الجماعة ، برقم : (٥٤٩) .

حبٍّ وشفقةٍ ورحمة ، لا بسائقِ كيدٍ وضغينةٍ وغلظة ، فإنّ نبيّنا ﷺ حذَّرَ كلَّ التّحذيرِ من هذا ، وأرانا في هديهِ العمليّ وسلوكهِ التّطبيقيّ ، كيفَ ينبغي أن يكونَ الدّاعي إلى ربِّهِ شفوقاً بالناسِ جميعاً ، بمن فيهم من العصاةِ وغيرِ العُصاة ، بل بالمسلمينَ وغيرِ المسلمين ، لأنهم جميعاً مرضى ، والداعي إلى اللهِ عزَّ وجلّ يقفُ منهم موقفَ الطّبيب ، فإن لم يكن الطّبيبُ شفوقاً على مرضاه ، فكيفَ يستطيعُ أن يبحثَ لهم عن العلاجِ والدّواء ؟ تلكَ هي خلاصاتٌ بل طُرَفٌ من آدابِ الدّاعي إلى اللهِ عزَّ وجلّ .

ولكنَّ هنالكَ آداباً أخرى ينبغي أن يتّسمَ بها النّاس الذينَ يستقبلونَ التّوجيه والإرشاد ، ويُصغونَ إلى النُّصحِ والأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكر .

على المسلمين ـ عصاةً كانوا أم مستقيمينَ على أمرِ الله ونهجه ـ إذا أصغوا بآذانهم إلى نصيحةِ ناصح ، أو موعظةِ مُذكّر ، أن يستقبلوا هذا النُّصحَ بقلوبٍ صافيةٍ مؤمنةٍ خالصةً عنِ الغشِّ والزّغل ، وأن يُحطِّموا حظوظَ نفوسهم ، وأن يكنسوا الطّريق مما بينَ آذانهم وأفواهِ هؤلاءِ المرشدين من عقباتِ العصبيّة ، ومن صدود الأهواء الشّخصيّة المختلفة المتنوّعة ، فإنَّ المسلم إذا كانَ قد حجبَ نفسهُ عن الدّاعي إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى بعصبيّةٍ ، أو بأنانيّةٍ ، أو بهوىً من الأهواءِ المختلفة ، فإنَّ هذا الإنسانَ لا يمكنُ أن يستفيدَ من نصيحةِ النّاصحِ أبداً ، مهما كانَ النّاصحُ مخلصاً لربّه ، ومهما كانَ قريباً من مولاه ، ومهما كانَ من الصّدّيقينَ والرّبّانيّين . بل لعلّهُ لو سمعَ تذكرةً من

رسولِ اللهِ ﷺ وهو محصِّنٌ نفسهُ في سجنِ عصبيّته وأهوائه والانتصارِ لذاته ، فإنّ هذه الكلماتِ النّورانيّة التي تخرج من فمِ رسولِ اللهِ ﷺ قد لا تلامسُ قلبه ، وقد لا يتأثّرُ منها بشيء .

وذلكَ هو السّبب الذي من أجلِه لم يكن كثيرٌ من المشركينَ ليتأثّروا بنصائحِ المصطفى ﷺ ، فقد كانوا يضعون بينهم وبينهُ سدوداً ، ما كانت هذه السّدود سدوداً من حجارةٍ ولا صخور ، أهون بها من سدود ، فإن الحجارة والصخور تنهار وتذهب ، ولكنَّها كانت صخوراً من حظوظِ النّفس ، صخوراً من العصبيّة ، إذا وجدَ أحدهم أنَّ كلمةَ هذا النّاصح تصيبُ كيانه وتهزُّ كرامته ، لَوَّى الرأسَ وأعرض ، وذهبَ لا يلوي ، لأنّه وجدَ هذا الكلامَ يلسعُه ، ولما كانَ الميزانُ الذي وَضَعَهُ هذا الإنسان بينهُ وبينَ النّاصح ميزانَ نفسه ، ميزانَ أنانيّته ، ميزانَ عصبيّته ، فلا بدَّ أنّهُ سيحسُّ بهذا كلّه ، بمقدارِ تبلّدهِ عن إحساسٍ آخر ، لن يحسّ أنَّ هذه النّصيحةَ تعالجُ منهُ مرضه ، لن يحسّ أنَّ هذه النّصيحةَ تنسكبُ على داءٍ في قلبهِ بالشّفاء .

إذا وقفَ المرشد لينهى عن الغشّ وليحذّرَ المسلمينَ منه ، ووجدَ بعضُ الجالسين أن هذا الكلام يتّجهُ إليه ، فما ينبغي أن يغضبَ ويرتدّ ، وما ينبغي أن تأخذهُ الغضبةُ الجاهليّة فيغضبَ ويتأثّر ، فإنَّ مثلُ هذا التّأثّر يُفقدهُ جدوى هذا الكلام ، إذا وقفَ المرشد ليتكلّمَ عنِ الرّشاوي ومدى خطورتها ، ومدى عِظَمِ وقعها وجريرتها في ميزانِ اللهِ سبحانهُ وتعالى ، ثمَّ أحسَّ بعضُ السّامعين أنّ هذا الكلامَ مفصّلٌ على قدره ، وأن هذا الكلامَ ربّما كانَ متّجهاً إليه ، فأقامهُ الغضبُ ولم

يُقعده ، وربّما أعرضَ عن المكانِ فلم يعُد يغشاهُ ويعودُ إليه ، وربّما أخذَ ينظرُ إلى هذا النّاصحِ بعدَ ذلكَ شزراً ، فتعقّدت نفسُهُ منه ، لماذا ؟ لماذا كلُّ هذا ؟

هل فضَحَكَ النّاصح فتحدّثَ عنك ؟ هل انطلقَ النّاصحُ الذي نصحك بدافعٍ غيرِ دافعِ الشّفقة ، غيرِ دافعِ أن يُحبَّ لك ما يحبُّ لنفسه ، وإذا رأيت أنَّ مَغبّةَ هذا الذي يُحذّرك موجودةً في كيانك ، فلماذا لا تحمدُ الله على أنّهُ قد بعثَ إليكَ من ينبّهك ، وأرسلَ إليكَ من يُرشدك ، فتشكرُ اللهَ ولا تشكر النّاس ؟ اشكرِ اللهَ سبحانهُ وتعالى وقلِ الحمدُ لله الذي أرسلَ إليَّ من بَصّرني بخطئي .

وإذا قامَ المرشدُ أو الخطيبُ أو النّاصح يُحذّرُ من بدعةٍ في العقيدة ، من بدعةٍ فيما يتعلّقُ بكبدِ الإسلامِ وجوهره ، يتحدّث عن سوء حال من يتجرّأُ على اللهِ بالفتيا ، ومن يتجرّأُ بالعبثِ بكلامه ، فما ينبغي لأحدٍ من السّامعين أن تهزّهُ الغضبة ، بدافعٍ من العصبيّة أو القرابة أو أيّ معنىً من هذه المعاني دونَ أن يضعَ في الميزان ، ترى هل هذا الكلام صحيح ؟

ترى هل هذا الذي يقولهُ هذا النّاصح كلامٌ صافٍ عن الزغل ، سليمٌ في ميزانِ القرآنِ والإسلام وهديهما ؟ لو أنَّ هذا الإنسانَ وضعَ عصبيّتهُ تحتَ قدميه ، وأرادَ فقط أن يُصغيَ إلى كلامِ هذا النّاصح ويضعهُ في الميزانِ كلمةً كلمة ، لكنّهُ ميزانُ الرّؤيةِ الدّينية ، ميزان الأحكام الإسلامية ، لما غضب ، ولما أخذتهُ العزّةُ بالإثم .

هذا الذي أقولهُ لكم إنما هو تجسيدٌ لمصيبةٍ عظمى نعاني منها

جميعاً ، ربّما يعاني الدّعاة من عدم التزامِهم للآدابِ التي أمرهم اللهُ بها ، فعلى الدّاعي أن يكونَ بصيراً بأمره ، مُتنبّهاً إلى خطرِه وخطئه ، ولكنَّ النّاسَ أيضاً يعانونَ من الجزءِ العظيمِ من هذا الدّاء ، فما أكثرَ ما نشعر بالعصبيّة ، وما أكثرَ ما نشعرُ بالغضبةِ التي لا تنبعُ لله ، ولكنّها تنبعُ من حظوظٍ آسنةٍ عَفِنَةٍ من حظوظِ النّفس .

كيفَ نستطيعُ أن نعالجَ أنفسنا من هذا الدّاء ذي الشّطرينِ العظيمين ؟

نعالجُ أنفسنا من هذا الدّاءِ بعلاجٍ واحد ، هو الإخلاص لدينِ اللهِ عزَّ وجلّ ، وليست ثمّةَ حيلةٌ أمامي لأدلّكم على الطّريقِ الذي يوصلُ الإنسانَ إلى الإخلاص ، الإخلاصُ سرٌّ يَهَبُهُ اللهُ لمن يشاءُ من عباده ، الإخلاصُ نورٌ يقذفهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في قلبِ من شاء ، فمن حرمهُ الله من هذا النّورِ فهو محروم ، وأسألُ اللهَ ألا يحرمني ولا يحرمكم من هذا النّورِ القدسيِّ العظيم .

لكنَّ السّبيلَ إلى ذلك كثرةُ التّضّرُعِ إلى الله ، السّبيلُ إلى ذلك كثرةُ الالتجاء إلى الله ، إذا رأيتُ أنني أحبُّ نفسي وأدافعُ عن ذاتي ، وأدافعُ عن العصبيّةِ التي تُعَشعشُ في كياني ، فلأعلم أنني مريض . وإذا لم أجد سبيلاً إلى الخلاصِ من هذا الدّاء فلألتجىء إلى الله ولأشكُ إليهِ دائي ولأتضرّع إليه ، فإنَّ اللهَ يجيبُ الدّعاء .

* * *

وحدة الأمة في ظل احترام أبنائها المتبادل وغنى التنوع المذهبي

المحتوى

مقدمة البحث ٢٦٣
المبحث الأول: التقارب بين المسلمين ضرورة تاريخية وعقيدية ومستقبلية ٢٦٧
أسس ووسائل وأهداف التقارب بين فرق المسلمين ٢٦٧
الأسس التي يجب أن ننطلق من خلالها في توحيد الصف ٢٧٥
مناقشة حديث افتراق الأمة إلى فِرَق كثيرة كلها في النار إلا واحدة ٢٨٧
المبحث الثاني: إكرام الصحابة وأئمة الفقهاء لآل المصطفى ﷺ ومحبة آل البيت لهم ٢٩٣
إكرام الصحابة لآل البيت رضي الله عنهم أجمعين ٢٩٣
محبة علي رضي الله عنه وآل البيت لأصحاب رسول الله ﷺ ودفاعهم عنهم ٣٠٩
بعض ما ورد عن أئمة آل البيت في الثناء على الصحابة، وردع من ذمهم ٣١٥
مواقف فقهاء السنة وأقوالهم في الثناء على أئمة آل البيت ٣١٩
الخاتمة ٣٢٨

مقدمة البحث

قال الله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٣ـ١٠٥] .

وهكذا وحدة الأمة من أهم مقاصد الرسالة ، فقد أرسل الله تعالى نبيه ﷺ ليوحد الأمة ، ويسير بها إلى تحقيق الأهداف الكبرى في نشر الربانية ، ودعوة الأمم الأخرى إلى إخلاص العبودية لله تعالى ، وبناء الحضارة الإنسانية العالمية الخيرة .

وقد استطاع الإسلام أن يحقق المعادلة الصعبة التي لا تصلح الحياة إلا بها ؛ أن نتّفِق في المقاصد الكبرى ، ونختلف في بعض التفاصيل . أن نجتمع على الأهداف العظيمة ، مع فسحة الاختلاف والتنوع في الجزئيات ، فالتنوع والاختلاف في الفهم من سنن الله في خلقه ، ومن دونه لا يعمر الكون ، ولا تتم خلافة الإنسان ، ولا يُريد الله تعالى أن يجعل الناس صورة متكررة لفهم واحد لا يجوز الخروج عنه .

فالوحدة التي دعا لها الإسلام هي وحدة قائمة على التنوع ، والإبداع طالما أن هذا التنوع ثمرةُ الدليل والعلم ، وليس ثمرة الهوى والزيغ ، وطالما أن التنوع لا يخرج عن المقاصد ، ولا يشذ عن الأهداف الكبرى .

وإذا كانت وحدة الأمة من أهم مقاصد رسالة الإسلام ؛ فإن من أبرز المظاهر التي تشكل خروجاً عن هذا الفهم وضلالاً في تيهِ البُعدِ عن مقاصد الحق ؛ ظاهرةُ التكفير التي ابتلي بها المسلمون في بعض مراحل انكسارهم الحضاري ، فكانت بلاءً فَتَكَ بجسدِ الأمة وعطل مَشروعها الحضاري ، وصرف الأنظار عن معاركها الحقيقية ضد أعدائها .

وهي من مؤشرات الانكسار الحضاري للأمة ، وغياب الوعي عند قياداتها وأبنائها ، فكلما كانت الأمة في عافية فكرية وحضارية ، كلما كان وعيها بمقاصد الرسالة وأهدافها الكبرى أوضح ، والعكس صحيح .

واليوم تطفو ظاهرة التكفير على الساحة الفكرية ، وتأخذ حيزاً واسعاً من الخطاب الديني ، وتُمَارَسُ عملياً بصور بشعة جداً ، ويزداد الأمر سوءاً مع وجود وسائل الإعلام الفضائية والالكترونية التي تروج لهذا الفكر ، وتنشره بين عامة الناس بصورة تحريضية بعيدة عن التدقيق والتحقيق العلمي .

ويستغرب المراقب للمشهد من انتشار فكر التكفير بهذه الصورة المؤذية التي لا تعود على الأمة بالخير ؛ وتوجب علينا أن نستنفر

الجهود والطاقات لمواجهة هذه الظاهرة الفَتَّاكة بالوسائل الممكنة كافة ، ومنها نشر الأبحاث التي تؤصل لهذا التنوع الذي أراد الله أن يكون مظهر ثراء في مسيرة الحضارة الإسلامية .

لقد خلق الله الإنسان ، وجعل أسباب التمايز بين البشر في أصل الخلق لأن عمارة الأرض لا تقوم إلا على هذا التنوع البناء .

قال تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم : ٢٢] .

وقال أيضاً : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

وقال أيضاً : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود : ١١٨ـ١١٩] .

وأنزل الله الرسالة على نبيه محمد ﷺ ، وجعل شريعته خاتمة الشرائع ، وعَلِمَ الله أن الناس مختلفين في الطباع والبيئات والعصور ، ولذلك جعل في هذه الشريعة قواعد كبرى لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، وجعل فيها ما هو قابل للتغيير حسب ما تقتضيه المصلحة التي أباحها الله تعالى . وتحقيق المصلحة لا يكون من خلال الفوضى ، وإنما يكون من خلال ما أصله العلماء من قواعد فهم النصوص وتطبيقها .

وكذلك فإن في نصوص الشريعة المحكم والمتشابه ، والخاص والعام ، ولذلك كان الميدان واسعاً في اختلاف فهم العلماء لمعاني هذه النصوص والمراد منها ، وكل ذلك في إطار ما تتحمله قواعد اللغة ، ولا يخالف المعلوم من الدين بالضرورة في قواعده الكلية .

ونحاول في هذا البحث أن نُلقي ضَوءاً على الحالة التي يجب أن نكون عليها نحن المسلمين في فهمنا لأنفسنا ، وتعاملنا مع تنوعنا المذهبي ، نستقي ذلك من فكر الأئمة وسلوكهم رضي الله تعالى عنهم .

* * *

المبحث الأول
التقارب بين المسلمين
ضرورة تاريخية وعقيدية ومستقبلية

المطلب الأول
أسس ووسائل وأهداف التقارب بين فِرَق المسلمين

لا بد قبل الدخول في هذا البحث الفقهي من الحديث عن موضوعٍ مُهمٍ يَشغل بال المخلصين من أبناء هذه الأمة ، وهو مشكلة تفرُّقَ المسلمين إلى فرق ومذاهب دَبَّتْ بينها أسباب البغضاء والنزاع ، وحاك لها أعداؤها خططاً خبيثة مدروسة بدقة ، لإبقاء حالة التنافر والتباغض فيما بينها ، ليسهُل عليهم اختراق صفوف هذه الأمة وتفتيت قوتها ، حتى إنه ليستطيع أن يستعين في حربه لبعض أفراد الأمة بأفراد منها ، كما جرى عندما استخدم أعداؤنا القوات والسلاح العراقيين لحرب الثورة الإسلامية في إيران ، واستخدم القوات والقرارات العربية لحرب العراق وتحطيم قوته العسكرية وحصاره تمهيداً لاحتلاله ، وضرب الفتن ما بين الشيعة والسنة والسلفية وغيرهم في بلاد الأفغان ، فاشتعلت نيرانٌ للفتنة لم تُطفأ حتى يومنا هذا ، وما زال نهر الدماء الإسلامية يتدفق على أيدي المسلمين أنفسهم ، وأعداؤنا في فلسطين يُدنِّسون المقدسات ، ويَهتكون الأعراض ، وكذلك

يفعلون في كثير من الأقطار العربية والإسلامية . والله تعالى يخاطبنا في القرآن الكريم فيقول : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] ويقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] وخاطب الله تعالى المسلمين في آية جامعة فاذَّة فقال : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٣ـ ١٠٥] . لقد مَنَّ الله تعالى على المسلمين بأن جمعهم بعد فرقة ، وألَّف بينهم بعد تباغضٍ ، وجعلهم أمة واحدة بعد أن كانوا أمماً أشتاتاً متفرقين ، وجعلهم دعاة خير بعد أن كانوا دعاة شقاء ، ودعاة تآلف بعد أن كانوا دعاة شقاق . ولكنهم نبذوا كل ذلك وراء ظهورهم فعادوا أمماً متفرقين ، متباغضين ، دعاة شقاق ، وشقاء . ووصف النبي ﷺ المسلمين ووحدتهم فقال : « مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى »(١) . وقال ﷺ أيضاً :

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب رحمة الناس والبهائم ، برقم : (٥٥٥٢) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب تراحم المسلمين وتعاطفهم وتعاضدهم ، برقم (٢٥٨٦) ، واللفظ له ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

« من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم الذي له ذِمَّةُ الله ، وذِمَّةُ رسوله ، فلا تُخْفِروا الله في ذمَّتِه »(١) . وقال ﷺ أيضاً : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى هاهنا ـ ثلاث مرات وأشار إلى صدره ـ بِحَسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ : دمه ، وماله ، وعرضه »(٢) . فهل المسلمون اليوم على هذا المستوى من التوحد ، والتآلف ، والتناصر فيما بينهم ؟!

إنَّ الأمة الإسلامية أمة فريدة ، توفر لها من أسباب الوحدة ما لم يتوفَّر لأمة أخرى . فالمسلمون كلهم على اختلاف فرقهم ومذاهبهم يشهدون أنه لا إله إلا الله دون خلاف فيما بينهم على التنزيه المطلق لله تعالى عن كل نقص وعيب ومماثلة للمخلوقات ، وإن اختلفت اصطلاحاتهم وتعبيراتهم .

وكلهم متفقون على أن محمداً رسول الله ﷺ وخاتم أنبيائه ، وهو عبدٌ من عباده ، يُقرُّون له بالفضل ، وبأنه بلَّغ الرسالة وأدَّاها كاملة ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب فضل استقبال القبلة ، برقم : (٣٧٨) . وأخرجه الترمذي في سننه ، برقم : (٢٦٠٨) . وأخرجه النسائي في سننه ، برقم : (٣٩٦٧) ، عن أنس رضي الله عنه واللفظ للبخاري .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ، برقم : (٢٥٦٤) . وأخرجه الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين ، برقم : (٧٦٧٠) .

ونَصَح الأمة ، ويُقرُّون له بكل صفات الكمال البشرية .

وكلهم متفقون على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، لا تبديل ولا تغيير فيه ، وهو قانون الله ، وحكمه الملزم الذي تعبَّد به بني البشر ، وقد تكفَّل تعالى بحفظ القرآن الكريم حين قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وكلهم متفقون على أنَّ طاعة رسول الله ﷺ واجبة فيما جاء به من تشريع ، لقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

وكلهم متفقون على أنَّ الله تعالى أنزل الإسلام لتحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ، وشرع في سبيل ذلك أحكاماً تحقق هذه المقاصد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ [المائدة : ١٥ـ١٦] .

وهكذا كان ينبغي على المسلمين أن يبنوا صرح وحدتهم العملية على هذه الأسس النظرية ، فيجمعوا هَمَّهم وهِمَّتهم لتحقيق الأهداف الكبرى ، ومواجهة التحديات الكبرى التي تواجه الأمة ، وتهدف إلى إفنائها ، وطمس معالمها ، والقضاء على رسالتها .

وإن من الخيانة لأمتنا اليوم أن نُغرقها في بحرٍ من الجدل ، حول مسائل في فروع الفقه ، أو على هامش العقيدة في حين ننسى مشكلات الأمة ومآسيها ومصائبها التي تزداد وتتجدد يوماً بعد يوم ، وكان الأحرى بنا أن نبحث لها عن شاطئ أمان ، ومنهاج متكامل للإصلاح والنهضة .

ولقد كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم أكثر إدراكاً لأولويات الأمور ، وترتيبها في الأهمية ، وأكثر بعداً عن الخوض فيما لا جدوى منه ، وهذا ما جرى مع الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، حينما جاءه ناسٌ من أهل العراق يسألونه عن حكم دم البعوض إذا أصاب الثوب ، أو قَتَله المسلم في حالة الإحرام ، فقال رضي الله عنه : هؤلاء يسألون عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ؟! وقد قال ﷺ : « هما ريحانتاي من الدنيا »[(١)] .

« وهكذا فإن من الخيانة أن يحمى الوطيس ، وتُنصب المجانيق ، ويتقاذف الناس بكلمات أشد من الحجارة ، وأنكى من السهام ، من أجل مسائل تحتمل أكثر من وجه ، وتقبل أكثر من تفسير ، فهي من مسائل الاجتهاد التي دلَّت على سعة هذا الدين ومرونته ، الْمُصيب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب مناقب الحسن والحسين ، برقم : (٣٤٧٠) . قال الحافظ ابن حجر في تعليقه على قول ابن عمر : أورد ابن عمر هذا القول متعجباً من حرص أهل العراق على السؤال عن الشيء اليسير والتفريط في الشيء الجليل . انظر : (فتح الباري) لابن حجر العسقلاني ٧/ ٩٩ .

فيها مأجور والمخطىء فيها معذور ، وخطؤه فيها مغفور ، بل هو بنص الحديث مأجور .

إن العالم يتقارب بعضه من بعض على كل صعيد ، رغم الاختلاف الديني والإيديولوجي ، والاختلاف القومي واللغوي والوطني والسياسي .

رأينا المذاهب المسيحية ـ وهي أشبه بأديان متباينة ـ يقترب بعضها من بعض ، ويتعاون بعضها مع بعض .

بل رأينا اليهودية والنصرانية ـ رغم ما كان بينهما من عداء تاريخي ـ يتقاربان ويتعاونان في مجالات شتى ، حتى أصدر الفاتيكان منذ سنوات وثيقته الشهيرة بتبرئة اليهود من دم المسيح .

ورأينا تقارب العملاقين أمريكا والاتحاد السوفيتي ـ عندما كان قائماً ـ وكذلك التقارب بين دول أوربا التي مزقتها الحروب والصراعات والنزاعات القومية ، وقد تناست كل ذلك حتى أوشكت أن تكون دولة واحدة .

رغم ذلك كله ما يزال المسلمون يتباعدون ، ويتنكر بعضهم لبعض بل يقاتل بعضهم بعضاً »[١] .

---

(١) أبحاث ودراسات مقدمة لندوة التقريب بين المذاهب المنعقدة في مدينة حلب (سورية) بتاريخ ٢٥ـ ٢٦ شوال ١٤٢٠هـ/ ١ـ٢ شباط ٢٠٠٠م . وقد جمعت المحاضرات والأبحاث المقدمة لهذه الندوة في كتيب صدر عن المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق ، ضمن سلسلة كتاب الثقافة الإسلامية العدد (٧) بعنوان (بحوث ودراسات في التقريب بين المذاهب الإسلامية) عام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م .

ولذلك يجب التأكيد على الأسس التي تجمع المسلمين أكثر من التي تفرّق وتثير العصبيات والطائفية والمذهبية ، وعلينا أن نسعى مجتمعين متعاونين لمواجهة الأخطار التي تتحدَّانا ، ومنها :

١ـ التخلف العلمي التقني الذي يُعانيه المسلمون .

٢ـ التخلف الحضاري الثقافي .

٣ـ جهل المسلمين بدينهم وعقيدتهم ، وربما عداؤهم لهذا الدين .

٤ـ حرب العولمة والتغريب التي تواجه العالم الإسلامي .

٥ـ حالات الاستعمار والاغتصاب التي يُعاني منها العالم الإسلامي ، وخاصة سرطان الاحتلال الصهيوني .

٦ـ واقع التجزئة والتمزق ، والعداء والحروب بين الدول الإسلامية .

٧ـ هَمُّ التسيُّب والانحلال الأخلاقي .

٨ ـ الاستبداد والتسلط السياسي .

٩ـ محاربة الحركات الإسلامية المعتدلة ، وجماعات الدعوة في معظم الدول الإسلامية .

١٠ـ ظهور الجماعات المتشددة التي لا تَفقه حقيقة الإسلام ، وتعرضه للعالم بأسلوبها العدواني الخاطىء المشوَّه .

١١ـ ظهور الفرق الضَّالة التي تدعو إلى نفسها على أنها تمثل الإسلام الصحيح .

١٢ـ حروب التنصير والتكفير التي يقودها أعداء الإسلام .

١٣ـ انتشار المجاعات والفقر في كثير من البلاد الإسلامية ، ووجود الترف والإسراف والتبذير في الدول الأخرى .

١٤ـ وجود الذين يَدَّعون أنهم مُفكرون إسلاميون يطرحون أفكاراً علمانية تخريبية ويُلبسونها ثوباً إسلامياً لتضليل الناس وتشويشهم .

١٥ـ عدم وجود صياغة حضارية معاصرة لمنهاج الدولة الإسلامية المنشود .

كل هذا وغيره يستدعي منا توحيد الجهود ولمَّ الشمل ، والسعي الحثيث لمواجهة هذه المشكلات بحزم وعزم ، انطلاقاً من قوة الوحدة الإسلامية ، وقوة توحيد الجهود بين مختلف التيارات الإسلامية .

* * *

المطلب الثاني

الأسس التي يجب أن ننطلق من خلالها في توحيد الصف

أمام كل ما سبق من تحدياتٍ كبرى ، وأمام نداء الله تعالى لنا في القرآن بقوله : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] كان لا بد من جمع الصفوف ، وتقارب المسلمين ، والتقائهم على أسس واحدة ثابتة وهي :

١ـ التعاون في المتفق عليه :

ولدينا ـ والحمد لله ـ ساحة واسعة من الأمور المشتركة التي تجمع فيما بيننا ، وتهيىء إطاراً مشتركاً للعمل ، وقد تحدثنا عن ذلك سابقاً .

٢ـ التسامح في المختلف فيه :

وهو قليل جداً بالنسبة للمتفق عليه ، وأكثره يندرج تحت عناوين هامشية ، ومساحات من الأمور التي يمكن التغاضي عنها ، وإهمال الخلاف فيها ، ولا بد من ذكر القاعدة الأصلية التي دعا إليها المرحوم العلاّمة محمد رشيد رضا منهاجاً للتعاون بين المسلمين وهي :

« نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا عليه » .

وهذا التسامح المنشود لا يمكن أن يتحقق عملياً إلا إذا أدركنا أن الاجتهاد أصل من أصول الشريعة ، وأن الاجتهاد لا بد أن يؤدي إلى نتائج ووجهات نظر مختلفة متباينة ، وهذا أمر فطر الله الناس عليه ، وهو في حقيقته تيسير عليهم في أمور دينهم ودنياهم .

« ولا ريب أن هذا رحمة من الله تعالى بعباده ، وتوسعة عليهم ، ولو شاء الله سبحانه لأغلق علينا باب الاجتهاد كله ، بإنزاله نصاً قطعياً لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، ولكنه سبحانه رحمنا ووسع علينا ، فسكت عن أشياء كثيرة لم ينص على حكمها في كتاب ولا سنة ، رحمة بنا من دون نسيان ، فما كان ربنا نسياً ، وما نصَّ عليه جعل معظمه قابلاً لتعدد الأفهام ، واختلاف التفسيرات والاستنباطات ، حتى يتسع للأصناف المتباينة من الناس ، ما بين آخذٍ بظاهر النص وحرفه ، أو بروحه وفحواه ، وما بين مضيّق متشدد ، وموسع مترخص .

وإذا كان من حقي أن أجتهد في فهم النصوص ، أو فيما لا نصَّ فيه ، فلا بد أن أعطي غيري الحق الذي لي ، وإلا فما الذي يميزني عن غيري ؟

وما دام من حق غيري أن يجتهد ، فمن شأن الأمور الاجتهادية أن تختلف فيها الآراء والأفهام وإلا لم تكن اجتهادية .

وسواء كان الصواب مع أحد الرأيين أو الآراء ـ وإن لم يُعرف هو بعينه ـ فإن المخطىء مأجور والمصيب مأجور .

وأقصى ما يقوله المجتهد عن نفسه في الأحكام الجزئية قول الإمام

الشافعي رضي الله عنه : « رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب » .

يقول الآمدي : « اتفق أهل الحق من المسلمين على أن الإثم محطوط عن المجتهدين في الأحكام الشرعية ، وذهب بشر المريسي ، وابن عُليّة ، وأبو بكر الأصم ، ونفاة القياس كالظاهرية والإمامية إلى أنه ما من مسألة إلا والحق فيها متعين ، فمن أخطأه فهو آثم غير كافر ولا فاسق »[١] .

ولا ثمرة عملية من هذا الخلاف ، لأن التأثيم مرجعه إلى الله ، فإن شاء لام المخطىء وإن شاء لم يفعل .

ولذلك منع المحققون من العلماء الإنكار على الأمر المختلف فيه ، وقالوا : المنكر الذي يجب إنكاره ما كان مجمعاً عليه .

وقال ابن قدامة الحنبلي : « لا ينبغي لأحد أن ينكر على غيره العمل بمذهبه ، فإنه لا إنكار في المجتهدات »[٢] .

ومن الوسائل التي ينبغي الاستفادة منها عَقْدُ الندوات العلمية الحوارية بين نخبة من علماء المذاهب غير المتعصبين ، لاستعراض النقاط المختلف فيها ، ومناقشتها بغية الوصول إلى الحق ومعرفته .

٣ـ الاعتدال وعدم المغالاة :

ولذلك يجب عدم المغالاة في تصويب رأي واجتهاد مجتهدٍ ما ،

(١) انظر كتاب الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٤/ ٤١٢ .
(٢) « الآداب الشرعية » لابن مفلح ، ١/ ١٨٦ .

وتخطئة الآخرين ، فيرى المقلد أو الفقيه أن مذهبه هو الحق ، وغيره الباطل ، وهذا غُلُوٌّ وعصبية جاهلية بعيدة عن روح الإسلام وعن المنهج العلمي ، وله أن يرىٰ أنَّ اجتهاده صواب وأنَّ اجتهاد غيره خطأ مع الاحترام للرأي الآخر .

٤ـ الاعتراف بالآخر :

كما ينبغي الاعتراف للآخرين بقيمتهم العلمية ، ومنزلتهم الفقهية ، وعدم دعوة الناس جميعاً للانخراط في مذهب واحد ، كالذي يشيع بين العوام من الدعوة إلى توحيد المذاهب ، أو اعتبار الخلاف العلمي من الخلاف في الدين ، فإنَّ قائلَ ذلك جاهلٌ ببدهيات الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وبطبيعة الخلاف الذي بين المسلمين .

٥ـ تجاوز أحقاد التاريخ والاستفادة من دروسه :

المسلمون هم أول أمة تعلَّمت المنهج العلمي في التاريخ ، وعلَّمته لمن بعدها ،فبعد أن كان التاريخ أساطير تُروى وخرافات تُتَنَاقل ، جاء الإسلام ليقرِّر مبدأ التوثيق في نقل الخبر والتعامل معه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

وبعد أن كان التاريخ أحاديثَ لمجالس اللَّهْو والسَّمَر ، جعل منه القرآن الكريم آياتٍ تتلى في الصلاة ، ومجالس علمٍ وعبادةٍ ابتغاء الذكرى والاستفادة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ

أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة : ٧٠] وقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٩٠] وفهمُ التاريخ ومعرفتُهُ يجب أن تتساند مع وعي المسلمين بحاضرهم وسُبُل وحدتهم ونهضتهم .

والمشكلة الكبرى التي يعيشها المسلمون اليوم هي أنهم أكثروا من الخوض في مشكلات تاريخهم ، وحروبهم ونزاعاتهم ، وبنوا مواقفهم الحالية على أساس تحيزهم وتعصبهم لأحد الطرفين المتخاصمين قبل أكثر من ألف عام ، وأدخلوا هذه الخلافات السياسية الاجتهادية ضمنَ العقيدة ، فتعصَّب كل طرفٍ لحليفه ، وجعل عدم تفضيله على غيره ضرباً من الانحراف عن الحقّ ، وقد أدَّىٰ هذا إلى وقوع البعض في حمأة المغالاة والتطرف .

ومما زاد الطين بِلَّة ما نسبه الجهلة من الطرفين إلى النبيﷺ في تأييد موقفه من أحاديث ملفقة موضوعة ، وما كذبوه على التاريخ من مواقف تؤجِّج النار وتزيد اتقادها .

ولذلك كان لزاماً علينا أن نعيَ تاريخنا ، وخصوصيةَ كل مذهبٍ من مذاهبنا ، وأن نتفق على منهج دقيق لدراستنا للتاريخ يقوم على أسس علمية أهمها :

١ـ تمحيص الروايات التاريخية ونقدها من حيث إسنادها ، واستبعاد الروايات المروية عن طريق المغالين من الطرفين ، وخاصة في تأييد موقف فِرْقَته .

٢ـ تمحيص الروايات التاريخية من حيث المتن ، واستبعاد الروايات التي تصادم أصلاً معروفاً من الدين بالضرورة ، أو تصادم حقيقة تاريخية ثابتة ، أو أمراً منطقياً معروفاً[١] .

٣ـ النظر بحذر شديد إلى كتب « المناقب والفِرق » لأن أكثر هذه الكتب كُتبت بروح من التعصب والمبالغة ، والتهويل والتقوقع على الذات .

٤ـ تجاوز الخلاف التاريخي العقيم ، وخاصة الذي لا ينبني عليه أثرٌ عملي ، كالخلاف حول ميراث العباس وفاطمة رضي الله عنهما من رسول الله ﷺ !! والاشتغال بما يُوحِّد الأمة بدل أن يفرقها .

يقول الداعية الكبير الشيخ عبد السلام ياسين في تعليقه على منهج الشيخ القاضي المالكي أبي بكر ابن العربي في دراسة التاريخ :

(١) من أمثلة ذلك أن مجموع أحاديث (تهذيب الأحكام) للشيخ الطوسي الذي بين يدينا الآن (١٣٥٩٠) حديثاً ، بينما يذكر الطوسي نفسه في كتابه (عدة الأصول) أن في كتابه (تهذيب الأحكام) نحو (٥٠٠٠) حديث ! انظر (عدة الأصول) للطوسي ، ولهذا يقول السيد هاشم معروف الحسني : وضع قصاص الشيعة مع ما وضعه أعداء الأئمة عدداً كثيراً على لسان الأئمة الهداة . وبعد التتبع في الأحاديث المنتشرة في مجاميع الحديث كـ (الكافي) و (الوافي) وغيرهما نجد أن الغلاة والحاقدين على الأئمة الهداة لم يتركوا باباً من الأبواب إلا ودخلوا منه لإفساد أحاديث الأئمة . انظر (الموضوعات) للسيد هاشم الحسني ص ١٦٥ ، ٢٥٣ . و (كشف الأستار وتبرئة الأئمة الأطهار) للسيد حسين الموسوي ص ١٠٣ . والحقيقة أن السنة قد قطعوا شوطاً سبقوا فيه إخوانهم الشيعة في تنقيح أحاديثهم ، وجرح رجالهم وتعديلهم . بينما تأخر ظهور هذا العلم عند الشيعة كثيراً ، وتقبلوا كل ما وصلهم من أحاديث عن أئمتهم ، وإن ظهر متأخراً من حاول تنقية أحاديثهم ، وتمييز الصحيح منها عن غيره .

« نلاحظ في نثر فقيهنا وقاضينا أبي بكر تغاضياً حييًّاً عن ذكر ما نشب بين الصحابة من نزاعٍ وقتال ، فهو يتخطى حرب الجمل ، وكارثة صفين ، ويُرجعُ النزاعَ إلى دمٍ يطالب به أولياء عثمان من بني أمية ، وكأنَّ المسألة نازلة فقهية يحكمٍ فيها القضاء .

وهكذا أمسك علماؤنا ، وأوصوا بالإمساك عن ذكر تلك المآسي الدموية ، ولئن كان نبش الماضي للوقوف عنده والتعرُّض للصحابة الكرام ـ وقد قُضي ذلك الأمر ـ مما لا يعني الشحيح بدينه ؛ فإن رفع جانب الستار بقدر ما نتبين الأسباب التاريخية للانكسار المريع واجب .

ولن نفهم منهاج إعادة الخلافة الراشدة إن بقينا نغطي وجوهنا كلما ذكرت تلك الفترة العنيفة والدةُ كل ويلاتنا »[١] .

ويقول الأستاذ هاشم الموسوي : « فالمسلمون اليوم لا يواجهون من الناحية العملية مشكلة الإمامة والخلافة بشكلها التاريخي بين اتجاهين ؛ اتجاه يرى أن أئمة أهل البيت هم أولى بالخلافة والإمامة ، واتجاه آخر لا يرى وجوب الالتزام بإمامة أهل البيت ، بل يواجهون خلافاً فقهياً بين مذاهب متعددة ، والمفروض في مثل هذا الخلاف أن يكون خلافاً علمياً يمكن مناقشته وحله بالطرق العلمية ، وسنجد المجال واسعاً للتلاقي إذا انطلق العقل الإسلامي من نقاط الالتقاء . ولا يضرُّ المسلمين أن يكون هناك تعدد في الرأي والاجتهاد إذا تغلَّبوا

(١) « الخلافة والملك » لعبد السلام ياسين ، ص ٣١ـ ٣٢ .

على الأزمة ، والحواجز النفسية التي صنعتها ظروف تاريخية »(١) .

وبما أن الخلاف بين المسلمين اليوم هو خلاف فقهي وعقيدي في معظم جوانبه فهم مدعوُّون إلى الحوار العلمي ، والمنهج النقدي الموضوعي ، وإزالة الحواجز النفسية بينهم وإعادة قراءة التاريخ ، وتحقيق وقائعه ، وتقويمها تقويماً علمياً نزيهاً ، واستفادة الدروس والعبر منها من غير أن تُجعل سبباً للفرقة والخلاف والعصبية .

ونختم الحديث حول هذا الموضوع بكلمة للداعية الكبير المرحوم الشيخ محفوظ نحناح إذ يقول : « دول أوربا استطاعت أن تُذيب الفوارق فيما بينها ، وأن تنسى أحقاد حربين عالميتين كان فيهما أكثر من ثمانية ملايين ضحية ، والأوربيون استطاعوا أن يحتفظوا بتاريخهم في المتاحف والكتب ، ويرسموا خططاً مناسبة لمستقبلهم ، فأوجدوا سوقاً مشتركة وبرلماناً أوربياً ، ونقداً موحداً ، وعَلَماً موحداً . لقد هداهم العقل والحاجة إلى تطبيق جزء من الإسلام هو المتعلق بوحدة الأمة ، وكان الأجدر بالمؤمنين أن يكونوا سبَّاقين إلى هذا الوعي»(٢) .

٥ـ دراسة الاختلافات الفقهية لمعرفة أدلة المذاهب ، وحقيقة ما يُنسب إلى كل مذهب :

وحتى يكون التقارب بين المذاهب مبنياً على أسس ثابتة سليمة ، وليس ردّ فعلٍ عاطفي انفعالي ، يجب أن نوسع دائرة الفقه المقارن

(١) « التشيع نشأته ومعالمه » لهاشم الموسوي ص٣٧٣ .

(٢) من محاضرة ألقاها الأستاذ محفوظ نحناح في الدورة التأهيلية الثامنة للأئمة والخطباء في مجمع الشيخ أحمد كفتارو الإسلامي بدمشق عام (٢٠٠٠م) .

ليشمل كل المذاهب الإسلامية القائمة اليوم .

كما يجب أن نسعى لدراسة كل مذهب من هذه المذاهب من مصادره الأصلية ، فكم في كتب الفقه الواسعة من أخطاء في نسبة بعض الأقوال إلى المذاهب الأخرى .

ثم لا بد من ربط الخلاف بدليله ، فإن الإنسان إذا قرأ مذهب غيره ربما استنكر هذا القول غاية الاستنكار ، فإذا قُرِن القول بدليله أو أدلته ربما تغير هذا الموقف إلى قبول بل إلى ترجيح .

كما ينبغي التنبيه إلى أنَّ في بعض كتب الفقه عباراتٍ وكلماتٍ من تسفيه آراء الآخرين أو الطعن في أئمتهم لا تليق بالمسلم فضلاً عن العالم ، لذلك يجب أن تكون هذه الدراسة الفقهية المقارنة قائمة على النية الحسنة ، والهدف العلمي ، بعيداً عن المهاترات ، والتنابذ بالألقاب .

ويقدم الدكتور محمد الدسوقي دعائم أساسية لدراسة الاختلافات الفقهية دراسةً تُحقِّق غايتها في التقريب وهي :

١ـ التسليم بأن اجتهادات الفقهاء وآراءهم ليست شرعاً واجب الاتباع وإنما هي فهم بشري لنصوص الشريعة وقواعدها العامة ، ولذلك فهي تحتمل الخطأ والصواب ، وليس لها صفة الثبات والخلود .

٢ـ كان من وراء اختلافات الفقهاء في المسائل الفرعية أسبابٌ علميةٌ تشهد للأئمة بالحرص البالغ على تحري الحق والصواب كما

تشهد لهم بالعقلية الفاحصة ، والنظرة الثاقبة ، والفهم الواعي .

٣ـ الاقتناع بأن أئمة الفقهاء لم يتعصبوا لآرائهم ، ولم يدَّعِ واحد منهم أن اجتهاده هو الصواب وحده ، ولكنَّ مشكلة المسلمين أَنَّ أتباع المذاهب أضفوا على تلك الاختلافات قداسة ليست لها ، وأنزلوها منزلة لا ترقى إليها ، ولذلك رفضوا كل ما يُخالفها ولو كان نصاً شرعياً ! .

كما انكمش الكثير من فقهاء المذاهب على مذاهبهم ، وعكفوا عليها دون أي اعتبارٍ للآخرين ، وهذا الأمر ولَّد لديهم ضيقاً في الأفق ، وحرباً على كلِ مخالف[1] .

يقول الإمام الشاطبي : « إن تعويد الطالب على ألا يُطالع إلا على مذهبٍ واحدٍ ربما يكسبه نفوراً ، وإنكاراً لغير مذهبه ، وحزازةً في الاعتقاد بفضلِ أئمةٍ أجمع الناس على فضلهم ، وتقدُّمهم في الدين ، وخبرتهم بمقاصد الشارع وأغراض التشريع »[2] .

وقال الإمام أبو شامة : « ينبغي لمن اشتغل بالفقه ألاَّ يقتصر على مذهب إمام ، ويجب أن يعتمد في كل مسألة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة ، وليتجنب التعصب والنظر في طرائق الخلاف المتأخرة ، فإنها مضيعة للزمان ولصفوه مكدِّرة »[3] .

ومن الكلمات المضيئة الساعية إلى توحيد صف الأمة وبناء مجدها

(١) « بحوث ودراسات في التقريب بين المذاهب الإسلامية » ص١٧٣ـ ١٧٥ .
(٢) « الموافقات » للشاطبي ، ٢/ ٢٧٣ .
(٣) « حجة الله البالغة » للدهلوي ، ١/ ٣٢٧ .

على أساس وحدتها ، ما كتبه الشيخ هاشم الموسوي فقال : « لقد نشأ الخلاف الفقهي عندما نشأ اجتهاد الصحابة والتابعين ، واستمر مع تطور المذاهب الفقهية ، والفرق الكلامية التي تأثرت نشأتها بعوامل عديدة منها ما هو غريب عن روح الإسلام ، ويعتبر الخلاف العلمي نتيجة طبيعية لعملية الاجتهاد والبحث العلمي ، غير أن محنة المسلمين كانت في القصور العلمي لدى الكثيرين ، وإصرارهم على الخطأ والتعصب للرأي .

ويقول المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية : « والخلافات الفقهية كما هي واقعة بين السنة والشيعة فهي حاصلة بين السنة بعضهم مع بعض ، وبين الشيعة أيضاً بعضهم مع بعض ، ولكن اتفقت كلمة الجميع على أن هذه الخلافات مرتبطة بالشريعة لم يقصد واحد منهم أن يخالف نصاً من نصوص الإسلام ، وأنها رحمة للأمة وتوسعة عليها ، ونفيٌ للإكراه والحرج في الدين ، وهذه هي الثمرة الطبيعية لفتح باب الاجتهاد »[١] .

وهكذا نرى أن الحكماء المخلصين من العلماء المجتهدين في كلا الطرفين ـ الشيعة والسنة ـ مجمعون على ضرورة الخروج من قوقعة المذهبية والطائفية إلى سعة ورحابة الإسلام ، وهذا الخروج لا بد أن يقوم على فهمٍ وفقه ، ولا يكفي لتحقيقه وجود العواطف الجيَّاشة والمشاعر الطيبة ، ولذا كانت الدراسة العلمية ومعرفة الآراء من مصادرها هي سبيل الفهم الصحيح الذي يَردُّ كثيراً من الأخطاء ،

(١) « الشيعة في الميزان » لمحمد جواد مغنية ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

ويسدد الخطوات على الصراط المستقيم ، ويجعل التقارب مبنياً على أسس قوية تصمد أمام زعازع وعواصف الطائفية .

ونرجو الله تعالى أن يكون عملنا هذا خطوة في هذه المسيرة ، ولبنة في هذا الصرح ، وأن نوفق فيه للرشد ، ونتجنَّب الوقوع في مزالق المذهبية والطائفية .

❊ ❊ ❊

المطلب الثالث
مناقشة حديث افتراق الأمة إلى فِرَق كثيرة كلها في النار إلا واحدة

تعرضنا فيما سبق إلى ركائز وحدة الأمة ، وأسس هذه الوحدة ، وتبيَّن لنا من أقوال المحققين من علماء الأمة أن هذه الوحدة فرض ، وأمرٌ محتَّمٌ لا مجال للمحيد عنه .

ولكن هذا التيار الوحدوي الجارف يصطدم بعقبة كؤودٍ هي الحديث الذي روي بطرق عدة عن النبي ﷺ ، وفيه يقول : (افترقت اليهود على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعين فرقة ، وتفرَّقت النصارى على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة) .

فإن هذا الحديث يقدم مفهوماً هجومياً ينسف كل دعوة إلى وحدة هذه الأمة ، والتقارب بين فرقها ومذاهبها ، فكل مذهب وفرقة تريد أن تنال هذا الشرف ، وتذهب بالسبق ، وترسخ في الأذهان أنها الفرقة الناجية ، وما عداها من تيارات إسلامية تشغل الساحة ليست إلا هباءً وغُثاءً لا قيمة له في الدنيا والآخرة ، ولا يمثل الإسلام في شيء . ولذلك كان لا بد من إعطاء هذا الحديث حقه من النقاش العلمي من حيث السند والمتن ، ونقل أقوال العلماء في التعليق عليه ، ثم الحكم عليه .

رواية الترمذي للحديث :

قال أبو عيسى : حدثنا محمود بن غيلان قال : حدثنا أبو داود الحَفَرِيُّ عن سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن زياد الإفريقي عن عبد الله بن يزيدَ عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : (ليأتينَّ على أُمَّتي ما أتى على بني إسرائيل حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ حتى إن كان منهم من أتى أُمَّهُ علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك ، وإنَّ بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعينَ مِلَّة ، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلَّة كلهم في النار إلا ملَّةً واحدةً ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي) .

قال أبو عيسى : هذا حديثٌ مفسَّرٌ غريب ، لا نعرف مثل هذا إلا من هذا الوجه[1] .

وفي هذا الحديث مشكلات كثيرة سنداً ومتناً نذكر أهمها :

١ـ أن الحديث ـ على أهميته وأهمية موضوعه ـ لم يرد في الصحيحين أو في أحدهما ، وهما وإن لم يستوعبا الأحاديث الصحيحة إلا أنهما حرصا على أن لا يخلو كتاباهما من بابٍ من أبواب العلم ، ولو كان ذلك تعليقاً أو ترجمة .

٢ـ أن الحاكم عندما ذكره في مستدركه صحَّحه على شرط مسلم باعتبار أن محمد بن عمرو من رجال مسلم ، ولكن تعقبه الذهبي بأنَّ مسلماً لم يحتجَّ بمحمد بن عمرو منفرداً ، وإنما ذكر رواياته شواهدَ

(١) أخرجه الترمذي في صحيحه ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، برقم : (٢٦٤٦) .

ومتابعات . هذا مع ملاحظة أن الرواية التي صححها الحاكم على شرط مسلم ليس فيها زيادة : (كلها في النار إلا واحدة) وهي أصل المشكلة وأساسها[١] .

٣ـ أن الحديث ورد من طرق حسنة أقوى من هذه الطرق من غير زيادة : (كلها في النار إلا واحدة) فقد رواه الترمذي فقال : حدثنا الحسين بن حريث ، أبو عمار قال : حدثنا الفضل بن موسى عن محمد ابن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (تفرَّقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين ، وسبعين فرقة ، والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) .

قال أبو عيسى الترمذي : وفي الباب عن سعدٍ ، وعبد الله بن عمرو ، وعوف بن مالكٍ ، قال أبو عيسى : حديث أبي هريرة حديثٌ حسنٌ صحيح[٢] . ونقل المنذري تصحيح الترمذي وسكت عنه[٣] .

٤ـ أن الحديث بهذه الزيادة : (كلها في النار إلا واحدة) رُوي من طرق عدَّةٍ فقد أخرجه ابن ماجه عن عوف بن مالك[٤] ، والطبراني عن أبي أمامة[٥] ، وابن أبي عاصم في « السنة » عن عمرو بن عوف[٦] ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، برقم : (٤٤١) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، برقم : (٢٦٤٠) .
(٣) مختصر سنن أبي داود للمنذري ، ٧/ ٤ .
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه ، باب افتراق الأمم ، برقم : (٣٩٩٢) .
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٧٤ .
(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ، ١/ ٣٣ / ٧ .

والحاكم عن معاوية بن أبي سفيان ، وعن عبد الله بن عمرو ، وعمرو بن عوف ، وابن مسعود[١] . والملاحظ أن بعض هذه الروايات في سندها أزهر ابن عبد الله ـ أو ابن سعيد ـ الحرازي وكان ناصبياً يسبُّ علياً وينال منه ، وهو من شرطة الحجاج[٢] ، وهو رواه عن عبد الله بن يحيى عن معاوية . وبقيتها تدور على يزيد الرقاشي عن أنس ، أو كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده ، أو عباد بن يوسف عن صفوان بن عمرو عن راشد بن سعيد عن عوف بن مالك ، وكلهم ضعفاء متكلم فيهم من جهة الحفظ أو العدالة .

٥ـ إن هذا الحديث في مسألة مهمة من مسائل العقيدة ، ومثل هذه المسائل ذهب كثير من العلماء إلى عدم قبول أحاديث الآحاد فيها ، فكيف إذا أضيفت إليها تلك العلل ؟!

٦ـ أنكر كثير من العلماء زيادة : (كلها في النار إلا واحدة) وشددوا في ردِّها .

قال العلامة ابن الوزير الصنعاني : وإياك والاغترار بزيادة (كلها هالكة إلا واحدة) فإنها زيادة فاسدة غير صحيحة ، ولا يُؤْمَنُ أن تكون من دسيس الملاحدة . وقال أيضاً : ليس في طرق الحديث شيء على شرط الصحيح[٣] .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، ١/ ٢١٨ ، ٣/ ٣٦١ .

(٢) انظر « ميزان الاعتدال » للذهبي ١/ ٣٢٢ ، الترجمة (٦٩٨) ، و« تهذيب التهذيب » لابن حجر ١/ ١٧٩ .

(٣) انظر « العواصم والقواصم » لابن الوزير ٣/ ١٧٣ ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط .

ويردُّ ابن حزم على من يُكفر الآخرين بسبب الخلاف في شيء من فروع العقيدة مستشهدين بذلك بأحاديث منها :

ـ (القدرية مجوس هذه الأمة)[١] .

ـ (تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة) . فيقول : هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد ، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد ، فكيف من لا يقول به؟[٢] .

وقال الشوكاني : زيادة « كلها في النار» لا تصح مرفوعة ولا موقوفة[٣] .

٧ـ في الحديث إشكال تاريخي مهم فإنَّ هذا العدد من الفرق المذكورة لا يُعرف في تاريخ هذه الأديان ، وخاصة اليهودية .

٨ ـ إن صيغة الحديث حسب رواية الفرقة الناجية يتناقض أولها مع آخرها ، ففي أول الحديث يقول رسول الله ﷺ : (تفترق أمتي) وفي آخره : (كلها في النار إلا واحدة) فكيف تكون باقي الفرق من أمة النبي ﷺ ، ثم تكون هالكة ؟!

وقد أشار إلى هذا النقد شيخ الإسلام ابن تيمية مع أنه ممن صحح

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في القدر ، برقم : (٤٦٩١) ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ، برقم : ١/ ١٥٩ ، وقال : صحيح إنْ صحَّ سماعُ أبي حازم من ابن عمر ، وسكت عنه الذهبي .

(٢) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » لابن حزم ٣/ ٢٩٢ .

(٣) « فتح القدير » للشوكاني ٣/ ١١٠ .

الحديث فقال : « فمن كَفَّر الثنتين والسبعين فرقة كلهم فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، مع أن حديث الثنتين والسبعين فرقة ليس في الصحيحين ، وقد ضعفه ابن حزم وغيره ، لكن حسنه غيره أو صححه ، كما صححه الحاكم وغيره »[١] .

وبهذا يتبين أن زيادة (كلها في النار إلا واحدة) الصحيح أنها موقوفة من قول أبي أمامة رضي الله عنه ، ولذلك يجب ترجيح الرواية التي ليست فيها هذه الزيادة ، وفهم الحديث فهماً يتوافق مع روح التشريع ، وأدب الخلاف في الإسلام .

قال الخطابي في (معالم السنن) : قول النبي ﷺ : (تفترق أمتي. . .) فيه دليل على أن هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين ، إذ جعلهم النبي ﷺ كلهم من أمته ، وفيه أن المتأَوِّل لا يخرج من الملَّة ، وإن أخطأ في تأوُّله[٢] .

* * *

---

(١) منهاج السنة ٥/ ١٦٩ ولم يرد شيخ الإسلام هنا تضعيف الحديث لأنه أثبت صحته في مواضع أخرى وإنما قصد بيان أنه ليس من الصحيح المتفق على صحته .

(٢) « معالم السنن » للخطابي ، ٧/٧ ، الحديث (٤٤٢٩) .

المبحث الثاني
إكرام الصحابة وأئمة الفقهاء لآل بيت المصطفى ﷺ ومحبة آل البيت لهم

المطلب الأول
إكرام الصحابة لآل البيت رضي الله تعالى عنهم أجمعين

أحب الصحابةُ النبيَ ﷺ حُباً جماً ، فكان أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ولقد علم الصحابة شدة محبة النبي ﷺ لآله ، فكانوا لأجل ذلك يُجِلُّونهم ويعظِّمونهم ، على خلاف ما يروِّجه أعداء الصحابة وآل البيت من أن الصحابة كانوا يبغضون آل بيت المصطفى ﷺ ،وينتقصون من حقوقهم ، وقد ورد في تعظيم الصحابة وإجلالهم لعترة المصطفى ﷺ أخبار كثيرة نذكر بعضها فيما يأتي :

أولاً : محبة أبي بكر رضي الله عنه لآل النبي ﷺ :

أخرج ابن الأعرابي عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد وقد أحاط به أصحابه ، إذ أقبل علي رضي الله عنه ، فسلم ثم وقف ، فنظر مكاناً يجلس فيه ، فنظر رسول الله ﷺ على وجوه أصحابه أيهم يُوْسِعُ له ، وكان أبو بكر عن يمين رسول الله ﷺ ،فتزحزح أبو بكر في مجلسه ، وقال : ها هنا يا أبا الحسن ، فجلس بين رسول الله ﷺ وأبي بكر ، فرأينا السرور في

وجه رسول الله ﷺ ، ثم أقبل على أبي بكر فقال : « يا أبا بكر ، إنما يعرف الفضل لأهل الفضل أهلُ الفضل »[(١)] .

وكان أبو بكر رضي الله عنه يحب الحسن ويكرمه ويلاعبه ، ومن ذلك ما رواه عقبة بن الحارث قال : خرجت مع أبي بكر من صلاة العصر بعد وفاة النبي ﷺ بليالٍ ، وعليٌّ يمشي إلى جنبه ، فمرَّ بحسن بن علي يلعب مع غلمان ، فاحتمله على رقبته ، وهو يقول : « بأبي شبيهٌ بالنبي ليس شبيهاً بعلي » ، وعليٌّ رضي الله عنه يسمع ويضحك[(٢)] .

وروي أن أبا بكر رضي الله عنه صعد منبر رسول الله ﷺ بعد وفاته ، فرآه الحسن وكان صغيراً ، فقال له : انزل من على منبر أبي ـ ويعني النبي ﷺ ـ ، فنزل إليه أبو بكر ولاطفه ولاعبه[(٣)] .

وقد مرَّ معنا ما قاله أبو بكر رضي الله عنه لفاطمة ، وما ترضاها به قبيل وفاتها .

وأخرج عمر بن شَبَّة وأبو يعلى وأبو بشر بن سمويه في فوائده ، عن أنس رضي الله عنه في قصة إسلام أبي قحافة رضي الله عنه قال : فلما مدّ يده يبايعه بكى أبو بكر رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ :

---

(١) « البداية والنهاية » لابن كثير ، ٧/ ٣٥٩ ،وروي أن قيام أبي بكر كان للعباس عند ابن عساكر ، انظر « كنز العمال » للهندي ١٣/ ٥١٠ ، حديث (٣٧٣٠٨) ، وعزاه لابن عساكر .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » لابن عساكر ٧/ ٨ .

(٣) « كنز العمال » للهندي ، حديث (١٤٠٨٤) ، وعزاه لأبي نعيم ، وابن سعد .

ما يبكيك ؟ قال : لأن تكون يد عمك مكان يده ويُسلِمُ ويَقِرُّ الله عينك أحبُّ إليَّ من أن يكون(١) .

وعند الطبراني والبزار عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : جاء أبو بكر بأبيه أبي قحافة رضي الله عنهما إلى رسول الله ﷺ يقودهما شيخ أعمى يوم فتح مكة ، فقال له رسول الله ﷺ : ألا تركت الشيخ في بيته حتى نأتيه ؟ قال : أردت أن يؤجره الله ، والله يا رسول الله لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشدَّ فرحاً مني بإسلام أبي ، ألتمس بذلك قُرَّة عينك يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : صدقت(٢) .

ثانياً : محبة عمر رضي الله عنه لآل النبي ﷺ :

وكان عمر رضي الله عنه يُجلُّ آل بيت النبي ﷺ ، ويعرف لهم فضلهم وسابقتهم ، فقد أخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال : كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في ولايتهما لا يلقى العباسَ منهما واحدٌ وهو راكب إلا نزل عن دابته وقادها ، ومشى مع العباس حتى يبلغه مجلسه أو منزله(٣) .

وعند ابن سعد عن الشعبي أن العباس رضي الله عنه تحفَّى عمر رضي الله عنه في بعض الأمر فقال له : يا أمير المؤمنين أرأيت أن لو

---

(١) أخرجه الحاكم من هذا الوجه وقال : صحيح على شرط الشيخين . كذا في (الإصابة) لابن حجر ٤/ ١١٦ ، ولم أجده في المستدرك ، وأخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » ٩/ ٤٠ .

(٢) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٦/ ١٧٤ . قال الهيثمي : وفيه موسى ابن عبيدة وهو ضعيف .

(٣) « كنز العمال » للهندي ١٣/ ٥١٧ ، الحديث رقم (٣٧٣٣١) ، وعزاه لابن عساكر .

جاءك عمٌّ موسى مسلماً ما كنت صانعاً به . قال : كنت والله محسناً إليه ، قال : فأنا عم محمد النبي ﷺ . فقال : وما رابك يا أبا الفضل ؟ فوالله لأبوك أحب إلي من أبي ، لأني كنت أعلم أنه أحبُّ إلى رسول الله ﷺ من أبي ، فأنا أوثر حُبَّ رسول الله ﷺ على حُبِّي (١) .

وأخرج ابن مردويه والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما أُسر الأسَارى يوم بدر أُسر العباس رضي الله عنه فيمن أُسر ، أسَره رجلٌ من الأنصار . قال : وقد أوعدتهُ الأنصار أن يقتلوه . فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال : إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه . قال عمر : أفآتيهم ؟ قال : نعم . فأتى عمر الأنصار فقال لهم : أرسلوا العباس . فقالوا : لا والله لا نرسله . فقال لهم عمر : فإن كان لرسول الله رِضىً ؟ قالوا : فإن كان لرسول الله رضى فخذه ، فأخذه عمر . فلما صار في يده قال له عمر : يا عباسُ أسلم ، فوالله لأن تسلم أحبُّ إليَّ من أن يُسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك (٢) .

وعند ابن سعد أيضاً عن أبي جعفر محمد بن علي أن العباس رضي الله عنه جاء إلى عمر رضي الله عنه فقال له : إن النبي ﷺ أقطعني البحرين . قال : من يعلم ذلك ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فجاء به فشهد له ، قال : فلم يمضِ عمر ذلك كأنه لم يقبل شهادته ، فأغلظ العباس لعمر ، فقال عمر : يا عبد الله خذ بيد أبيك . ثم قال

---

(١) « كنز العمال » للهندي ١٣/ ٥١٥ ، الحديث رقم (٣٧٣٠٦) .
(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير ٣/ ٦٣ .

عمر : والله يا أبا الفضل لأنا بإسلامك كنت أسرَّ مني بإسلام الخطاب لو أسلم ؛ لمرضاة رسول الله ﷺ[١] .

توسل عمر رضي الله عنه في الاستسقاء بالعباس رضي الله عنه :

وورد من طرق كثيرة استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما ، وقوله : « اللهم إنَّا كنَّا إذا قحطنا على عهد نبينا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنَّا نتوسل إليك اليوم بعمِّ نبينا فاسقنا ، فيُسقون »[٢] .

وعند ابن عساكر وابن النجار ، أن عمر رضي الله عنه قال : « أيها الناس إنَّ رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولدُ لوالده يعظمهُ ويُفخِّمهُ ، ويبرُّ قسمه ، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس ، واتخذوه وسيلةً إلى الله عز وجل فيما نزل بكم »[٣] .

صور من إكرام عمر رضي الله عنه لعلي وبنيه رضي الله عنهم :

وأخرج ابن عساكر عن عروة رضي الله عنه أن رجلاً وقع في علي رضي الله عنه بمحضر من عمر رضي الله عنه ، فقال عمر : تعرف صاحب هذا القبر محمدَ بن عبد الله بن عبد المطلب . وعلي هو ابن أبي طالب بن عبد المطلب لا تذكر علياً إلا بخير ، فإنك إن آذيته آذيت هذا في قبره[٤] .

---

(١) « الطبقات الكبرى » لابن سعد ٤/ ٢٣ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ، برقم : (١٠١٠) .

(٣) « كنز العمال » للهندي ١٣/ ٥٠٤ ، الحديث رقم (٣٧٢٩٧) .

(٤) « كنز العمال » للهندي ١٣/ ١٢٣ ، الحديث رقم (٣٦٣٩٤) .

ولقد تزوَّج عمر أم كلثوم بنت علي وأخت الحسن والحسين رغبة في مصاهرة آل البيت ، فلما تزوجها خرج إلى مجلس المهاجرين فقال : رفِّئوني[١] . فقالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لقد صاهرت رسول الله ﷺ ، وإني سمعته يقول : « كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سببي ، ونسبي ، وصهري »[٢] .

وكذلك فقد كان عمر رضي الله عنه شديد الإكرام للحسن والحسين رضي الله عنهما ، ومن صور ذلك أن عمر رضي الله عنه أتاه أثواب من اليمن فكسا أهل المدينة ، ولم يكن فيها ما يَصلح للحسن والحسين ، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة ، فقال : الآن طابت نفسي[٣] .

ومن ذلك أنه لما قسم الأموال على المسلمين ، وجعل لكل واحد نصيباً في بيت المال ، فرض لهم على حسب سابقتهم في الإسلام ، إلا أنه ألحق الحسن والحسين بأبيهما ، وفرض لهما خمسة آلاف ، خمسة آلاف لقرابتهما من رسول الله ﷺ ، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف[٤] .

وأخرج ابن سعد وابن راهويه والخطيب ، عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : صعدت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبر فقلت له : انزل عن منبر أبي واصعد منبر أبيك ! فقال عمر : إن

---

(١) رفِّئوني : هنئوني . (القاموس المحيط) للفيروزآبادي ، ١/ ١٢٢ .
(٢) « الإصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر ٤/ ٤٩٢ .
(٣) « أخبار عمر وعبد الله بن عمر » للطنطاوي ٣١٩ .
(٤) « مختصر تاريخ دمشق » لابن عساكر ٧/ ٢١ ، و(الطبقات الكبرى) لابن سعد ٣/ ٢٩٧ .

أبي لم يكن له منبر ، فأقعدني معه . فلما نزل ذهب إلى منزله فقال : أي بُني من علمك هذا ؟ قلتُ : ما علمنيه أحد . قال : أي بنيَّ ، لو جعلتَ تأتينا وتغشانا ، فجئتُ يوماً ، وهو خالٍ بمعاوية ، وابنُ عمرَ بالباب لم يؤذن له ، فرجعْتُ ، فلقيني بَعْدُ فقال : يا بُنيَّ لم أرَكَ أتيتنا ؟ قلت : جئتُ وأنت خالٍ بمعاوية ، وابنُ عمرَ بالباب لم يؤذن له فرجعت ، فقال : أنت أحق بالإذن من عبد الله بن عمر(١) .

وقد روى الكليني في : « الكافي » ، والطوسي في « تهذيب الآثار » صوراً من إجلال عمر لعلي ، واستشارته في القضاء ، والثناء عليه ، حتى اشتهر عنه قوله : « معضلة ولا أبو حسن لها » .

محبة عمر رضي الله عنه لفاطمة رضي الله عنها :

أخرج الحاكم عن أسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على فاطمة رضي الله عنها ، فقال : يا فاطمة ، والله ما رأيت أحداً أحب إلى رسول الله ﷺ منك ، والله ما كان أحد من الناس بعد أبيك أحب إليَّ منك(٢) .

ثالثاً : محبة عثمان رضي الله عنه لآل بيت النبي ﷺ :

أخرج ابن عساكر عن القاسم بن محمد مِمَّا أحدث عثمان فَرُضِيَ به : منه أنْ ضرب رجلاً في منازعة استخفَّ فيها بالعباس بن

(١) « كنز العمال » للهندي ١٣/ الحديث رقم (٣٧٦٦٥) ، « الإصابة » لابن حجر ٤/ ٤٩٤ .

(٢) أخرجه الحاكم في (المستدرك) ٣/ ١٦٨ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين .

عبد المطلب ، فقيل له ، فقال : أيُفخِّم رسولُ الله ﷺ عمَّه ، وأرخِّص في الاستخفاف به ![١] .

وكان الحسن رضي الله عنه من المحبين لعثمان رضي الله عنه ، ومن جملة المدافعين عنه يوم حاصره الثائرون في داره .

قال ابن كثير في تاريخه : كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يُكرِم الحسن والحسين ويحبُّهما ، وقد كان الحسن بن علي يوم الدار عنده ـ وعثمان محصور ـ ومعه السيف متقلداً به يدافع عن عثمان رضي الله عنه ، حتى جُرِحَ وخاف عليه عثمان ، فأقسم عليه ليرجعن إلى منزلهم[٢] .

رابعاً : محبة أبي هريرة رضي الله عنه لآل بيت النبي ﷺ :

اتهم كثير من الباحثين والمؤرخين أبا هريرة رضي الله عنه بموالاته لمعاوية والأمويين ، وغضّه من شأن آل البيت ، وسوف نرى من خلال ما نورده من أخبار أن الحقيقة على نقيض ذلك وخلافه ، فقد كان أبو هريرة رضي الله عنه يُجلُّ آل البيت ، ويعرف لهم حقهم ، ويعلن ذلك صراحة حتى أمام بني أمية ، وإن ناله في سبيل ذلك شيءٌ من الأذى ، فليس أصحاب رسول الله ﷺ ممن يبيعون دينهم بدنياهم ، وقد تركوا دنياهم وأهلهم ابتغاء رضى الله ورسوله .

فعن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال : كنا مع أبي هريرة إذ جاء

---

(١) « كنز العمال » للهندي ١٣/ ٥١٨ ، الحديث رقم (٣٧٣٣٦) .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير ٥/ ٥٢٤ .

الحسن بن علي رضي الله عنه فسلم فرددنا عليه ، ولم يعلم أبو هريرة ، فمضى ، فقلنا : يا أبا هريرة هذا الحسن بن علي قد سلّم علينا ، قال : فتبعه فقال : وعليك السلام يا سيدي ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه سيد »[(١)] .

ومما روي في ذلك عنه قال : ما رأيت الحسن بن علي إلا فاضت عيناي دموعاً رحمة ، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فوجدني في المسجد ، فأخذ بيدي ، فاتّكأ عليَّ ، ثم انطلقت معه حتى جئنا سوق بني قينقاع ، فما كلمني ، فطاف فيه ، ونظر ثم رجع ، ورجعت معه ، فجلس في المسجد فاحتبى ، فأتى حَسَنُ بشدة حتى وقع في حِجْره ، فجعل يدخل يده في لحية رسول الله ﷺ ، وجعل رسول الله ﷺ يفتح فمه ، ويدخل فمه في فمه ، ويقول : « اللهم إني أحبُّه ، وأحبُّ من يحبُّه » ثلاثاً .

وفي رواية أخرى : أنه ﷺ كان يدخل لسانه في فمه ، أو لسان الحسين في فمه ﷺ[(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن مروان بن الحكم أتى أبا هريرة في مرضه الذي مات فيه ، فقال مروان لأبي هريرة : ما وجدت عليك في شيء منذ اصطحبنا إلا في حبك الحسن والحسين ، قال : فتحفَّز أبو هريرة فجلس فقال : أشهد لَخَرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا ببعض الطريق سمع رسول الله ﷺ صوت الحسن والحسين ، وهما

(١) « مختصر تاريخ دمشق » لابن عساكر ٧/ ٢١ .
(٢) « مختصر تاريخ دمشق » لابن عساكر ٧/ ١٠ .

يبكيان ، وهما مع أمهما ، فأسرع حتى أتاهما ، فسمعته يقول : « ما شأن ابنيَّ ؟ » فقالت : العطش . قال : فأخلف رسول الله ﷺ إلى شنَّة[١] يتوضأ بها ، فلم يجد فيها ماء ، وكان الماء يومئذ إعذاراً[٢] ، والناس يريدون الماء ، فنادى : هل أحد منكم معه ماء ؟ فلم يبق أحد إلا أخلف يده يبتغي الماء في شنّه ، فلم يجد أحد منهم قطرة ، فقال رسول الله ﷺ : « ناوليني أحدهما » ، فناولته إياه من تحت الخِدْر ، فضمه إلى صدره وهو يصغو[٣] ما يسكت ، فأدلع له لسانه فجعل يمصه حتى هدأ وسكن ، فلم أسمع له بكاءً ، والآخر يبكي كما هو لا يسكت ، فقال : « ناوليني الآخر » ، فناولته إياه ، ففعل به كذلك فسكتا ، فما أسمع لهما صوتاً ، ثم قال : « سيروا » . فصدعنا يميناً وشمالاً عن الظعائن ، حتى لقيناه على قارعة الطريق . فأنَّى لا أحب هذين ، وقد رأيت هذا من رسول الله ﷺ ؟![٤] .

وعن مساور مولى سعد بن بكر قال : رأيت أبا هريرة رضي الله عنه قائماً على مسجد رسول الله ﷺ يوم مات الحسن بن علي رضي الله عنهما يبكي ، وينادي بأعلى صوته : يا أيها الناس ! مات اليوم حِبُّ رسول الله ﷺ[٥] .

---

(١) الشنة : القربة الصغيرة . « القاموس المحيط » للفيروزآبادي ٤/ ٣٤١ .
(٢) الإعذار : المنقطع .
(٣) يصغو : يتأذى من شدة العطش .
(٤) « مختصر تاريخ دمشق » لابن عساكر ٧/ ١٧ ، ١٦ .
(٥) « تهذيب الكمال » للمزي ٦/ ٢٥٥ .

فانظر إلى هذا الأدب ، وهذه المحبة منه رضي الله عنه لآل بيت رسول الله ﷺ عامة .

خامساً : محبة عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه لآل المصطفى ﷺ :

كان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أسنَّ من الحسن بأكثر من عشر سنوات ، وكان مع ذلك يُجِلُّ الحسن ، ويعرف له فضله .

روى رجاء بن ربيعة قال : كنت جالساً بالمدينة في مسجد رسول الله ﷺ في حلقة فيها أبو سعيد ، وعبد الله بن عمرو ، فمرَّ الحسن بن علي رضي الله عنه ، فسلَّم فردَّ عليه القوم ، وسكت عبد الله بن عمرو ، ثم اتبعه فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم قال : هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء ، والله ما كلمته منذ ليالي صفين . فقال أبو سعيد : « ألا تنطلق إليه فتعتذر إليه ، قال : نعم . فقام : فدخل أبو سعيد فاستأذن فأذن له ، ثم استأذن لعبد الله بن عمرو ، فدخل ، فقال أبو سعيد لعبد الله بن عمرو : حدثنا بالذي حدثتنا به حيث مرَّ الحسن . فقال : نعم ، أنا أحدثكم ، إنه أحب أهل الأرض إلى أهل السماء . فقال الحسن : إذ علمت أني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلِمَ قاتلتنا أو كثَّرت يوم صفين ؟! قال : أما إني والله ما كثَّرت سواداً ، ولا ضربت معهم بسيف ، ولكني حضرت مع أبي .قال الحسن : أما علمت أنه لا طاعة لمخلوق في

معصية الخالق ؟! قال : بلى ، ولكني كنت أسرد الصوم على عهد النبي ﷺ ، فشكاني أبي إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن عبد الله يصوم النهار ويقوم الليل . فقال ﷺ : « صُمْ وأفطر ، وصلِّ ونَمْ ، فإني أنا أصلي وأنام وأصوم وأفطر ، ثم قال لي : يا عبد الله أطع أباك » فخرج يوم صفين وخرجت معه(١) .

سادساً : محبة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه لآل النبي ﷺ :

ومن صور ما روي من إجلال ابن الزبير للحسن رضي الله عنهما ، ما رواه عبد الله بن مصعب بن الزبير قال : رأيت عبد الله بن الزبير قعد إلى الحسن بن علي في غداة من شتاء باردة ، قال : فوالله ما قام حتى تفسخ جبينه عرقاً ـ يعني من هيبته ـ فغاظني ذلك ، فقمت إليه ، فقلت : يا عمُّ ؛ قال : ما تشاء ؟ قال : قلتُ : رأيتك قعدت إلى الحسن بن علي ، فما قمت حتى تفسَّخ جبينك عرقاً . فقال : يا ابن أخي إنه ابن فاطمة ، لا والذي نفسي بيده ما قامت النساء عن مثله(٢) .

سابعاً : إنكار الصحابة رضي الله عنهم على مَنْ سبَّ علياً رضي الله عنه من الخوارج :

١ـ إنكار أم سلمة رضي الله عنها على من سبَّ علياً رضي الله عنه : عن أبي عبد الله الجَدَلي قال : دخلتُ على أم سلمة . فقالت لي :

---

(١) أخرجه البزار . انظر (مجمع الزوائد) للهيثمي ٩/ ١٧٧ .
(٢) « مختصر تاريخ دمشق » لابن عساكر ٧/ ٢٢ .

أيُسبُّ رسول الله ﷺ فيكم ؟ قلت : معاذ الله ، أو سبحان الله ! قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سبَّ علياً فقد سبني »[١] . وعند الطبراني وأبي يعلى عن أبي عبد الله الجَدَلي قال : قالت لي أم سلمة رضي الله عنها : يا أبا عبد الله ، أيُسبُّ رسول الله ﷺ فيكم ؟ قلت : أنَّى يُسَبُّ رسول الله ﷺ ؟قالت : أليس يُسبُّ عليٌ رضي الله عنه ومن يحبه ؟ وقد كان رسول الله ﷺ يُحِبُّه[٢] .

٢ـ إنكار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه على من سبَّ علياً رضي الله عنه : كان سعد رضي الله عنه ممن اعتزل الفتنة بين الصحابة ولم يقاتل مع أحد منهم تورعاً منه . وأخرج أبو يعلى عن أبي بكر بن خالد أنه أتى سعد بن مالك فقال : بلغني أنكم تُعرضون عن سبِّ علي رضي الله عنه بالكوفة ، فهل سببته ؟فقال : معاذ الله ! فقال سعد : فو الذي نفس سعد بيده ، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول في عليٍّ شيئاً لو وضع المنشار على مفرقي ما سببته أبداً[٣] .

٣ـ استجابة دعاء سعد رضي الله عنه على من شتم علياً وطلحة والزبير رضي الله عنهم :

---

(١) « مجمع الزوائد » للهيثمي ٩/ ١٣٠ ،و رجاله رجال الصحيح غير أبي عبد الله الجدلي وهو ثقة .

(٢) قال الهيثمي : رجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي عبد الله الجدلي وهو ثقة . « مجمع الزوائد » للهيثمي ٩/ ١٣١ .

(٣) « مجمع الزوائد » للهيثمي ٩/ ١٣٠ بإسناد حسن .

وأخرج الطبراني عن عامر بن سعد قال : بينما سعد رضي الله عنه يمشي إذ مرَّ برجل وهو يشتم علياً وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، فقال له سعد : إنك تشتم أقواماً قد سبق لهم من الله ما سبق ، والله لَتكُفَنَّ عن شتمهم أو لأدعونَّ الله عز وجل عليك . فقال الرجل : يخوفني كأنه نبي ! فقال سعد : اللهم إن كان يشتم أقواماً قد سبق لهم منك ما سبق فاجعله اليوم نكالاً ! فجاءت بختية[١] ، فأفرج الناس لها فتخبطته ، فرأيت الناس يتبعون سعداً يقولون : استجاب الله لك يا أبا إسحاق[٢] .

وعن مصعب بن سعد عن سعد رضي الله عنه أن رجلاً نال من علي رضي الله عنه ، فدعا عليه سعد بن مالك ، فجاءته ناقة أو جمل فقتله فأعتق سعد نَسَمةً[٣] وحلف أن لا يدعو على أحد[٤] .

وعنده أيضاً عن قيس بن أبي حازم قال : كنت بالمدينة فبينا أنا أطوف في السوق إذ بلغت أحجار الزيت[٥] ، فرأيت قوماً مجتمعين على فارس قد ركب دابة وهو يشتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه والناس وقوف حواليه ، إذ أقبل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فوقف عليهم ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : رجل يشتم عليَّ بن

---

(١) البختية : الأنثى من الجمال .
(٢) قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح . (مجمع الزوائد) للهيثمي ٩/ ١٥٤ .
(٣) نسمة : نَفْس .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ، ٣/ ٤٩٩ .
(٥) أحجار الزيت : مكان في المدينة . « معجم البلدان » للحموي ، ٣/ ١٦٣ .

أبي طالب رضي الله عنه . فتقدَّم سعدٌ ، فأفرجوا له حتى وقف عليه ، فقال : يا هذا!! عَلاَم تشتم علي بن أبي طالب ؟ ألم يكن أول من أسلم ؟ ألم يكن أول من صلى مع رسول الله ﷺ ؟ ألم يكن أزهد الناس ؟ ألم يكن أعلم الناس ؟ وذكر حتى قال : ألم يكن خَتَن رسول الله ﷺ على ابنته ؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله ﷺ في غزواته ؟ ثم استقبل القبلة ، ورفع يديه ، وقال : اللهم إنَّ هذا يشتم ولياً من أوليائك ، فلا تفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك . قال قيس : فو الله ما تفرقنا حتى ساخت به دابته فرمته على هامته في تلك الأحجار ، فانفلق دماغه ومات(١) .

٤ـ غضب سعيد بن زيد رضي الله عنه على من سبَّ علياً رضي الله عنه :

وأخرج أبو نعيم في « الحلية » عن رباح بن الحارث ، أن المغيرة رضي الله عنه كان في المسجد الأكبر وعنده أهل الكوفة عن يمينه وعن يساره ، فجاء سعيد بن زيد ، فحياه المغيرة وأجلسه عند رجليه على السرير ، فجاء رجل من أهل الكوفة فاستقبل المغيرة فسبَّ . فقال سعيد : مَنْ يسبُّ هذا يا مغيرة ؟ قال : يسبُّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه . فقال : يا مغيرة بن شعبة ـ ثلاثاً ـ ألا أسمع أصحاب رسول الله ﷺ يُسبون عندك لا تنكر ولا تغيّر ! وأنا أشهد على

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، ٣/ ٥٠٠ : وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه . ووافقه الذهبي ، وأخرجه أبو نعيم في « الدلائل » ص٢٠٦ عن ابن المسيب نحو السياق الأول .

رسول الله ﷺ مما سمعت أذناي ووعاه قلبي من رسول الله ﷺ ـ فإني لم أكن أروي عنه كذباً يسألني عنه إذا لقيته ـ أنه قال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبد الرحمن في الجنة ، وسعد بن مالك في الجنة » وتاسع المؤمنين في الجنة ، ولو شئت أن اسميه لسميته . قال : فرجَّ أهل المسجد يناشدونه : يا صاحب رسول الله ﷺ من التاسع ؟ قال : ناشدتموني بالله واللهُ عظيمٌ ؛ أنا تاسع المؤمنين ورسول الله العاشر . ثم أتبع ذلك يميناً فقال : لَمَشهدٌ شهده رجل مع رسول الله ﷺ يغبر وجهه مع رسول الله ﷺ أفضل من عمل أحدكم ولو عُمِّر عمر نوح .

وعنده أيضاً عن عبد الله بن ظالم المازني قال : لما خرج معاوية رضي الله عنه من الكوفة استعمل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، قال : فأقام خطباء يقعون في علي رضي الله عنه وأنا على جنب سعيد بن زيد . قال : فغضب فقام فأخذ بيدي فتبعته ، فقال : ألا ترى إلى هذا الرجل الظالم لنفسه الذي يأمر بلعن رجل من أهل الجنة ! فأشهد على التسعة أنهم في الجنة ولو شهدت على العاشر لم آثم[١] .

❊ ❊ ❊

(١) وأخرجه أحمد وأبو نعيم في « المعرفة » ، وابن عساكر عن رباح نحو ما تقدم ؛ انظر « كنز العمال » للهندي ، الحديث رقم (٣٦٧٤١) .

المطلب الثاني

محبة علي رضي الله عنه وآل البيت لأصحاب رسول الله ﷺ ودفاعهم عنهم

أولاً : خطبة عظيمة لعلي رضي الله عنه في بيان فضل الشيخين ، وبعض ما جاء عنه في ذلك :

روي عن خيثمة واللالكائي وأبي الحسن البغدادي والشيرازي وابن منده وابن عساكر عن سويد بن غفلة قال : مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر وينتقصونهما . فأتيت علياً رضي الله عنه فذكرت له ذلك فقال : « لعن الله من أضمر لهما إلا الحَسَنَ الجميل ، أخوا رسول الله ﷺ ووزيراه ! ثم صعد المنبر فخطب خطبة بليغة فقال : ما بال أقوام يذكرون سَيِّدَي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه مُتَنَزِّه ، ومِمَّا يقولون بريء ، وعلى ما يقولون مُعاقِب ؟ والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لا يحبهما إلا مؤمن تقي ، ولا يبغضهما إلا فاجر رديء ، صحبا رسول الله ﷺ بالصدق والوفاء ، يأمران وينهيان ويعاقبان ، فما يجاوزان ما يصنعان رأي رسول الله ﷺ ، ولا يرى رسول الله ﷺ كرأيهما رأياً ، ولا يحب حبهما حباً ، مَضَى رسولُ الله ﷺ وهو عنهما راضٍ والناس راضون ، ثم ولي أبو بكر الصلاة ، فلما قبض الله نبيَّه ﷺ ولاه المسلمون ذلك وفوضوا إليه الزكاة لأنهما مقرونتان ،

وكنت أول من يسمى له من بني عبد المطلب ، وهو لذلك كاره ، يودُّ أن بعضنا كفاه ، فكان والله خير مَنْ بقي ، أرأفه رأفة ، وأرحمه رحمة ، وأكيسه ورعاً ، وأقدمه إسلاماً ، شبهه رسول الله ﷺ بميكائيل رأفة ورحمة ، وبإبراهيم عفواً ووقاراً ، فسار بسيرة رسول الله ﷺ حتى قُبض رحمة الله عليه .ثم ولي الأمر من بعده عمر بن الخطاب ، واستأمر في ذلك الناس ، فمنهم من رضي ومنهم من كره ، فكنتُ ممَّن رضي . فوالله ما فارق عمر الدنيا حتى رضي من كان له كارهاً . فأقام الأمر على منهاج النبي ﷺ وصاحبه ، يتبع آثارهما كما يتبع الفصيل[١] أثر أمه ، وكان ـ والله ـ خير من بقي ، رفيقاً رحيماً ، وناصر المظلوم على الظالم .ثم ضرب الله بالحق على لسانه حتى رأينا أن ملكاً ينطق على لسانه ، وأعز الله بإسلامه الإسلام ، وجعل هجرته للدين قواماً ، وقذف في قلوب المؤمنين الحبَّ له ، وفي قلوب المنافقين الرهبة له ، شبَّهه رسول الله ﷺ بجبريل فظاً غليظاً على الأعداء ، وبنوح حنقاً ومغتاظاً على الكافرين . فمن لكم بمثلهما ؟ لا يُبلغ مبلغهما إلا بالحبِّ لهما واتباع آثارهما ، فمن أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني وأنا منه بريء . ولو كنت تقدمتُ في أمرهما لعاقبت أشد العقوبة ، فمن أُتيت به بعد مقامي هذا فعليه ما على المفتري . ألا وخيرُ هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، ثم الله أعلم بالخير أين هو .

(١) الفصيل : ولد الناقة .

أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولك »[1] .

وقد رُويت آثارٌ عن علي كرم الله وجهه في فضل أبي بكر منها ما رواه ابن أبي عاصم عن علي كرم الله وجهه قال : « ما مات رسول الله ﷺ حتى عرفنا أن أفضلنا بعد رسول الله ﷺ أبو بكر »[2] .

وقد جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] عن علي رضي الله عنه أن الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه أسلم أبواه جميعاً ، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره[3] .

ورُوي أنَّ علياً دخل على عمر رضي الله عنهما بعد أن طعنه أبو لؤلؤة ، ومعه الحسن بن علي ، وعمر يبكي ، فقال علي : ما يبكيك ؟ قال : أبكاني خبر السماء ، ولا أدري أَيُذهب بي إلى الجنة أم إلى النار ؟ فقال علي : أبشر بالجنة ، فإني سمعت رسول الله ﷺ ما لا أحصيه يقول : « سيدا كهول الجنة أبو بكر وعمر وأنعما » . فقال عمر : أشاهِدٌ أنت لي يا علي بالجنة ؟ قال : نعم . فالتفت عمر إلى الحسن وقال : وأنت يا حسن فاشهد على أبيك أن

---

(١) « كنز العمال » للهندي ، الحديث رقم (٣٦١٤٥) . وعزاه إلى خيثمة واللالكائي وابن منده في تاريخ أصفهان .

(٢) « السنة » لابن أبي عاصم ٢/ ٥٦٩ .

(٣) « السنة » لابن أبي عاصم ٢/ ٥٦٩ ، والحديث عنده بروايات كثيرة في باب (ما روي عن علي من تفضيله أبي بكر وعمر) ، وهو أيضاً عند ابن عساكر ، انظر « كنز العمال » للهندي ، الحديث رقم (٣٦٠٨٤) .

رسول الله ﷺ قال : « إن عمر من أهل الجنة »[١] .

وجاء مدح عمر رضي الله عنه على لسان عليٍ كرم الله وجهه في خطبة له حيث قال : قوَّم الأوَد ، وداوى العمد ، خلَّف الفتنة ، وأقام السنة ، ذهب نقي الثوب ، قليل العيب ، أصاب خيرها ، وسبق شرها ، أدى إلى الله طاعته ، واتقاه بحقه[٢] .

وأخرج ابن عساكر عن أبي إسحاق قال : قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن عثمان في النار . قال : ومن أين علمت ؟ قال : لأنّه أحدث أحداثاً . فقال له علي : أتراك لو كانت لك بنتٌ أكنت تزوجها حتى تستشير ؟ قال : لا . قال : أفرأيك من هو خير مِنْ رأي رسول الله ﷺ لابنتيه ؟! أخبرني عن النبي ﷺ أكان إذا أراد أمراً يستخير الله أو لا يستخيره ؟ قال : لا ، بل كان يستخيره . قال : أفكان الله يَخير له أم لا ؟ قال : بل يخير له . قال : فأخبرني عن رسول الله ﷺ ، اختار الله له في تزويجه عثمان أم لم يختر له ؟! قم فوالله لقد تجردتُ لك لأضربَ عنقكَ فأبى الله ذلك ، أما والله لو قلتَ غير ذلك لضربت عنقك[٣] .

ومما ورد عن علي رضي الله عنه أيضاً في الثناء على أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ما رواه أبو جحيفة قال : خطبنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه على منبر الكوفة فقال : « ألا إنَّ خير الناس

---

(١) « كنز العمال » للهندي ، الحديث رقم (٣٦٠٨٤) ، وعزاه إلى ابن عساكر .
(٢) « نهج البلاغة » ٢/ ٢٢٢ .
(٣) « كنز العمال » للهندي ، الحديث رقم (٣٦٢٤٧) ، وعزاه إلى ابن عساكر .

بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ولو شئت أن أخبركم بثالث لأخبرتكم » ، قال : فنزل عن المنبر وهو يقول : « عثمان ، عثمان » .

وعن عمرو بن حريث قال : سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : خير الناس بعد رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر وعثمان[١] .

وعن شريح القاضي قال : سمعتُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول على المنبر : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم أنا[٢] .

وروى سلام بن أبي مطيع عن أيوب السختياني عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : لما طُعِنَ عمر بن الخطاب بعث إلى حلقةٍ من أهل بدر كانوا يجلسون بين القبر والمنبر ، فقال : يقول لكم عمر : أنشدكم الله أكان ذلك عن رضا ؟ فتلكَّأ القوم ، فقام علي رضي الله عنه فقال : ودِدنا أنَّا زدنا في عمره من أعمارنا[٣] .

ومن شواهد ذلك في كتب الشيعة القديمة ما جاء في رسالة من علي إلى معاوية نقلها المؤرخ الشيعي نصر بن مزاحم المنقري ٢١٢هـ في كتابه « وقعة صفين » جاء فيها : « . . . وذكرتَ أن الله اجتبى له من المسلمين أعواناً أيده الله بهم ، فكانوا في منازلهم عنده على قدر

(١) « مختصر تاريخ دمشق » لابن عساكر ، ١٦/ ١٤١ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) « حلية الأولياء » لأبي نعيم ، ٣/ ١٩٩ .

فضائلهم في الإسلام ، فكان أفضلهم وأنصحهم لله ورسوله الخليفة وخليفة الخليفة ، ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم ، وإن المصاب بهما لجرح في الإسلام شديد ، رحمهما الله وجزاهما بأحسن الجزاء. . . »[١] .

ورأينا موقف الحسن رضي الله عنه ، ودفاعه عن عثمان رضي الله عنه يوم الدار ، وما قاله يوم الصلح مع معاوية ، والرؤيا التي رآها .

وبذلك ترى الحقيقة بارزة للعيان ، مشرقة كالشمس لا لبس فيها ، وهي أنه على الرغم مما جرى بين الخلفاء الأربعة من خلاف حول بعض الأمور إلا أن هذا الخلاف لم يدفع أياً منهم لاتخاذ موقف عدائي من الآخر ، أو إلى الانتقاص من الآخر بشكل من الأشكال .

❊ ❊ ❊

(١) (وقعة صفين) ، نصر بن مزاحم ، ت : عبد السلام هارون ، نشر مكتبة آية الله النجفي المرعشي ، قم ، ص٨٩ ، وانظر كتاب (حل الاختلاف بين الشيعة والسنة في مسألة الإمامة) ، مصطفى حسيني طباطبائي ، ترجمة : سعد رستم ، صدر عن دار الأوائل بدمشق سنة ٢٠٠٢م .

المطلب الثالث

بعض ماورد عن أئمة آل البيت في الثناء على الصحابة ، وردع من ذمهم

وقد روي عن زيد بن علي رضي الله عنه الكثير في فضائل الشيخين رضي الله عنه وعنهم .

جاء إلى الإمام علي بن الحسين رضي الله عنه نفرٌ من أهل العراق ، فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان ، وأساؤوا إليهم ، وهم يحسبون أنهم بذلك يستميلون قلب الإمام ! فلما فرغوا من كلامهم قال لهم : ألا تخبروني من أنتم ؟ أنتم المهاجرون الأولون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ؟[1] . قالوا : لا ! قال : فأنتم الذين تبوَّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ؟ فقالوا : لا . فقال : وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] .

﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] . أخرجوا عني .

وكان الإمام الباقر يستشهد بفعل أبي بكر رضي الله عنه ، فعن عروة بن عبد الله بن الزبير قال : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف . قال : لا بأس به ، وقد حلّى أبو بكر الصدّيق سيفه . فقال عروة : أتقول عن أبي بكر : الصِّدّيق ؟! قال : فوَثَبَ وَثْبَةً واستقبل القبلة ، وقال : نِعمَ الصِّدِّيقُ ، نِعمَ الصِّدِّيقُ ، من لم يقل الصِّدِّيق ، فلا صدّق الله له قولاً في الدنيا ولا في الآخرة[١] .

والروايات عن الإمام جعفر الصادق في الثناء على الشيخين بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، منها ما روي عن زهير بن معاوية قال : قال أبي لجعفر بن محمد : إن لي جاراً يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر ! فقال جعفر : بَرِأَ اللهُ من جارك . والله إني لأرجو أن ينفعني الله بقرابتي من أبي بكر ، وإني اشتكيت شكاية فأوصيت إلى خالي عبد الرحمن ابن القاسم[٢] .

وعن حنان بن سدير قال : سمعت جعفر بن محمد وقد سئل عن أبي بكر وعمر ، فقال : إنك تسألني عن رجلين قد أكلا من ثمار الجنة[٣] .

وعن محمد بن فضيل عن سالم بن حفصة قال : سألت أبا جعفر وابنه جعفراً عن أبي بكر وعمر ، فقال : يا سالم تولَّهُما ، وابرأ من

(١) « الفصول المهمة في معرفة أحوال الأمة » لابن الصباغ المالكي ، ص٢٠٥ .

(٢) « سير أعلام النبلاء » للذهبي ٦/ ٢٥٨ ، و« تهذيب الكمال » للمزي ٥/ ٨٠ .

(٣) « سير أعلام النبلاء » للذهبي ٦/ ٢٥٦ .

عدوهما ، فإنهما كانا إِمَامَي هدى ، ثم قال جعفر : يا سالم ، أيسُبُّ الرجل جدَّه ؟ أبو بكر جدي ، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوِّهما[١] .

وعن عمرو بن قيس الملائي قال : سمعت جعفر بن محمد يقول : بَرِأَ الله ممَّن تبرأ من أبي بكر ، وعمر[٢] .

وجاءت امرأة إلى أبي عبد الله ـ جعفر الصادق ـ تسأل عن أبي بكر وعمر ، فقال لها : توليهما . فقالت له : فأقول لربي إذا لقيته أنك أمرتني بولايتهما ؟ قال : نعم !

وروي مثل ذلك عن جعفر الصادق مع واصل بن عطاء المعتزلي[٣] .

ومما يدل على محبة آل البيت لأصحاب النبي ﷺ عامة ولأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة خاصة ، أنهم كانوا يُسَمُّون أبناءهم بأسمائهم .

فعن أبي سعيد قال : رأيت غلاماً ما أدري غلام هو أم جارية ، ما رأيت أحسن منه جالساً على جنب علي بن أبي طالب ، فقلت له : من هذا الفتى ؟ فقال : هذا عثمان بن علي سميته بعثمان بن عفان ، وقد سميت عمر بعمر بن الخطاب ، وعباس بعمي العباس رضي الله عنهم[٤] .

---

(١) « سير أعلام النبلاء » للذهبي ٦/ ٢٥٩ ، و« تاريخ الإسلام » للذهبي ٦/ ٤٦ ، وقال الذهبي : هذا إسناد صحيح وسالم وابن فضيل شيعيان .

(٢) « سير أعلام النبلاء » للذهبي ٦/ ٢٦٠ .

(٣) « الروضة من الكافي » للكليني ٨/ ١٦٢ ، الحديث رقم (٣١٩)، و(الكافي) ٥/ ٢٣ .

(٤) « الرياض النضرة » للمحب الطبري ٣/ ٤٩٩ ، وانظر : « الفصول المهمة في معرفة =

ومن أولاد الحسن رضي الله عنه : « عمر » وأمه أم ولد ، و« طلحة » وأمه أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه[(١)] .

ومن أولاد الإمام زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه « عمر » ، ومِنْ كُناه رضي الله عنه « أبو بكر »[(٢)] .

وتزوج الإمام الباقر رضي الله عنه من أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، ومنها وُلِدَ الإمامُ جعفر الصادق[(٣)] .

ومن أولاد الإمام موسى الكاظم ، والإمام الرضا ، والإمام علي الهادي « عائشة »[(٤)] .

وكان الإمام جعفر الصادق يفتخر بانتسابه إلى أبي بكر رضي الله عنه ويقول : ولدني أبو بكر مرتين ، وذلك لأن والدته هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وأم والدته هي أسماء بنت عبد الرحمن .

❊ ❊ ❊

= أحوال الأمة » لابن الصباغ المالكي ، ص١٣٤ .

(١) « الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة » لابن الصباغ المالكي ، ص١٥٧ ، و« الإرشاد » للمفيد ص١٩٤ .

(٢) « الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة » لابن الصباغ المالكي ، ص١٩٧ .

(٣) « الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة » لابن الصباغ المالكي ، ص٢٠٩ .

(٤) « الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة » لابن الصباغ المالكي ، ص٢٣١ ، ٢٥٢ ، ٢٧١ .

المطلب الرابع
مواقف فقهاء السنة وأقوالهم في الثناء على أئمة آل البيت

أولاً : تأييد الإمام الأعظم أبي حنيفة لزيد بن علي رضي الله عنهم :

كان أبو حنيفة مؤيداً لزيد بن علي وداعماً له بالقول والمال ،فعن عبد الله بن مروان بن معاوية قال : سمعت محمد بن جعفر بن محمد في دار الإمارة يقول : رحم الله أبا حنيفة ؛ لقد تحقَّقتْ مودتُه لنا في نصرته زيد بن علي .

وعن الفضل بن الزبير قال : قال أبو حنيفة : من يأتي زيداً في هذا الشأن من فقهاء الناس ؟ قال : قلت : سليمة بن كهل ، ويزيد بن أبي زياد ، وهارون بن سعد ، وهاشم بن البريد ، وأبو هاشم الرماني ، والحجاج بن دينار وغيرهم .فقال لي أبو حنيفة : قل لزيد : لك عندي معونة وقوة على جهادك فاستعن بها أنت وأصحابك في الخيل والسلاح[١] . ثم بعث ذلك معي إلى زيد فأخذه زيد وجاهر أبو حنيفة بتأييده للإمام زيد[٢]، وأيد أبو حنيفة إبراهيم بن عبد الله بن

---

(١) « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني ، ص١٤٠ .

(٢) « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني ، ص١٤١ ، و(الكامل) لابن الأثير ، ٥/ سنة ١٢٢_١٢٥ .

الحسن ـ أخا محمد النفس الزكية لما خرج من البصرة ، وجاهر في أمره وأمَرَ النَّاس بالخروج معه[١] ، وكان مما كتبه أبو حنيفة لإبراهيم بن عبد الله لما توجه لقتال عيسى بن موسى العباسي أن قال : إذا أظفرك الله بعيسى وأصحابه ، فلا تسرْ فيهم سيرة أبيك علي في أهل الجمل ؛ فإنه لم يقتل المنهزم ، ولم يأخذ الأموال ، ولم يتبع مدبراً ، ولم يُذَفِّق على جريح ؛ لأن القوم لم يكن لهم فئة[٢] .

وعوقب محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ، ومُنع القضاء لموالاته ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن[٣] .

ثانياً : تأييد الإمام مالك للإمام محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض ، واحترامه لآل بيت النبي ﷺ ورضي الله عنهم :

أيَّد الإمام مالك خروج محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية ، ودعا الناس إلى مؤازرته ، فعن جهم بن جعفر الحكمي قال : أخبرني غير واحد أن مالك بن أنس استُفْتي في الخروج مع محمد النفس الزكية ابن عبد الله بن الحسن المثنى ، فقيل له : إنَّ في أعناقنا بيعةً لأبي جعفر المنصور فقال : إنما بايعتم مكرهين ، وليس على مُكرَه يمين ، فأسرع الناس إلى محمد بن عبد الله[٤] .

---

(١) « العبر في خبر من عبر » للذهبي ١/١٠٧ ، و« مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني ، ص٣١٤ ، وانظر : « مناقب أبي حنيفة » لابن البزازي ، ٢/٢٢ .

(٢) « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني ص٣١٥ .

(٣) « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني ص٤٠١ .

(٤) « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني ،ص٢٤٩ ، و(تاريخ الطبري) ٩/٢٠٦ .

وكان مالك يعظِّم عبد الله المحض بن الحسن ، وسئل مرة عن سدل اليدين في الصلاة ، فقال : رأيت من يُرضَى بفعله عبدَ الله بن الحسن يفعله[١] .

وكذلك كان يعظم ولده يحيى ، فعن إسماعيل بن موسى الفزاري قال : رأيت يحيى بن عبد الله بن الحسن جاء إلى مالك ابن أنس بالمدينة ، فقام له مالك عن مجلسه وأجلسه أمامه[٢] .

ثالثاً : محبة الإمام الشافعي لآل البيت وأشعاره في ذلك :

اشتهر عن الإمام الشافعي محبته لآل البيت وولاؤه لهم ، حتى اتُّهم بالتشيُّع في اليمن ، وأُعيد إلى بغداد ، وسارت الركبان بقصائده التي يُعلن فيها محبته لآل البيت ومنها قوله :

أنا الشِّيعيُّ في ديني وأصلي   بمكة ثم داري عسقليه
بأطيب مولد وأعز فخر   وأحسن مذهب يسمو البريه

وقوله :

يا راكباً قف بالمحصب من منى   واهتف بقاعد خيفها والناهض
سَحَرَاً إذا فاض الحجيج إلى منى   فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رَفْضاً حبُّ آلِ محمدٍ   فليشهد الثقلان أني رافضي

وقوله :

إذا في مجلس ذكروا علياً   وسبطيه وفاطمة الزكيه

(١) « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني ، ص١٧١ .
(٢) « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني ، ص٣٨٩ .

يقال : تجاوزوا يا قوم عنه فهذا من حديث الرافضيه
برئت إلى المهيمن من أناسٍ يرون الرفض حُبَّ الفاطميه

وقوله :

يا آل بيت رسول الله حُبُّكمُ فرضٌ من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الذكر أنكمُ من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

وقوله :

آل النبي ذريعتي وَهُمُ إليه وسيلتي
أرجو بأن أُعطَى غداً بيدي اليمين صحيفتي[١]

وقيل إن الإمام الشافعي بايع ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن المثنى[٢] .

وسئل مرة عن عليٍ فقال : ما أقول في رجل أخفت أولياؤه فضائله خوفاً ، وأخفى أعداؤه حسداً ، وشاع له من هذين ما ملأ الخافقين !

وقال ابن النديم في (الفهرست) :

وكان الشافعي شديداً في محبة آل البيت وموالاتهم ذَكر له رجلٌ يوماً مسألةً فأجاب الشافعي فيها ، فقال له الرجل : خالفت في ذلك علي بن أبي طالب . فقال له الشافعي : أثبت لي هذا عن علي بن

(١) « مناقب الشافعي » للفخر الرازي ص٥١ ، وانظر « ديوان الإمام الشافعي » جمع وتحقيق محمد سالم البواب .
(٢) « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلي ٣٢٨ .

أبي طالب حتى أضع خدي على التراب ، وأقول قد أخطأت[١] .

وخلاصة القول في ذلك لقد أعلن الشافعي محبته لعلي وآل بيته رضي الله عنهم حتى لحقه من ذلك أشد الإيذاء من الأمراء والعلماء ، وهو ثابت في موقفه هذا ، يقول الفخر الرازي في كتابه (مناقب الشافعي) :

أما دعوى الرَّفْض فباطلة لأنه قد اشتهر عنه أنه كان يقول بإمامة الخلفاء الراشدين ، وكان كثير الطعن في الروافض . قال يونس بن عبد الأعلى : سمعت الشافعي يقول : أجيز شهادة أهل الأهواء كلهم إلا الرافضة فإنهم يشهدون بعضهم لبعض . وقال يونس : كان الشافعي يعيب الروافض ويقول : هم شر عصابة .

وأما مدحه لعلي وحبه والميل إليه فذلك لا يوجب القدح ، بل يوجب أعظم أنواع المدح .

وأما طعن يحيى بن معين ، فالجواب عنه ما روى البيهقي عن أبي داود السجستاني أنه قيل لأحمد بن حنبل : إن يحيى بن معين ينسب الشافعي إلى الشيعة ! فقال أحمد : كيف عرفت ذلك ؟فقال يحيى : نظرت في قتال أهل البغي فرأيته قد احتج من أوله إلى آخره بعلي بن أبي طالب .فقال أحمد : يا عجباً لك ! فيمن كان يحتج الشافعي في قتال أهل البغي ، فإنَّ أوَّلَ من ابتلي من هذه الأمة بقتال أهل البغي هو علي بن أبي طالب .

---

(١) « الفهرست » لابن النديم ١/ ٢٩٥ .

ولما سمع الشافعي أن بعض الناس رماه بالتشيع أنشد وقال :

إذا نحـن فضلنـا عليـاً فـإننـا روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضـل أبـي بكـر إذا مـا ذكـرتـه رُميتُ بنَصَبٍ عند ذكراي للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما أدين به حتى أُوسَّد في الرمل[(١)]

ونظم الإمام الشافعي أبياتاً يبين فيها عقيدته في الصحابة ، ومحبته واحترامه وتوليه لهم جميعاً ، واعتقاده بخصوصية علي كرم الله وجهه فقال :

شهـدتُ بـأنَّ الله لا ربَّ غيـره وأشهد أن البعث حقٌ ، وأُخلِصُ
وأنَّ عُـرى الإيمـان قـولٌ مبيَّـنٌ وفعلٌ زكيٌ قد يزيد وينقص
وأن « أبـا بكـرٍ » خليفـةُ ربِّـه وكان «أبو حفصٍ» على الخير يَحْرِصُ
وأُشهد ربي أن « عثمان » فاضل وأن « علياً » فضله متخصِّصُ
أئمـة قـومٍ يُهتـدى بهـداهـم لَحَىٰ اللهُ من إيَّاهمُ يتنقَّصُ[(٢)]

رابعاً : محبة الإمام أحمد بن حنبل لآل بيت النبوة :

وسئل الإمام أحمد يوماً عن أفضل أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان . فقيل له : فعلي ؟قال : سألتموني عن أصحابه ، وعليٌ نفس محمد !!وفي رواية : علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يُقاس بهم أحدٌ[(٣)] .

---

(١) « مناقب الشافعي » للرازي ٥١ـ٥٢ .
(٢) « ديوان الإمام الشافعي » تحقيق البواب ص ٤٨ .
(٣) « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلى ٢/ ١٢٠ .

وقال أحمد بن منصور : كنا عند أحمد بن حنبل ، فقال رجل : يا أبا عبد الله ما تقول في هذا الحديث الذي يروي أن علياً قال : « أنا قسيم النار »[١] . فقال أحمد : وما تنكرون من هذا ؟ أليس روينا أن النبي ﷺ قال لعلي : « لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يُبغضُك إلا منافق »[٢] . فأين المؤمن ؟ قالوا : في الجنة . قال : وأين المنافق ؟قالوا : في النار .فقال أحمد : فعليٌ قسيم النار[٣] .

رابعاً : تأكيد فقهاء السنة أن علياً رضي الله عنه أولى بالحق مِنْ كلِّ مَنْ قاتله :

وينبغي التنبيه إلى أمر مهم وهو أنَّ « أهل السنة » يرون أن الحق كان مع علي كرم الله وجهه في كل معاركه ، وأنَّ كلَّ من قاتله كان باغياً ، وأنه كان الخليفة الشرعي منذ مقتل عثمان وبيعة علي رضي الله عنه[٤] .

أما عائشة وطلحة والزبير فقد اعترفوا بخطئهم ، وندموا على فعلهم ، وأما معاوية وعمرو فيشهد لعلي بالحق في قتاله معهم قولُ

(١) أخرجه الديلمي في (الفردوس)٣/ ٦٤ ، الحديث رقم (٦٤) ، وأورده الخلال في كتاب (السنة) تصحيحه ٣/ ٥١٠ .

(٢) الحديث بهذا اللفظ أخرجه الإمام أحمد والطبراني بأسانيد كثيرة ، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه [كتاب الإيمان] ، الحديث رقم(٧٨) عن علي رضي الله عنه قال : (لقد عهد إليَّ النبي الأمي ، أنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) .

(٣) « المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد » لابن مفلح ٢/ ٤٩٣ .

(٤) انظر « الفصل في الملل والنحل » لابن حزم ٤/ ١١٩ .

النبي ﷺ لعمار بن ياسر رضي الله عنه : « تقتلك الفئة الباغية »(١) ، وقد : قُتل عمار وهو يقاتل مع علي .

وقولُ رسول الله ﷺ في الخوارج الذين قاتلوا علياً رضي الله عنه : « تَمْرُقُ مارقةٌ عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق »(٢) .

قال الإمام النووي : هذه الروايات صريحة في أن علياً رضي الله عنه كان هو المصيب المُحِقُّ ، والطائفة الأخرى « أصحاب معاوية » كانوا بغاة متأوِّلين ، وفيه التصريح بأن الطائفتين مؤمنتين لا تخرجان بالقتال عن الإيمان ، ولا يُفسَّقون(٣) .

وقال الإمام أبو حنيفة : ما قاتل أحدٌ علياً رضي الله عنه إلا وعليٌّ أولى بالحق منه ، ولولا ما سار عليٌّ فيهم ما علم أحد كيف السيرة في المسلمين ، وهو الذي علَّم المسلمين أحكام قتال أهل البغي(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، برقم : (١٠٦٥) ، يقول ابن كثير في البداية والنهاية : هذا الحديث من دلائل النبوة إذ قد وقع الأمر طبق ما أخبر به ، **وفيه الحكم بإسلام الطائفتين ، وأن أدنى الطائفتين إلى الحق ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن علياً هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً ، ولكن علياً هو الإمام** . انظر : (البداية والنهاية) لابن كثير ٥/ ٣٨٢ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، برقم : (١٠٦٥) . وأخرجه أبو داود في سننه ، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة، برقم : (٤٦٦٧).

(٣) « شرح صحيح مسلم » للنووي ٧/ ١٦٧ .

(٤) « مناقب أبي حنيفة » للمكي ص٣٤٢ ، و(مناقب أبي حنيفة) للكردري ص٣٩٤ ، ٣٤٥ .

واتهم يحيى بن معين الإمام الشافعي بالتشيع لأنه استشهد في كتابه « السير » على أحكام قتال البغاة بفعل علي مع من قاتله في الجمل وصفين .

* * *

الخاتمة

وفي الختام لا بد أن نختم بكلمات من نور ، وأن نفهم مقاصد الرسالة التي وضعها علماء الأمة الأعلام رضي الله عنهم ، وهم يحذرون من التكفير ، ويمكنون صرح الأمة الواحدة .

يقول الإمام الصادق فيما يرويه الكليني في « أصول الكافي » : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، والتصديق برسول الله ﷺ ، به حقنت الدماء ، وعليه جرت المناكح والمواريث ، وعلى ظاهره جماعةُ الناس .

ويقول الإمام الغزالي في « الاقتصاد في الاعتقاد » : والذي ينبغي أن يميل المحصِّل إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً ، فإن استباحة الأموال والدماء من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » خطأ ، والخطأُ في ترك تكفير ألف كافر في الحياة أهونُ من الخطأ في سفك محجمة من دم امرىء مسلم ، وقد قال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله »[1] .

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ ، برقم : (٢٥) .

أهمية المذاهب الفقهية
في رعاية الوحدة الإسلامية

المحتوى

مقدمة البحث ٣٣١
الوحدة الإنسانية أهم الأهداف التي جاء الإسلام من أجلها : .. ٣٣٣
معنى المذاهب الفقهية : ٣٣٧
عوامل نشأة المذاهب الفقهية : ٣٣٩
تاريخ نشأة المذاهب الفقهية : ٣٤٣
الاختلافات الفقهية كانت ولا تزال اختلافات تعاونية : ٣٤٦
الآفات التي لحقت بالمذاهب الفقهية : ٣٤٨
أولاً : أثر الاختلافات الاعتقادية والسياسية على المذاهب الفقهية : ٣٤٨
ثانياً : إخضاع فن الرواية وعلم الجرح والتعديل لشرط العصمة : ٣٥٦
ثالثاً : تعصب أتباع المذاهب لمذاهبهم : ٣٥٧
وأخيراً : كيف نعالج هذه الآفات.. ؟ ٣٦١
نقاط أربع لعلها تشكل الأمة الإسلامية الواحدة : ٣٦٣

مقدمة البحث

هذا البحث[١] يتضمن بيان مدى أهمية المذاهب الفقهية في حماية الوحدة الإسلامية ، وذلك على النقيض مما يتصوره بعض الناس .

كما يتضمن بيان الآفات الخطيرة التي لحقت المذاهب الفقهية في أزمنة سابقة ، فعاقتها عن مواصلة دورها الإيجابي في رعاية هذه الوحدة ، وأهمَّ ما يجب على المسلمين فعله إبعاد هذه الآفات عن حظيرة الاجتهاد الفقهي خصوصاً والإسلامي عموماً .

وتتسلسل نقاط هذا البحث طبق الترتيب التالي :

١ـ مقدمة في بيان أن الوحدة الإنسانية هي أهم الأهداف التي تعبَّد الله عبادَه بالإسلام من أجلها .

٢ـ معنى المذاهب الفقهية .

٣ـ عوامل نشأة المذاهب الفقهية .

٤ـ تاريخ نشأة المذاهب الفقهية .

٥ـ الاختلافات الفقهية كانت ولا تزال اختلافات تعاونية .

٦ـ الآفات التي لحقت بالمذاهب وهي :

---

(١) هذا البحث منقول كاملاً من كتاب « قضايا ساخنة » ـ طباعة دار الفقيه ـ للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى .

أ ـ تسليط قدر كبير من آثار المذاهب الاعتقادية والسياسية عليها .

ب ـ إخضاع ضوابط الرواية وفن الجرح والتعديل لتيار بعض المذاهب الاعتقادية والسياسية .

ث ـ تعصب كثير من أتباع المذاهب الفقهية لمذاهبهم .

٧ـ كيف نعالج هذه الآفات ؟ .

* * *

الوحدة الإنسانية أهم الأهداف التي جاء الإسلام من أجلها

لا نزاع في أن وحدة الأسرة الإنسانية ، والقضاء على عوامل التشرذم والتفرق فيها من أهم الأهداف التي جاء الإسلام لتحقيقها ، على صعيد الحياة الدنيوية هذه .

ولعل من أبرز ما يجسّد هذا الهدف ويؤكده ، كلمة « الحبل » التي عبر بها القرآن عن الاسلام ، ثمّ أمرُه الناس جميعاً بالاعتصام بهذا الحبل الذي يمنعهم من التفرق بمقدار ما يمنعهم في الوقت ذاته من الضياع والهلاك ، وذلك في قوله عز وجل :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

والقرآن مليء بعد ذلك بالآيات التي تنهى عن التفرق والشقاق ، وتوصي بالوحدة والاتفاق وتهيب بالناس ، كل الناس ، أن لا يكونوا كالجماعات والأقوام الذين خلوا من قبلهم ، إذ أعرضوا عن السبيل العريض التي يوحدهم ويجمع شملهم ، واستعاضوا عنها بسبل متعرجة شتى ، تفرقوا في متاهاتها ، حيث أسلمتهم بدورها إلى أودية الضياع .

ألم يقل : ﴿ . . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

أولم يقل أيضاً : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

ولكن ما هو المعنى المحدد للوحدة التي جاء الإسلام لتحقيقها ثم لحمايتها ؟

إن من المهم جداً أن نطرح هذا السؤال ، ولعل من أهم ما يُحوجنا إلى طرحه ، أن الناس كانوا ولا يزالون ، على الرغم من الحقيقة الإنسانية الواحدة الجامعة لهم ، مختلفين في كثير من مشاربهم وعاداتهم ، وأساليب تعاملهم مع الحياة ومرافقها ، بل كانوا ، ولا يزالون مختلفين في لغاتهم وألوانهم وانتماءاتهم العرقية والقومية .

من أجل هذا ، كان لا بّد من أن نتبيّن الحجم المحدد المطلوب لهذه الوحدة التي جاء الإسلام لإقامتها ، ثم لحمايتها وتغذيتها ، بحيث تدرك أن الخطب فيما وراء هذا الحجم يسير ، وأن الوحدة إذا تم نسيجها داخل حدود هذا الحجم ، عاد الاختلاف فيما وراء ذلك صوراً من التعدد الهامشي لا ضرر فيها ولا خطر منها .

إن الوحدة المطلوبة هنا ، هي وحدة الرؤية العقلية إلى الكون والإنسان والحياة ، بحيث يصدر الناس جميعاً من عقيدة واحدة بحقيقة الإنسان والحياة التي يتمتع بها ، وبالمكونات التي من حوله ، وليس المعني بحبل الله في الآية السابق ذكرها إلا هذه العقيدة العقلية الشاملة ، أما إضافة الحبل إلى الله ، فلأن الذي عرّفنا بهذه الحقائق الثلاث على وجهها الصحيح إنما هو الله عز وجل ، بل لا يملك أحد

غير الله عز وجل الذي تفرد بخلق كل شيء ، أن يُعرفنا بها ، ويبصرنا بهويتها .

ومن المعلوم أن الناس إن صدروا عن عقيدة واحدة في فهم هذه العناصر الثلاثة الجامعة لمعنى الكون ، لا بد أن يتفقوا على أصول واحدة في التعامل مع الكون على أساسها ، وهذه هي التي تشكل بدورها نسيج وحدتهم وتضامنهم .

ولا شك أن من هذه الأصول الأخوة الإنسانية ، وعبودية الإنسان لله ووحدة المبدأ والمصير في حياة الإنسان .

فإذا اجتمع شمل الأسرة الإنسانية تحت مظلة هذه الأصول ، فمن حق أفرادها بل من مقتضيات الفطرة في حياتهم أن تتلوّن منهم الخبرات والعادات وأساليب الحياة تماماً كما تتفاوت منهم القدرات ، وتتعدد الألوان ، وتتنوع اللغات .

ولولا هذا التلون والتعدد لما وجدت فيهم عوامل التساند والتعاون التي هي بدورها الغذاء الذي لا بّد منه لتنمية واقع الوحدة والتآلف والتضامن .

ومن هنا ندرك أن كثيراً من مظاهر الاختلاف والتعددية في حياة المجتمع الإنساني إن هو إلاّ روافد وعوامل أساسية لتعميق معنى الوحدة والتضامن بين أفراده .

تُرى هل تُعَدُّ المذاهب الفقهية التي نراها اليوم في المجتمعات الإسلامية ، واحدة من هذه المظاهر التي تغذي في الحقيقة والمآل نسيج الوحدة الإسلامية ، في حياة المسلمين ؟

ولكي يأتي الجواب مدروساً ومدعوماً بالمنطق ، يجب أن نعلم أولاً معنى المذاهب الفقهية ، وعوامل نشأتها ، ومن ثم تاريخ نشأة هذه المذاهب .

فهذه ثلاث نقاط يجب أن نمهد بها للإجابة عن هذا السؤال .

* * *

معنى المذاهب الفقهية

المذاهب الفقهية ، حصيلة اختلاف الفقهاء في مسائل اجتهادية غير قطعية الثبوت أو الدلالة ، في نطاق الأحكام السلوكية .

وهذا يعني أن في مصدري الكتاب والسنة ، ما هو غير واضح الدلالة على المعنى المطلوب ، بل يحمل في طيه أكثر من احتمال واحد . كما أن في السنة ما هو غير قطعي الثبوت ، بل تطوف به احتمالات الصحة والحسن والضعف .

ثم إن هذا المعنى يوضح أن هذه الخلافات الفقهية التي هي مادة المذاهب الفقهية لا علاقة لها ـ من قريب أو بعيد ـ بالأصول الاعتقادية المتعلقة بحقيقة الكون والإنسان والحياة ، أو بما يتفرع عن معرفة هذه الحقائق الثلاث ، من سلسلة المعتقدات الإسلامية التي يتكون من مجموعها معنى الإيمان والإسلام .

نعم ، إن لها علاقة بهذه الأصول الاعتقادية ، ولكنها لا تزيد على أن تكون تحقيقاً لمناطاتها ، واستظهاراً لكيفية تطبيقاتها .

وبيان ذلك أن اليقين بوجوب الخضوع للشريعة الإسلامية من أصول المعتقدات الدينية التي لا خلاف فيها . أما تحديد الشريعة وإبرازها من خلال نصوصها ومسائلها الجزئية ، فهو الفقه الذي قد تتسرب إلى بعض مسائله عوامل الخلاف والاحتمال . .

وعلى سبيل المثال : إن اليقين بوجوب تجنب البدع واحد من أصول المعتقدات الدينية التي لا خلاف فيها ، أما تحديد الجزئيات التي ينطبق أو لا ينطبق عليها حدّ البدعة ، فداخل في تحقيق المناط ، ومن ثم ففيها ما قد يكون انطباق معنى البدعة عليه فيه شيء من الارتياب والاحتمال .

ولكن ، لماذا كان في النصوص الفقهية في القرآن والسنة ، ما قد يحمل أكثر من دلالة واحدة ، ومن ثم كان فيه مجال واسع للاجتهاد والاختلاف .

الحكمة من ذلك أن يأتي مجموع الشرائع السلوكية ذا وجوه وطرق متعددة في استيعاب حاجات الناس ومصالحهم مهما تنوعت هذه الحاجات والمصالح ، ومهما تطورت مع تطور الأزمان ، وقد غدت هذه الحكمة واضحة جلية من كثرة ما تناولتها الدراسات والأبحاث المتنوعة .

* * *

عوامل نشأة المذاهب الفقهية

يتضح مما ذكرناه في تعريف المذاهب الفقهية أن العامل الأساسي لها ، وهو اختلاف الفقهاء ، ينبغي أن يكون موجوداً في حياة المسلمين الفقهية منذ عصر النبوة ، وهذا هو الواقع المعروف فعلاً ، وإليك بيان ذلك :

لقد كان الوحي هو الحاجز الوحيد الذي يمنع تسرب الخلاف إلى الصحابة في استنباط الأحكام الفقهية من بعض النصوص القرآنية ، أو الأحاديث النبوية ، حتى إذا صادف أن مرت بهم ظروف أحوجتهم إلى معرفة حكم من الأحكام الشرعية التي لم يتضح وجه الدلالة عليها بيقين ، وحيل بينهم وبين معرفته تلقياً عن رسول الله ﷺ ، لجؤوا إلى إعمال النظر والاجتهاد في فهمه ، حسب إمكاناتهم وقدراتهم العلمية ، فربما اتفقوا وربما اختلفوا في الاجتهاد والفهم ، والاختلاف هو الغالب .

وقد كان لا بدّ أن يعرضوا اجتهاداتهم على رسول الله ﷺ ، بعد انقشاع تلك الظروف عنهم ، فلم نسمع ولم نعلم قط أن رسول الله ﷺ عنّفهم أو عاتبهم على ذلك الاجتهاد والاختلاف ، بل سكت سكوت المؤيد لسعيهم الذي بادروا إليه ، بقطع النظر عن تأييده أو عدم تأييده للنتائج التي انتهوا إليها .

ولعلنا جميعاً نذكر أن من أبرز الشواهد الواقعية على ما نقول ، حِيْرَةُ نَفَرٍ من الصحابة في فهم المعنى المراد من قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه ، يوم بني قريظة : « ألا لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة » ، إذ كانت الشمس أوشكت على المغيب ، وهم لم يُصَلُّوا العصر بعد ، والطريق بينهم وبين بني قريظة ما يزال بعيداً .

ترى أيطلب منهم رسول الله ﷺ في هذه الحال أن يتركوا صلاة العصر ولو خرج وقتها حتى يصلوا إلى بني قريظة فَيُصَلُّوهَا هناك كما أمرهم بذلك ، أم المطلوب منهم أن يوجَدوا في بني قريظة خلال وقت العصر ، بحيث إذا حيل بينهم وبين هذا المطلوب لم يكن من فرق عندئذ بين أن يُصَلُّوا العصر في أي الأماكن شاؤوا ، ولا شك أن المطلوب عندئذ هو الرجوع إلى الأصل وأداء صلاة العصر في ميقاتها المشروع ؟

إن المعنيين ـ كما نلاحظ ـ واردان ومحتملان ، والمصير الوحيد الذي يملكه أولئك النفر الذين تخلفوا في الطريق هو الاجتهاد في بلوغ المعنى المطلوب وتحقيقه .

وقد أوقعهم ذلك المصير ـ كما نعلم ـ في اختلاف فيما بينهم ، فمنهم من ظهرت له دلائل المعنى الأول ، ومنهم من تجلت له دلائل المعنى الثاني ، ولم يكن من سبيل إلا أن يتحمل كل من الفريقين مسؤولية اجتهاده ، وما سكنت إليه نفسه . حتى إذا وصلوا إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بشأنهم ، سكت سكوت المؤيد للفريقين ، أي

للذين قاموا فصلوا العصر قضاء ، وللذين عاجلوا فوات الوقت فصلوها في طريقهم إليه .

وعندما رأى أحد الصحابة ، وقد وصل متأخراً إلى المسجد ، أن النبي ﷺ يوشك أن يركع ، أسرع يركض في المسجد حتى لحق رسول الله ﷺ في الركوع ، اجتهاداً منه بأن ذلك هو الخير . ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة وعلم بشأنه ، نظر إليه قائلاً : « زادك الله حرصاً ولا تعد » .

فقد أُعجب النبي ﷺ باجتهاده ، وشكر له حرصه على أن لا تفوته الركعة مع رسول الله ﷺ ، غير أنه لفت نظره إلى ما هو المفضل في علم الله وهديه ، وهو التمهل والمشي الهوينى في المسجد . ولولا وجود رسول الله ﷺ والوحي الذي كان مؤيّداً به ، لامتّد من اجتهاد ذلك الصحابي مذهب مشروع في اختيار ما هو الأفضل في مثل هذه الحال .

إذن فالعامل الأساسي في نشأة المذاهب ، هو اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية المستنبطة من الأدلة المحتملة . وقد رأى رسول الله ﷺ هذا ولا يعارض تأييده له أن النبي ﷺ كان ينبه الصحابي المجتهد إلى الرأي الصواب أو الأصوب ، كقوله لذلك الصحابي : « زادك الله حرصاً ولا تعد » . وكقوله لعمار وقد أجنب في سرية فلم يجد ماء ، فتمعك بالتراب ، « إنما كان يكفيك أن تضرب بيدك الأرض ، ثم تنفخ ، ثم تمسح بها وجهك وكفيك » .

فقد كان النبي ﷺ يجمع بموقفه ذاك ، بين تدريبه أصحابه على

الاجتهاد في فهم ما غمض من الأحكام كلما اقتضت الحاجة ، وتحويلهم إلى الحكم الصحيح ـ باعتباره نبياً مؤيداً بالوحي ـ كلما تنكب أحدهم في اجتهاده عنه .

هذا ، ولم نشأ في هذا البحث المكثف أن نأتي على ذكر جزئيات العوامل المتعلقة بنشأة المذاهب ، مكتفين بينبوع هذه العوامل ومصدرها ، ألا وهو الاحتمال القائم في الأدلة الفقهية الباعث بدوره على اختلاف الفقهاء ، ولا شك أن لهذا الاحتمال أسبابه الجزئية ، غير أنها مطوية في هذا العامل الرئيسي ، ولا غرض لنا في تفصيل القول عنها في هذا الصدد .

* * *

تاريخ نشأة المذاهب الفقهية

يعود تاريخ نشأة المذاهب الفقهية إلى عصر الصحابة ، وهو العصر الذي يلي وفاة رسول الله ﷺ مباشرة .

فقد كان فقهاء الصحابة ـ على الرغم من اتفاقهم في معرفة أكثر الأحكام الفقهية ـ يختلفون في فهم بعض يسير منها . فكانت الآراء التي يختص بها أحدهم تشكل مذهبه الفقهي الذي ينفرد به عن الآخرين . ولا شك أنه لا مدخل لقلّة الآراء أو لكثرتها في تكوين المذهب الفقهي إذ إن حجم المذهب ـ اتساعاً وضيقاً ـ يكون تابعاً لحجم المسائل التي يتكون منها .

فحتى لو لم يكن للفقيه أكثر من رأي اجتهادي واحد في مسألة فقهية واحدة ، فإن انفراده برأيه الخاص في تلك المسألة يجعل له في ذلك بكل جدارة مذهباً .

ومن هنا فقد كان لعبد الله بن عباس رضي الله عنه مذهب خاص به في جملة من المسائل الفقهية ، وكان لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما مذهبه الخاص ، أيضاً في جملة أخرى من المسائل ، وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه مذهبه الخاص به في مثل ذلك. . . وهكذا .

ويعود السبب في عدم بروز مذهب كل من هؤلاء الصحابة ، وعدم ارتباطه باسمه خلال التاريخ ـ كما هو الشأن في مذاهب الأئمة

الأربعة ـ إلى أنّ أياً من مذاهب الصحابة لم يتح له أن يُجمَعَ ، وأن يدوَّن وينسب إلى صاحبه خلال القرون كما قد أتيح لمذاهب الأئمة الأربعة . هذا بالإضافة إلى أن الأنشطة العلمية لأولئك الصحابة إنما تجلت في اجتهادات جزئية متناثرة ، دون أن ينظمها منهج كلي ، إذ لم تكن قد ظهرت الحاجة بعد إلى الاعتماد في الاجتهاد على موازين ومناهج تعصم عن الخطأ ، أما تطور المذاهب الفقهية ، فالبحث في ذلك يطول ، ولسنا هنا بصدد تفصيل القول في ذلك . غير أن أهم ما يجدر لفت النظر إليه ، أن من أهم العوامل التي أدت إلى تطوير المذاهب الفقهية ، تفرقُ الصحابة في خلافة عثمان رضي الله عنه وما بعدها في الأمصار المختلفة ، وهو الأمر الذي طبع تلامذتهم من التابعين بطابع المكان الذي استوطنوا وأقاموا فيه .

وقد كانت مدرسة الرأي في العراق ، ومدرسة الحديث في الحجاز ، أول بل أخطر مظهر من مظاهر هذا التطور الذي جاء نتيجة لهذا العامل الكبير .

غير أن نتائج إيجابية أخرى تلت هذه النتيجة السلبية ، بل كانت ثمرة طيبة لها . من أبرزها هنا ظهور منهج يلتقي عليه الأطراف جميعاً للسير على أساسه في ضبط عملية الاجتهاد الفقهي ، وهو النهج الذي يتمثل في قواعد تفسير النصوص أو ما كان يُسمى بعلم أصول الفقه .

من أهم هذه النتائج الإيجابية أيضاً تلاقي مدرستي الرأي والحديث على طريقة عادلة مُثلى منعت من الوقوع ، الذي كان وشيكاً ، في كلا طرفي الإفراط والتفريط .

ومن النتائج الإيجابية الهامة أيضاً ظهور علم مصطلح الحديث ، وعلم الجرح والتعديل ، والاهتمـام بضبط الرواية وحمايتها من الزيف والدس .

ومن هذه النتائج كثرة الرحلات العلمية في سبيل الفقه والحديث ، وكثرة الحوار والنقاش في المسائل الفقهية ، الأمر الذي ضيق من حجم الخلافات الفقهية وجذب كثيراً من الآراء المتخالفة إلى ساحة الاتفاق .

ففي ظل هذه النتائج ظهرت المذاهب الأربعة ، ومذاهب كثيرة أخرى لم تُكتب لها الشهرة التي كتبت لتلك .

* * *

الاختلافات الفقهية كانت ولا تزال اختلافات تعاونية

الآن ، وقد تم بيان وجيز للنقاط الثلاث التي رأينا أن نمهد بها للإجابة عن السؤال الذي تطارحناه ، نقول :

إننا لا نرتاب ـ على ضوء ما قد ذكرناه الآن ـ في أن نشأة المذاهب الفقهية وتطورها وانتهاءها إلى الحال التي هي عليها الآن ، كل ذلك كان خير حماية للوحدة الإسلامية من التصدع والشقاق .

وقد يبدو غريباً في أذهان بعض الناس أن تكون اختلافات المسلمين في فهم الشريعة الإسلامية تعميقاً لعوامل وحدتهم وحماية لها من عادية التفرق والشقاق .

إن هذا الاسغتراب صحيح عندما يكون مآل الاختلاف أن يَنْسِبَ كل فريق صاحبه إلى انحراف في الفهم والسلوك ، أو إلى الوقوع في خطيئة لا تُغتفر .

غير أن الذي تبيّن لنا من معنى المذاهب الفقهية وعوامل نشأتها ، أن الخلافات الفقهية التي تشكل العمود الفقري في تلك المذاهب ، كانت خلافات تعاونية مسوغة ، لا خصومات أو شقاقات فكرية مجرّمة .

ومعنى هذا أن نسيج الوحدة الإسلامية إنما تلاقت سداه ولحمته من هذه الخلافات التعاونية ، إذ لولا الساحة التشريعية العريضة التي

تكونت من مجموع الاجتهادات الفقهية المتعددة ، لما أتيح للمساحات الإسلامية الشاسعة والمتنوعة ، أن تتلاقى وتتلاحم تحت مظلة شريعة واحدة ، ومن ثم لما أتيح لها أن تخضع ـ على اتساعها ـ لنظام دولة واحدة .

وإن نظرة واحدة متدبرة إلى التفاعل الذي كان قائماً في صدر الإسلام ، وأيام الخلافة الراشدة وما بعدها ، بين أنشطة المذاهب الفقهية من جانب ، ومظاهر وحدة الدولة الإسلامية من جانب آخر ، ليبرز ويؤكد الحقيقة التي نقولها ، وما سمعنا في التاريخ قط أن خلافات المذاهب الفقهية كانت وبالاً على الوحدة الإسلامية في أيّ من عصورها الذهبية ، وما ينبغي ، ونحن نؤكد هذه الحقيقة ، أن ننسى دور المناهج الفكرية ، واعتماد الفقهاء على قواعد تفسير النصوص التي تم تدوينها في أواخر القرن الثاني ، في تحصين هذه المذاهب ضد عادية الشرود ، وعوامل الانزلاق في المتاهات التي من شأنها أن تنتزع ثقة الأئمة والعلماء بعضهم ببعض ، وأن تحيل اختلافاتهم التعاونية إلى اتهامات وشقاق .

ولا داعي إلى أن نعيد إلى الذاكرة ثناء أئمة المذاهب الأربعة بعضهم على بعض ، وصلة الود والتقدير المتبادلين بين الإمام الشافعي والإمام أحمد ، وإعجاب كل منهما بالآخر ، وثناء الإمام الشافعي على أبي حنيفة وتلميذه محمد وأبي يوسف ، وقول الشافعي عن الإمام مالك : « مالك معلمي وعنه أخذنا العلم » .

* * *

الآفات التي لحقت بالمذاهب الفقهية

غير أن المذاهب الفقهية على الرغم من دورها الإيجابي ، في ترسيخ بناء الشريعة الإسلامية ، وتعميق دعائم الوحدة الإسلامية ، خلال ما لا يقل عن خمسة قرون من عمر الشريعة الإسلامية ، أصابتها ـ كأي شيء آخر ـ آفات قلصت الكثير من آثارها الإيجابية ، وكادت أن تحيل آثارها المفيدة الوحدوية إلى نتائج سلبية ضارة في كثير من الأحيان .

وتتلخص هذه الآفات في :

١ـ تسليط قدر كبير من آثار الاختلاف بين الفرق الاعتقادية والسياسية عليها .

٢ـ إخضاع ضوابط الرواية وعلم الجرح والتعديل لتيار بعض المذاهب الاعتقادية والسياسية .

٣ـ تعصب أتباع المذاهب لمذاهبهم .

فلنفصل القول في كل من هذه الآفات بالقدر الذي تتعلق به الحاجة في هذا المقام .

أولاً : أثر الاختلافات الاعتقادية والسياسية على المذاهب الفقهية :

من المعلوم أن أكثر المذاهب الاعتقادية التي يُعبر عنها بالفِرَق ،

بادت بعد أن انتشرت وسادت ، فالمرجئة والجهمية والقدرية والمجسمة والحشوية ، وحتى المعتزلة ، ما كادت تعبر عن ذاتها وأفكارها بالجدل هنا وهناك حيناً من الوقت ، حتى أخذت تضمحل ثم تذوب في تيار العقيدة الإسلامية الكبرى المتمثلة فيمن يُسَمَّونه بأهل السنة والجماعة .

ولا يخفى أن الفضل في ذلك يعود إلى إمامين جليلين ظهرا في عصر واحد ، أحدهما الإمام أبو الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠ـ ٣٣٠)، وثانيهما الإمام محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي (٠٠٠ـ٢٦٨) .

إن أياً من هذين الإمامين لم يكن صاحب مذهب أو نحلة ، أو داعياً إلى أي بدعة جديدة . بل انحصر عمل كل منهما في الانتصار لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وفي السعي الدؤوب للعودة بالمسلمين إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، بعيداً عن سائر البدع والأهواء المستحدثة.

وقد كانت جماعة الفقهاء والمحدثين والمشتغلين بالتفسير في الحجاز وبلاد الشام والعراق قد اعتزلوا الخصومات التي ارتفع أوارها بين تلك الفرق المبتدعة المتهارجة ، ومضى كل منهم يعكف على ما تفرع له من حديث أو فقه أو تفسير .

فلما رأوا الإمام الأشعري واقفاً في وجه تلك التيارات كلها ، يذبّ عن حياض الكتاب والسنة ، داعياً إلى النهج الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون من بعده ، أقبلوا إليه من كل حدب وصوب

يؤيدونه ويدعمونه وينتصرون له ، ومن ثم سمَّوه نصير أهل السنة .

وقد كان في مجمل عمله الذي قام به كل منهما ، أشبه ما يكون بمن أقبل على جادة عريضة تكاثرت فوقها الأتربة والحجارة والرمال ، حتى ضاع على المارة معالمها وتاهوا عن حدودها ، فجعل يزيح عنها الأتربة والرمال ، ويعيدها معبّدة تحت الأقدام ، ويجلّي معالمها وحدودها أمام الأنظار .

أي أن الإمام الأشعري لم يُنشىء ولم يبتدع أي مذهب جديد ، وإنما عمد إلى الصراط العريض الذي تركه رسول الله ﷺ جلياً واضحاً ظاهره كباطنه ، ثم جاءت تلك الفرق المبتدعة فمدت فوقه من خصوماتهم وابتداعاتهم سحباً وغشاوات ضيعت معالمه على الآخرين وعلى كل من سيأتي بعدهم ، فبدد هذا الإمام تلك السحب والغشاوات ، وأعاد ذلك الصراط كما تركه رسول الله ﷺ ناصعاً جلياً بصدق بلائه وانتصاره لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فلذلك خرج علماء الفقه والحديث والتفسير عندئذ من عزلتهم الطويلة التي كانوا قد آثروا الالتجاء إليها فراراً من صخب تلك المجادلات ، وأقبلوا يؤيدون الإمام الأشعري من كل الجهات وأحاطوا به إحاطة الجنود بالقائد .

وهذا ما فعله الإمام الماتريدي أيضاً ، في بلاد ما وراء النهر .

والمهم أن نكون على بينة من أن الإمام الأشعري لم يكن صاحب فرقة تضاف إلى تلك الفرق المبتدعة ، كما توحي بذلك المدارس الاستشراقية المختلفة ، ولو كان في حقيقته كذلك ، إذن لما أقبل إليه

جماهير علماء الفقه والحديث والتفسير مؤيدين ومنتصرين ، وهم الذين كانوا قد قاطعوا واعتزلوا الفرق المبتدعة كلها .

يقول ابن السبكي في طبقات الشافعية :

« اعلم أن أبا الحسن الأشعري لم يبتدع رأياً ولم يُنشىء مذهباً ، وإنما هو مقرر لمذهب السلف ، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ ، فالانتساب إليه إنما هو بأنه عَقَدَ ـ على طريقة السلف ـ نطاقاً وتمسك به ، وأقام الحجج والبراهين عليه ، فصار المقتدى به في ذلك ، السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً » .

ويقول ابن خلكان : « هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب أهل السنة ، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية » .

وقال عنه ابن العماد في شذرات الذهب :

« وقد بيض الله به وجوه أهل السنة النبوية ، وسوّد به رايات أهل الاعتزال والجهمية ، فأبان به وجه الحق الأبلج ، ولصدور أهل العلم والعرفان أثلج » .

وقال عنه ابن عساكر :

« اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ، شدَّد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة » .

إذن فلقد اختفى جُلُّ تلك الفرق المتهارجة التي ظهرت على ساحة المجتمع الإسلامي ظهور الثآليل على الجسم السوي الصحيح ، وعادت أصول الوحدة الاعتقادية والفكرية لهذه الأمة راسخة مستقرة من جديد ، اللهم إلا أن الفكر الاعتزالي ، الذي ساد ثم باد ، تسعى اليوم مدارس استشراقية معروفة إلى ابتعاثه من جديد ، وذلك خلال بث الدعاية لنثارٍ من مواقفه وآرائه الجزئية .

بوسعنا إذن أن نقول : إن هذه الفرق لم تترك خلال فترة هياجها أثراً سلبياً يُذكر في علاقات المذاهب الفقهية بعضها ببعض .

إلا أنه من الممكن أن نلاحظ ظاهرتين تجسدان نوعاً واضحاً من التفاعل أو التأثير المتبادل بين بعض تلك الفرق الاعتيادية والمذاهب الفقهية ، وبوسع الباحث أن يرى هذا التأثير ظاهرة إيجابية مفيدة ، كما أن بوسعه أن يفسرها تفسيراً آخر مخالفاً .

الظاهرة الأولى : المذهب الإباضي ، ونحن نعلم أن الإباضية هي الفرقة المتبقية من ست فرق تشكل جُلّ من يُسَمَّون بالخوارج ، أما الفرق الخمس الأخرى فقد تاب كثير منهم ، ورجعوا عن ضلالتهم بحكمة سيدنا علي رضي الله عنه في محاورته لهم ، واتساع صدره معهم ، وقضى على سائرهم ممن أبى إلا التكفير والقتال .

وفرقة الإباضية هذه ، أقل الخوارج شططاً وغلواً ، وأكثرهم ورعاً والتزاماً . وقد كان المفروض أن تبقى أفكارهم الفقهية التي اختصوا بها ، محصورة في النقاط المتعلقة بالأمور الاعتقادية الخاصة بهم ، غير أنهم تجاوزوا ذلك إلى إقامة بنيان فقهي خاص بهم ، وظهرت لهم

المؤلفات بل الموسوعات الفقهية التي تعبر عن شخصية فقهية خاصة للفرقة الإباضية .

والراجح الذي تسكن إليه النفس أن فقهاء المذهب الإباضي ، لو لم تكن أفكارهم الاعتقادية والسياسية قد شكلت منهم جماعة مستقلة ، لكانوا اليوم تلامذة ، بل فقهاء بارزين تتوازعهم المذاهب الفقهية الأربعة ، ولكن جذورهم الفكرية الاعتيادية أبت عليهم إلا أن تكون لهم شخصية فقهية مستقلة ، هذا مع العلم بأن جل آرائهم الفقهية لا تخرج ، لدى تمحيص النظر فيها عن دائرة المذاهب الأربعة .

إن الأثر السلبي الذي لا يغيب عن بال أحدنا لهذه الظاهرة، أن الشاب الإباضي يحسب ـ وهو يرى أمامه مذهباً فقهياً خاصاً بالإباضية ـ أن مذهبه الاعتقادي الموروث يفرض عليه أن لا يتخذ من دون مذهبه الفقهي مذهباً ، ومن ثم فهو ينظر إلى سائر الاجتهادات الفقهية الأخرى، على أنها غير صالحة له ولا تتفق مع مذهبه الاعتقادي أو السياسي .

إلا أن الأمر في واقعه العملي ، مخالف تماماً لهذا التصور . فإن المصادر المعتمدة لاستنباط الأحكام الفقهية ، مستقلة كل الاستقلال عن الأدلة المعتمدة في آرائهم الاعتقادية ، لا سيما الإباضية ، الذين لا نكاد نجد فرقاً بينهم وبين جمهور أهل السنة في جل الأحكام الفقهية الاجتهادية .

الظاهرة الثانية : المذهب الشيعي الذي تفرعت عنه مذاهب فقهية متعددة ، من أبرزها مذهب الإمامية ، والزيدية ، والهادوية. . . إلخ .

ولسنا الآن بصدد بيان الفروق القائمة بين هذه المذاهب التي تؤول بجملتها إلى مذهب واحد ، ولكن الذي يهمنا في هذا الصدد أن نتساءل عن علاقة البنية الفكرية والعقائدية لمذهب الشيعة عموماً بالمنهج المقرر عندهم في الاجتهادات الفقهية . . !

إن كلاً من الإمام محمد الباقر ، وابنه جعفر الصادق ، وزيد بن علي رضي الله عنهم جميعاً ، من أبرز أئمة الفقه الشيعي اليوم . وما من مسألة فقهية في مذهب الشيعة إلا وتنسب إلى واحد من هؤلاء الأئمة الثلاثة .

غير أننا عندما نعود إلى أصول الاجتهاد الفقهي ، المعتمدة عند هؤلاء الأئمة الأعلام ، لا نجد أيّ فرق بينها وبين الأصول الاجتهادية المتبعة لدى سائر الفقهاء ، لا سيما أئمة المذاهب الأربعة . بل لقد كان بين هؤلاء الأئمة الثلاثة وأئمة المذاهب الأربعة ، من التفاعل والتعاون ما يُؤكد أنهم كانوا ينهلون من مصادر فقهية واحدة ، ومن ثم فقد كانوا جماعة بل كتلة فقهية واحدة . ولقد لقي أبو حنيفة كلاً من زيد بن علي ، ومحمد الباقر وجعفر الصادق فدارسهم وأخذ منهم . ووافقهم في حب آل البيت والتعلق بهم ، ووافقوه في تقدير الخلفاء الثلاثة واحترامهم وعدم ذكرهم بأيّ سوء .

ولقد لقي الإمام مالك إمام دار الهجرة جعفر الصادق رضي الله عنه وأخذ عنه وكان يذكره بأحسن ما يذكر طالب شيخه .

روى السيوطي في تزيين الممالك أن الإمام مالك قال : « كنت آتي جعفر بن محمد ، وكان كثير المزاح والتبسم ، فإذا ذكر عنده

النبي ﷺ ، اخضر واصفرّ ، ولقد اختلفتُ إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً ، وإما يقرأ القرآن ، وإما صائماً ، وما رأيته قط يُحَدِّثُ عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة ، ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء العباد الزهاد ، وما رأيته قط إلا ويُخرجُ الوسادة من تحته ، ويجعلها تحتي . . . » .

إذن ، فقد كان المنهل الفقهي وأصول الاجتهاد عند هؤلاء جميعاً واحدة ، وكانوا يتلاقون على خدمة الشريعة الإسلامية وتجلية أحكامها ، أسرةً علمية وإسلامية واحدة .

وإن أحدنا ليسأل : كيف أمكن أن يتكون للشيعة فقه مستقل وخاص بهم ، مما زادهم انشطاراً واستقلالية عن جمهرة أهل السنة والجماعة ، مع ما نعلمه يقيناً بأن كلاً من زيد بن علي ومحمد الباقر وجعفر الصادق ـ وهم ركائز ومصادر ما يسمى اليوم بالفقه الشيعي ـ كانوا أساتذة لأكثر أئمة المذاهب الأربعة ، إن لم نقل أنهم كانوا أساتذة وشيوخاً لهم جميعاً ولم نعثر بعد طول البحث والتحقيق ، على أي تحفظ فكري أو مذهبي من أي الطرفين للآخر ، بل إننا لنسأل : ما الذي حال دون استمرار هذه الوحدة المذهبية إلى اليوم . . ؟

أغلب الظن أن الشخصية الفقهية للشيعة ، نشأت فيما بعد مع الزمن ، وإنما نشأت ظلاً لشخصية التشيع وآثاره وذيوله ، وهذا ما لم يكن موجوداً في عهد أولئك الأساطين الثلاثة في القرون الثلاثة المباركة التي أثنى عليها رسول الله ﷺ .

فإن كان لذلك عامل آخر ، فهو إذن هذا العامل الثاني الذي

سنتكلم عنه والذي يُشكل في الوقت ذاته الآفة الثانية من الآفات التي لحقت المذاهب الفقهية .

ثانياً : إخضاع فن الرواية وعلم الجرح والتعديل لشرط العصمة :

وإنما اشترطها الشيعة في الأصل لصحة الإمامة ، سواء منهم من يرى أن الإمامة محصورة في أولاد فاطمة رضي الله عنها بالنص عليهم واحداً إثر آخر ، أو من يرى أن مساق الخلافة في أولادها ولكن باختيار الشيوخ ولهم على ذلك أدلتهم التي يسوِّقونها .

غير أنهم ـ أو كثيراً منهم ـ سحبوا هذا الشرط إلى فن الرواية والجرح والتعديل ، فجعلوا من جملة شروط قبول الرواية أن يكون الراوي من آل البيت ، ولعلهم إنما يشترطون ذلك تلمساً لمزية العصمة في الرواة . إذ لو لم يُفْتَرَض انفراد آل البيت بها لما كان ثمة أي معنى لاشتراط كون الرواي من آل البيت .

إن اعتبار هذا الشرط ، ووضع الشيعة له فيما بعد موضع التنفيذ ، كان لا بّد أن يُفرد الشيعة بمنهج مستقل في فهم الحديث الصحيح ، وشروط الأخذ به ، ومن ثَمَّ فقد كان لا بّد أن ينبثق لهم من ذلك فقه خاص بهم يعتمد على أحاديث خاصة بهم .

ونحن لا نريد هنا أن نناقش هذا الشرط الذي فرضوه في الأصل لصحة الإمامة غير أن نوضح أن أياً من أئمة آل البيت رضي الله عنهم ـ وفي مقدمتهم أولئك الأعلام الثلاثة ـ لم يقتصر في أخذه الحديث على آل البيت ، بل روى عنهم وعن عامة الصحابة ، وعن كثير من

التابعين ، كإبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن المسيب ، وعبيد الله بن أبي رافع . . ! كما أن آل البيت لم يكونوا هم المنفردين بالرواية عن كل منهم ، بل التقى على الرواية عنهم والأخذ منهم جمهرة أهل السنة والجماعة من آل البيت وغيرهم .

فكان من آثار ذلك أن اتحد سبيل الاجتهاد الفقهي فيما بينهم وانطلقت موازينه من رؤية وأصول واحدة . إذن فما المبرر لهذا الانشطار الذي ظهر فيما بعد ؟ومن أين انبثقت ضرورة عدم أخذ الحديث إلا من آل البيت ، وحصر الرواية فيهم ؟

ثالثاً : تعصب أتباع المذاهب لمذاهبهم :

نشأت هذه العصبية في القرون المتأخرة ، ولعلها زادت واستشرت في أواخر عهد الخلافة العثمانية ، إذ كان المذهب الحنفي هو المعتمد من قبل الدولة ، ومن ثَمَّ فقد كان هو السائد في أكثر المناطق لنفوذ الأتراك .

ولعل أتباع المذهب الحنفي هم أول من أظهروا العصبية لمذهبهم ، فألحقوا به ذيولاً من الأحكام التي لم تكن معروفة من قبل ، كتحريم الانتقال من المذهب الحنفي إلى غيره ، وإخضاع من يفعل ذلك لنوع من التعزيز ، وكالتشنيع على الاجتهادات الفقهية عند بعض المذاهب الأخرى ، في كثير من حواشي المتأخرين ، حيثما مَرَّت لذلك مناسبة ، ولعل متأخري الحنفية هم أول من ابتدعوا إنشاء عدد من المحاريب في المسجد الواحد ، بقدر عدد المذاهب المنتشرة

في تلك المنطقة ، وكان ذلك تمهيداً لتنظيم أربع جماعات في المسجد الواحد لكل صلاة ، وإيعاذاً بحرمة اقتداء الشافعي بالإمام الحنفي والعكس ، ولقد انتشرت هذه العادة فعلاً في البلاد التي ينتشر فيها أكثر من مذهب واحد كبلاد الشام والعراق . وفي المسجد الأموي بدمشق يوجد إلى الآن أربعة محاريب لأربعة مذاهب ، ولكل منها إمام راتب يفترض أن لا يقتدي به إلا من هم على مذهبه .

هذا مع العلم بأن الإجماع منعقد على صحة اقتداء المصلي بالإمام الذي ينتمي إلى مذهب مخالف لمذهبه ، ما دام أنه غير متأكد من أن الإمام متلبس بما يُبطل الصلاة في مذهب المقتدي على أن هذا في حق من كان لديه من الثقافة الفقهية ما يجعله أهلاً لاتباع مذهب فقهي بعينه ، فأما عوام الناس ، فإن مذهب أحدهم إنما هو مذهب الإمام الذي يقتدي به .

ومن الطبيعي أن ينشأ عن هذا التعصب ردود فعل من جنس المشكلة ذاتها لدى أتباع المذاهب الأخرى ، وقد ظهرت ردود الفعل هذه في مظاهر متعددة .

فمنها : اعتداد كل صاحب مذهب بمذهبه ، إلى درجة الاستهانة والانتقاص من المذاهب الأخرى ، وهكذا ـ فبعد أن كان الخلاف بين أئمة هذه المذاهب خلافاً تعاونياً كما قلنا ـ تحول الخلاف بين أتباعها في كثير من الأحيان إلى تنافس وتخاصم واتهام .

ومنها : الركون إلى المماحكات والمجادلات المؤلمة والجارحة ، في جزئيات فقهية مما وقع فيه الخلاف ، كإسبال اليد

وعدم إسبالها في الصلاة ، وكالقنوت أو عدم القنوت في صلاة الفجر ، وكقضاء الصلاة الفائتة أو عدم قضائها ، وكمشروعية أو عدم مشروعية جلسة الاستراحة في الصلاة. . . إلخ ، فبعد أن كانت هذه المسائل توضع في أماكنها من الاعتبار ضمن سُلَّم الأولويات ، عند الأئمة والفقهاء السابقين ، وكانوا يمرّون باجتهاداتهم عندها ، دون أن يستشعر أحدهم بأيّ وقع لاختلافاتهم فيها ، إلى درجة أن الإمام الشافعي أمسك عن القنوت في صلاة الصبح في مسجد أبي حنيفة ببغداد ، ولما سئل عن ذلك قال : أدباً مع صاحب هذا القبر . أقول بعد أن كان هذا هو موقف الأئمة السابقين من هذه المسائل الجزئية ، خلف من بعدهم خلف يتباهون بآرائهم الشخصية في هذه المسائل ، ويجعلون منها عصيّ تأديب واتهام لكل من خالفهم فيها ، ولا يبالون أن يثيروا أخطر أنواع الشجار فيما بينهم ، وربما داخل المساجد ، لينتصر كل منهم لنفسه في ساحة هذه الجزئيات التي ليست لها أي أهمية في ترتيب سلّم الأولويات .

ومن أسوأ ما أفرزته هذه الخصومات التي بلغت في كثير من الأوقات إلى درجة اللكم والصفع في داخل المساجد ، كتاب أصدره أحدهم بعنوان « الأزهار الفواحة في سنة جلسة الاستراحة » .

وواضح جداً لكل ذي وعي من الناس أن هذا الخصام الشديد الذي يُمَزِّق وحدة المسلمين إرباً ، ليس انتصاراً لدين الله من خلال هذه الجزئيات الصغيرة التي يسع المسلم أن يتقرب إلى الله بفهمها على الوجه الذي يريد ، بل يسعه أن لا يلتزم بها أصلاً ، وإنما هو انتصار

في الحقيقة للنفس على حساب مصلحة الدين ، بل في مقابل القضاء على أقدس ما جاء الإسلام لتحقيقه ثم لحمايته ، ألا وهو وحدة هذه الأمة وتضامنها .

ولعل هذه الظاهرة التي نعاني منها اليوم ، هي أبلغ وأخطر ما قد وصلت إليه العصبية المذهبية ، بل عصبية الاختلافات الفقهية عموماً في حياة المسلمين.

وإني لأعلم أن المتربصين بالإسلام والمسلمين ، يستغلّون هذه المصيبة التي جَرَّها المسلمون بأيديهم على أنفسهم أبشع استغلال .

* * *

وأخيراً : كيف نعالج هذه الآفات.. ؟

ليس فينا من يجهل القاعدة القائلة : إدراك المشكلة واليقين بأنها مشكلة يساوي نصف الطريق إلى حلّها .

وفي يقيني ، بأن إيماننا جميعاً بأن هذه الآفات الثلاث ، هي فعلاً آفات خطيرة تقلب الآثار الإيجابية المفيدة للمذاهب الفقهية إلى آثار سلبية ضارة ، يشكل أهم مراحل المعالجة لها .

من الذي يدرك أن هذه الآفات الثلاث هي فعلاً كما قلنا ، ثم يركن مع ذلك إليها ويدعمها في دراساته العلمية وسلوكه العملي ، إلا إن كان ممن يضيق ذرعاً بقوة هذه الأمة ، ويسعد برؤيتها متفرقة متخاصمة. . ؟!

ولكن ، ترى هل يوجد فينا من لا يؤمن بأن هذه الآفات هي فعلاً آفات ؟

وإذا وجد فينا من لم يكن يؤمن بذلك ، أفلا يرى ما هو خاضع لسلطان التجربة والمشاهدة ، من النتائج السيئة لها ، والتي لا يرتاب في شدة سوئها وآثارها الضارة أحد ؟

فإن كان هناك من يكابر ، ويصف هذه الآفات بنقائضها من الخير والفائدة للإسلام والمسلمين فليس عندئذ من جدوى ولا علاج لتحطيم كبرياء هذه المكابرة ، إلا أن نستثير في الألباب والنفوس

عوامل الإخلاص لدين الله والسعي إلى مرضاة الله .

ومحال لمن أخلص لله عز وجل في علمه وسعيه ، أن يتيه في هذه الساحة عن معرفة الحق ، أو أن يلتبس عليه الانتصار للنفس وكبريائها ، بالانتصار لدين الله واتباع مرضاته .

غير أن الإخلاص لدين الله سرّ يودعه الله ـ كما قالوا ـ قلب من أحب من عباده ، فلا سبيل للحصول عليه بتصنع أو تكلف . إذن فما السبيل للحصول على هذا السرّ الرباني العظيم ؟

السبيل هو أخذ النفس بمنهج تربوي جادّ ودائم ، قوامه الإكثار من ذكر الله وربط النِّعَم دائماً بالمنعم ، فإن المسلم إذا استقام على استعمال هذا العلاج ، تنامت محبة الله بين جوانحه وإنما ينبثق الإخلاص من هذا الحب. . وفي ضرام هذا الحب تنمحي حظوظ النفس وتذوب مشاعر الكبرياء ، وتتجلى هذه الآفات على أنها فعلاً آفات .

وما أسهل حينئذ القفز فوقها ، والعود إلى سنن الرشد الذي كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم ، إذ كان اختلافهم اختلافاً تعاونياً ، يزيدهم ألفة وتضامناً وحباً .

❊ ❊ ❊

نقاط أربع لعلها تشكل الأمة الإسلامية الواحدة

مدخل وتحرير لمحل البحث :

كلمتان في موضوعنا هذا ، ينبغي تحرير المراد بكل منهما ، قبل الخوض في مسائله وتفرعاته .

الكلمة الأولى : (التقارب) ما المعنى المراد بها في هذا المقام . . ؟ أعتقد أن فينا من يظن أن المراد بها تضييق مساحة الخلاف بين المذاهب الإسلامية جهد الاستطاعة . وإنما يكون سبيل ذلك ـ إذا كان هذا هو المراد ـ التلاقي على الحوار والمناقشة في النقاط الخلافية التي يظن أن من اليسير الاتفاق فيها على رؤية واحدة ، لو تم التحقيق بشأنها . . كما أعتقد أن فينا من يفسر هذا التقارب بقبول كل منا للآخر على وضعه الذي هو فيه ، وإنما يكون السبيل إلى ذلك ـ إذا كان هذا هو المراد ـ أن ينظر صاحب كل مذهب إلى الآراء المخالفة في المذهب الآخر ، على أنها داخلة في القضايا الاجتهادية التي يُلْزَم فيها المجتهد بما قد بَصَّره به اجتهاده . سواء أخذنا برأي المصوبة الذين يرون أن الحق في المسائل الاجتهادية تابع لما انتهى إليه اجتهاد المجتهد ، أو أخذنا برأي المخطئة الذين يرون أن الحق ليس تابعاً إلا لما ثبت أنه الحق في علم الله عز وجل .

والذي أجزم به أن التفسير الأول للتقارب غير صالح ، ومن ثَمَّ فهو غير وارد ولا مراد ، بل الراجح أن محاولة التقريب عن هذا الطريق ، لا تزيد أصحاب المذاهب إلا جفوة وتباعداً ، ولو كان في النقاط الخلافية ما يمكن التلاقي بشأنه على رأي واحد ، لكان في جهود السابقين خلال الأجيال المنصّرمة ما حقق ذلك .

إذن فالتفسير السليم لكلمة التقارب هنا ، هو التفسير الثاني ، أي أن يتّسع صدر كل منا ، بل فكره وعقله ، لقبول ما عند الآخر ، وذلك عن طريق الاحتكام إلى المصير الذي لا بّد منه ، ولا بديل عنه ، في القضايا الاجتهادية .

الكلمة الثانية : المذاهب الإسلامية ، ما المعنى المراد بها . . ؟ أهو المذاهب المتخالفة في بعض الأصول الاعتقادية ، أم هو ما يشملها ويشمل المذاهب الفقهية ، أي المتخالفة في بعض فروع الشريعة ؟ الذي أراه أن من الخير تعميم المراد بكلمة « المذاهب » هذه ، بحيث تشمل المذاهب الفقهية والاعتقادية ، ما دمنا نسميها مذاهب إسلامية ، ذلك لأنا نشهد في عصرنا هذا ظاهرة مؤسفة ، أبرزت الاختلافات الفقهية بين المذاهب الفقهية على أنها مصدر من مصادر العصبية للرأي ، بل للذات ، بعد أن كانت مصدراً من مصادر التفاهم والتعاون والتيسير ، ومن ثمَّ غدت هذه الاختلافات الفقهية أو كثير منها سبباً من أسباب الفرقة والاتهام بالضلال والابتداع . !

إذن فليكن محور حديثنا في معالجة هذا الموضوع البحث عن منهج لتعايش أفضل بين المذاهب الإسلامية على اختلافها .

إن المنهج السليم إلى هذا التعايش ، يمكن العثور عليه ، **من خلال العمل على تنفيذ النقاط التالية :**

النقطة الأولى : الانطلاق من خطوة تأسيسية لا بّد منها ، هي الإخلاص في كل من القصد والعمل لله عز وجل .

والحديث عن الإخلاص لله تعالى يحفّ به أكثر من مشكلة واحدة. . من ذلك ما هو معروف من أن شرط الإخلاص لقبول الأعمال وصلاحيتها ، من البدهيات التي لا يجهلها أحد ، والتي لا ينكر أهميتها أحد . فكأن الحديث عنه يغدو ، والحالة هذه ، تحصيلاً لحاصل ، أو اتهاماً للمسلمين العاملين في الحقل الإسلامي أو لكثير منهم ، بالإعراض عن أجلّ بدهية من بدهيات الدين. . !ومن ذلك أن الإخلاص من أجلّ أعمال القلب ، فهو أمر خفي لا يعلم بوجوده أو عدمه في سريرة الإنسان إلا الله عز وجل ، ومن ثَمَّ كانت إحالة المصائب والآفات التي تحيق بالمجتمع الإسلامي على الرغم من أنشطته وتحركاته ، إلى غياب الإخلاص لله تعالى عن القلوب ، اتهاماً كبيراً يوشك أن يكون عارياً عن الدليل عليه ، فما أيسر أن يتبرأ الموصوم بذلك عن هذه التهمة ، بل ما أيسر أن يرمي الذي يصمه بها بأنه قد تجاوز الظاهر الذي لا حق له في تجاوزه ، إلى الباطن الذي لا سبيل له إليه ، إذ لا يَطَّلِعُ عليه إلا الله عز وجل .

أقول : فلو التفتنا إلى هاتين المشكلتين بالنظر والاهتمام ، لكان علينا أن نمسك عن الخوض في أمر الإخلاص وبيان أهميته ، والتحذير من التساهل فيه ، كي لا يُحْرِجَ الناصح نفسه ،

ولكي لا يتهم الآخرين بدون دليل .

ولكن العلماء الربانين كانوا ولا يزالون يتحدثون عن أهمية الإخلاص وضرورته ، ويؤكدون أنه الروح التي يجب أن تسري في جميع الطاعات والأعمال التي يفترض أن يُتقرَّب بها إلى الله ، فإن غابت هذه الروح ، عادت الأعمال كلها أشباحاً لا قيمة لها ، وركاماً لحطام لا فائدة منه .

ونحن إنما نسلك مسلك هؤلاء العلماء ، فنذكر بضرورة الإخلاص لله تعالى ، دون اتهام ونحذر من عواقب استخدام الطاعات والقربات للمغانم والرغائب الدنيوية ، دون أن ندعي أن فينا من يفعل ذلك . ونقول : لأن الذي يجعل من الشعارات الإسلامية الكثيرة ، ومن مظاهر أنشطته المتنوعة الوفيرة ، ما يشبه في خمودها ، وجمودها وعدم جدواها ، المدينة المسحورة ، إنما هو غياب سِرِّ الإخلاص عنها ، نقول ذلك ، دون أن نشير بأي من أصابع الاتهام إلى أحد ، كي لا تهتاج الحساسية النفسية بين جوانح أي منا ، فيندفع إلى ردّ هذه التهمة عن نفسه ، موهماً أن التوجه بمثل هذه التذكرة يدخل في باب النصيحة المتعالية ، والإرشاد الذي لا مجال ولا معنى له بين الأنداد في مثل هذا المقام . وقد اهتاجت هذه الحساسية في لقاء مماثل يوماً ما ، من قبل .

وعلى كلٍ فَإِنَّ مما لا ريب فيه ، أن وجود الإخلاص لله تعالى في المقصد الاعتقادي ، وفي المناهج السلوكية ، يقطع السبيل على العصبيات المذهبية ، ويبعد الخلافات الاجتهادية التي لا مندوحة

عنها من الآفات المتنوعة التي قد تتسرب إليها ، وإن مما لا ريب فيه أيضاً أنه إن لم يتحقق هذا المنطلق الأساسي الذي لا بّد منه ، فإن الالتزام ببقية خطوات المنهج الذي نتحدث عنه يغدو أمراً عسيراً ، وإن تيسر تحقيقها فلن تُجْدِيَ شيئاً ولن تُحَقِّقَ شيئاً من أهدافها .

النقطة الثانية : الاحتكام إلى قاعدة « إذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد » .

ومن المعلوم أن هذا الكلام قبل أن يصبح قاعدة شرعية ثابتة لها أثرها في مجال الرأي والاجتهاد ، حديث نبوي صحيح متفق عليه . ولفظه فيما اتفق عليه الشيخان وأحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن العاص :(إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد) .

ومن المعلوم أيضاً أن خصوصية الحاكم هنا ساقطة عن الاعتبار ، كما قال العلماء أي ليس لها مفهوم مخالف ، إذ الملاحظ في الحاكم هنا وضعه الاجتهادي ، وهو ينطبق على حال كل مجتهد .

إن الذي ندركه من مدلول هذا الحديث النبوي الذي غدا قاعدة ذات أثر كبير في أمور العقيدة والقضايا الفقهية والعلاقات الأخلاقية ، أن سائر الخلافات المذهبية التي تبرز داخل دائرة العقائد الإسلامية الجامعة أو الفروع الفقهية ، بدافع من الإخلاص لوجه الله عز وجل ، تظل مكلوءة بنعمة الرضا من الله تعالى ، وعائدة بالأجر الوفير منه عز وجل ، ما دامت المسائل التي وقع الخلاف فيها اجتهادية ، وما دام أئمة هذه المذاهب يتمتعون بمزية ويرتؤون .

غير أن الآفة التي تتربص بهذه القاعدة ، العصبية التي يحتكر بموجبها صاحب المذهب وجه الحق في المسألة الخلافية ، لما قد هداه إليه رأيه الاجتهادي دون غيره ، فيسفه سائر الآراء الاجتهادية الأخرى في تلك المسألة ، ويلغي بذلك القاعدة النبوية التي فسحت المجال ، بإخبار من رسول الله ﷺ ، أمام سائر المجتهدين الذين فرقتهم اجتهاداتهم من تلك المسألة في طرائق متعددة ، لبلوغ الرضا والأجر من الله عز وجل .

وسبيل التخلص من هذه الآفة ، أن نعود إلى المسألة الخلافية فنتذكر أو نؤكد أنها من المسائل الاجتهادية ، التي لا يمكن أن يتعرض العلماء المختلفون بشأنها لأي فسوق أو ضلال أو كفر ، من جراء اختلافهم فيها . . فإن تذكرنا وأكدنا ذلك ، سلكنا الاجتهاد فيها سبيل العبد الذي لا يبتغي بعمله إلا الوصول إلى مرضاة الله ، موقنين أن إخواننا الآخرين الذين يتمتعون بالمزية الاجتهادية ذاتها ، يسلكون في اجتهاداتهم السبيل ذاته ، ويتبعون الغاية ذاتها . فأنى للعصبية عندئذ أن تجد سبيلها إلى هؤلاء الإخوة الذين جمعهم السعي إلى مرضاة الله ، وأنى لوساوس الشيطان أن تثبت في ذهن كل منهم بأن الحق في تلك المسألة ليس إلا ما قد هُدي هو إليه . . ؟

وعلى الرغم من أن هذا السبيل للتخلص من هذه الآفة ميسر ومفتوح ، فإنها كثيراً ما تفعل فعلها الممقوت في تقطيع صلة القربى بين الإخوة المجتهدين ، ولا ريب أن مرد ذلك في الغالب إلى العصبية للرأي ، بل للذات .

وعلى سبيل المثال : إن مقتضى هذا السبيل ، أن لا يُسْتَجَرَّ أتباع مذهب إسلامي أياً كان إلى مذهب آخر ، فلا يُسْتَجَرَّ شيعي ليصبح سُنياً ، ولا العكس ، ولا يفتن زيدي عن زيديته ولا إباضي عن إباضيته .

ولكن ما أكثر ما تُنسي العصبية للرأي وللذات أصحابها هذه الحقيقة ، ففي شمال سورية وفي جنوبها مثلاً أناس حُمِلُوا على التشيع بوسائل شتى . ترى هل حصل العكس أيضاً ؟ لقد تتبعت وبحثت ، فلم أعثر بحمد الله على أثر لذلك .

وفي أتباع المذاهب الفقهية اليوم ، من تحرفهم هذه العصبية ذاتها ، فينسون أو يتناسون أن أئمة هذه المذاهب أَدَّوْا في اجتهاداتهم الفقهية التي انتهوا إليها ضريبة العبودية لله ، سواء فيما اتفقوا عليه من ذلك أو فيما اختلفوا فيه . فكان لعامة المسلمين من بعدهم أن يتبعوا من شاؤوا منهم معذورين ومأجورين .

أجل ، إن في أتباع بعض المذاهب الفقهية من يتناسون هذه الحقيقة ، فلا يُقِرُّون إلا بالمذهب الذي طاب لهم أن يتبعوه ، ولا يشكون في أن من خالف مذهبهم ذاك ، فقد خالف وتحلل من ربقته . وعلى سبيل المثال : تارك الصلاة كسلاً مرتّد خارج عن الملة تترتب عليه سائر أحكام الردة ، أخذاً بما ذهب إليه الإمام أحمد في أحد الروايتين عنه ، أما ما رآه الشافعية والمالكية والحنفية ، من الرأي المخالف فباطل مردود وملغي عن الاعتبار. . !واستئصال اللحية معصية محرمة يلاحق بها كل متورط في هذا الجرم الشنيع ، ولا قيمة

لرأي من يرى أن إطلاقها سنة مؤكدة كالشافعية ، وكثير من الحنفية . . !ومن نكح مطلقة بائنة بينونة كبرى ، نكاحاً صحيحاً وافي الشروط والأركان ، قاصداً التسبب بذلك إلى أن تعود فتحل لزوجها ، طبقاً لما نص عليه البيان القرآني ، متورط من عمله ذاك في الزنا ، وأنه المعني بالتيس المستعار ، الإمام أحمد ذهب إلى أن النكاح بهذا القصد باطل ، لأنه صرف النكاح بذلك عما شُرِعَ من أجله وهو الدوام والإعفاف . أما ما يراه الشافعية والحنفية من أنه نكاح صحيح ، تحل به الزوجة لزوجها الأول بعد الطلاق ، وأن ذلك يدخل في إطلاق قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ ﴾ [البقرة: ٢٣٠] فلا يُلْتَفَت إليه . . !

ومما يُبْرِزُ وجه العصبية الممقوتة ، لدى أصحاب هذا النهج ، أنهم يعلمون أن الحنابلة والمالكية يقولون بصحة زواج من عزم أثناء عقد النكاح بقلبه على أن يطلق زوجته بعد ثلاثة أشهر مثلاً ، ويقول بصحة بيع من باع داراً لشخص خوفاً من تسلطٍ ظالمٍ عليه ، متفقاً معه على أن يستعيدها منه عند زوال الخطر ، وبصحة عقد من اشترى متاعاً قاصداً أن يستعمله في مُحَرَّم ، مع ما هو واضح من أن هذه العقود قد قُصد بها غير ما قد شرعها الله لأجله ، ثم يُعلنون النكير على الأئمة الذين يقولون بصحة عقد نكاح من نكح بائنة نكاحاً شرعياً وافي الشروط والأركان ، لأنه لم يقصد بذلك الإعفاف ، وإنما قصد الزوجة البائنة عوداً شرعياً سليماً إلى زوجها الأول .

وكم قادت هذه العصبية إلى شقاق وخصام ، وكم دعت أصحابها إلى وصف مخالفيهم من أتباع المذاهب الأخرى بالضلال والابتداع ،

فتمزقت من جراء ذلك فيما بينهم مشاعر الأخوة الإسلامية ، بدلاً من أن تزداد ـ استجابة لأمر الله ـ قوة ورسوخاً . . !

النقطة الثالثة : ضرورة مزيد من الاهتمام بدراسة الفقه المقارن ، من حيث العمق العلمي والاتساع الشمولي .

إن دراسة الفقه المقارن تعني دراسة أسباب الخلاف بين أئمة الشريعة الإسلامية ، ولا ريب أنها إن أوليت العناية التامة ، ودُرِسَت دراسة علمية معمقة ، تشمل أكثر أبواب الفقه ، تحقق فوائد وآثاراً إيجابية شتى ، من أهمها أنها تكشف عن قوة المدرك العلمي ، الذي استند إليه كُلٌ من الأئمة الذين اختلفوا في بعض المسائل والأحكام الفقهية ، ومن ثَمَّ فإن المستعرض لدليل كل منهم يدرك أنهم جميعاً على حق ، أي أن كُلاً منهم اعتمد فيما انتهى إليه ، على حجة قوية دامغة من وجهة نظره على أقل تقدير ، وبذلك يكون قد أعذر أمام الله عز وجل ، وإنها لأفضل طريقة علمية وتربوية للقضاء على أسباب العصبية للمذهب .

ولكني ألاحظ ـ ويا للأسف ـ أن الإخوة الذين يجنحون إلى ركن ركين من العصبية المذهبية وأكثرهم حنابلة من سكان الجزيرة العربية ـ لا يقيمون وزناً لهذا المقرر العلمي الهام ولا يعيرونه أي التفاتة ، وكيف يلتفون إلى ما لا وجود له في اعتبارهم ، أو إلى ما لا قيمة له في تصورهم . . !

إنني بمقدار ما أدعو عوام الناس إلى التقيد بمذهب ما من المذاهب الفقهية المدونة ، أحذرهم وأحذر مرشديهم من التعصب

للمذهب الواحد . ذلك التعصب الذي من شأنه أن يَنْسَخَ المذاهب الفقهية كلها بالمذهب الواحد ، وأن يُسَفِّهَ القائمين بواجباتهم الاجتهادية التي كلفهم الله بها ، وأن يهدد المثوبة التي بشرهم بها رسول الله ﷺ ، سواء لمن أصاب منهم الحق أو لمن تنكب عنه .

إن خير ما يقضي على هذا التعصب ، ويقضي على شرته ، بعد الإخلاص لوجه الله ، الاطلاع على أسباب الخلاف بين المذاهب ، وقد أفاض في بيان هذه الفائدة وأجاد العالم الجليل الإمام الشاطبي في كتابه « الموافقات » والشاه ولي الله الدهلوي في كتابه « حجة الله البالغة » .

النقطة الرابعة والأخيرة : ضرورة التنبه إلى أخطر الأسلحة التي يحارب بها الوجود الإسلامي في بلاد الشام .

إنه يتمثل في سلاح واحد لا ثاني له ، ألا وهو سلاح القضاء على البقية الباقية من وحدة الأمة الإسلامية ، والجسور الاعتقادية ، الواصلة ما بين فئاتها وأفرادها .

ولقد كان هذا السلاح خفياً فيما مضى ، على الرغم من شدة اعتماد محترفي الغزو الفكري عليه ، ولكنه غدا بيناً مكشوفاً في هذه السنوات الأخيرة ، فلقد أخذت سلسلة الوثائق الشاهدة على ذلك تظهر وتتوالى دون أي استخفاء أو تحفظ من أصحابها والمنفذين لوصاياها .

فمن ذلك التقرير الصادر عام ١٩٩١ من مجلس الأمن القومي

الأمريكي ، فقد تضمن شطره الأول بيان خطورة الإسلام على الحضارة الغربية بشطريها ، الأوروبي والأمريكي ، وتضمن شطره الثاني البنود التي يجب أن تنفذ للقضاء عليه في مهده ، وتجفيف معينه .

أول هذه البنود : إثارة التناقض في مضمون الأفكار والعقائد الإسلامية . . !على حد تعبير التقرير .

ثانيهما : تأليب المسلمين بعضهم على بعض . . !

ثالثهما : تحويل العمالة الإسلامية في دول الخليج العربي ، إلى عمالة آسيوية . . . إلخ .

ومن ذلك التقرير الذي رفعه « وليم كليفورد » ، مبعوث هيئة الأمم المتحدة ، مراقباً ، إلى سلسلة المؤتمرات التي عقدتها الجامعة العربية في أواخر السبعينات ، من القرن الماضي ، للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة ، إلى هيئة الأمم المتحدة ، وإلى المؤسسات الخفية المعنية بشأن الإسلام ومراقبة سيره وأنشطة قادته ورجاله . وهو أخطر ما وقع في يدي في تقرير يتحدث عن خطر الإسلام على الغرب ، ويضع المنهج الأمثل لتفتيته والقضاء على البقية الباقية من وحدة رجاله وقوتهم وغناهم ، أسباب تماسكهم وتنامي معتقداتهم .

ومن ذلك المقال الذي نشرته مجلة « foreign Affairs » ، لسان حال وزارة الخارجية الأمريكية في عدد تشرين الثاني من عام ١٩٩٢ ، عن خطر الإسلام ، وضرورة القضاء عليه ، وأفضل الطرق إلى ذلك ، وهو تقطيع جسور التواصل والتضامن بين الدول العربية التي هي

المصدر الأول للخطر الإسلامي ، ثم العمل على إيجاد أكبر قدر من التشاكس بين شعوب المنطقة وحكامها ، بحيث يسودها القلق والاضطراب ، وتنأى عن الهدوء والاستقرار .

إذن ، فالمسلم اليوم ، على ضوء هذه الحقيقة ، لا يعدو أن يكون أحد رجلين :

صادق مع الله في إسلامه ، إذن فلابّد أن يسعى سعيه جُهْدَ استطاعته على سد الثغرات المصطنعة بين فئات المسلمين ومذاهبهم ، ومَدَّ المزيد من جسور التآلف والتضامن والتعاون فيما بينهم .

أو متبرم بإسلامه كاذب بانتمائه إليه ، فما أيسر أن يكون هذا وأمثاله ، جنوداً وجهوداً مجهولين أو معلومين للساهرين على وضع المخططات المتتالية للقضاء على الإسلام وأهله ، ينفذون خططهم ، ويبعثون المزيد من أسباب الشقاق فيما بينهم ، ويوقظون عوامل الفتنة فيما بينهم ، لأتفه الأسباب التي كان المسلمون من سلفنا الصالح يغمضون العين عنها ، ويجعلونها فداء لوحدة الأمة وجمع شملها وشدّ آصار ما بينها .

فاللهم اجعلنا وقومنا ، من المسلمين الصادقين معك والمخلصين لك ، ولا تجعلنا من الذين يخادعونك في دينك ، ويمتطون من إسلامهم مطية ذلولاً إلى عصبياتهم ومصالحهم .

والحمد لله رب العالمين

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

مصطلحات أفرزتها الأزمة

مقدمة البحث ١٧

الحوار هو سدى ولُحمة الوفاق ٢٣

الحقوق المدنية والسياسية في الإسلام ٣٢

الإسلام السياسي والسياسة الإسلامية ٥٧

الخاتمة ٧١

مفهوم الثورة في الإسلام

مقدمة البحث ٧٧

مشكلة الانشغال بأحلام المجتمع الإسلامي عن الدعوة ٨٢

هل يمكن إقامة المجتمع الإسلامي على منهج ثوري ١١٣

الخاتمة وفيها نصيحة أزجيها لإخواني الدعاة ١٢٥

مصطلح « جهاد النكاح » وحقوق المرأة في الإسلام

مقدّمة البحث ١٢٩

أهمّية البحث في قضية المرأة المسلمة ١٣٣

أحوال المرأة قبل الإسلام ١٣٥

مكانة المرأة في الإسلام وحقوقها وواجباتها فيه ١٤٥

أوّلاً : المبادىء التي كرّم بها الإسلام المرأة : ١٤٨
ثانياً : الأهليات التي قرّرها الإسلام للمرأة ١٥٦
ثالثاً : التشريعات التي شرعها الإسلام للمرأة : ١٦٤
رابعاً : الدور الذي حدّده الإسلام للمرأة في المجتمع ٢٠٤

المنهج النبوي في الدعوة وموقع الأحزاب الدينية منه

مقدمة البحث ٢١٣
حوار حول الطريقة المثلى لفهم شخصية محمد ﷺ ٢١٦
ملامح تربوية في السيرة النبوية ٢٢٧
كيف يزكي المسلم نفسه باختصار ٢٣٦
العصبية الحزبية آفة الدعوة إلى الله ٢٤١
الخاتمة ٢٥٤

وحدة الأمة في ظل احترام أبنائها المتبادل وغنى التنوع المذهبي

مقدمة البحث ٢٦٣
المبحث الأول: التقارب بين المسلمين ضرورة تاريخية وعقيدية ومستقبلية ٢٦٧
أسس ووسائل وأهداف التقارب بين فرق المسلمين ٢٦٧
الأسس التي يجب أن ننطلق من خلالها في توحيد الصف ٢٧٥
مناقشة حديث افتراق الأمة إلى فِرَق كثيرة كلها في النار إلا واحدة ٢٨٧

المبحث الثاني: إكرام الصحابة وأئمة الفقهاء لآل المصطفى ﷺ ومحبة آل البيت لهم ٢٩٣
إكرام الصحابة لآل البيت رضي الله عنهم أجمعين ٢٩٣
محبة علي رضي الله عنه وآل البيت لأصحاب رسول الله ﷺ ودفاعهم عنهم ٣٠٩
بعض ما ورد عن أئمة آل البيت في الثناء على الصحابة، وردع من ذمهم ٣١٥
مواقف فقهاء السنة وأقوالهم في الثناء على أئمة آل البيت ٣١٩
الخاتمة ٣٢٨

أهمية المذاهب الفقهية في رعاية الوحدة الإسلامية

مقدمة البحث ٣٣١
الوحدة الإنسانية أهم الأهداف التي جاء الإسلام من أجلها: ٣٣٣
معنى المذاهب الفقهية: ٣٣٦
عوامل نشأة المذاهب الفقهية: ٣٣٩
تاريخ نشأة المذاهب الفقهية: ٣٤٣
الاختلافات الفقهية كانت ولا تزال اختلافات تعاونية: ٣٤٦
الآفات التي لحقت بالمذاهب الفقهية: ٣٤٨
أولاً: أثر الاختلافات الاعتقادية والسياسية على المذاهب الفقهية: ٣٤٨

ثانياً : إخضاع فن الرواية وعلم الجرح والتعديل لشرط العصمة : ٣٥٦
ثالثاً : تعصب أتباع المذاهب لمذاهبهم : ٣٥٧
وأخيراً : كيف نعالج هذه الآفات.. ؟ ٣٦١
نقاط أربع لعلها تشكل الأمة الإسلامية الواحدة : ٣٦٣
فهرس الموضوعات ٣٧٥